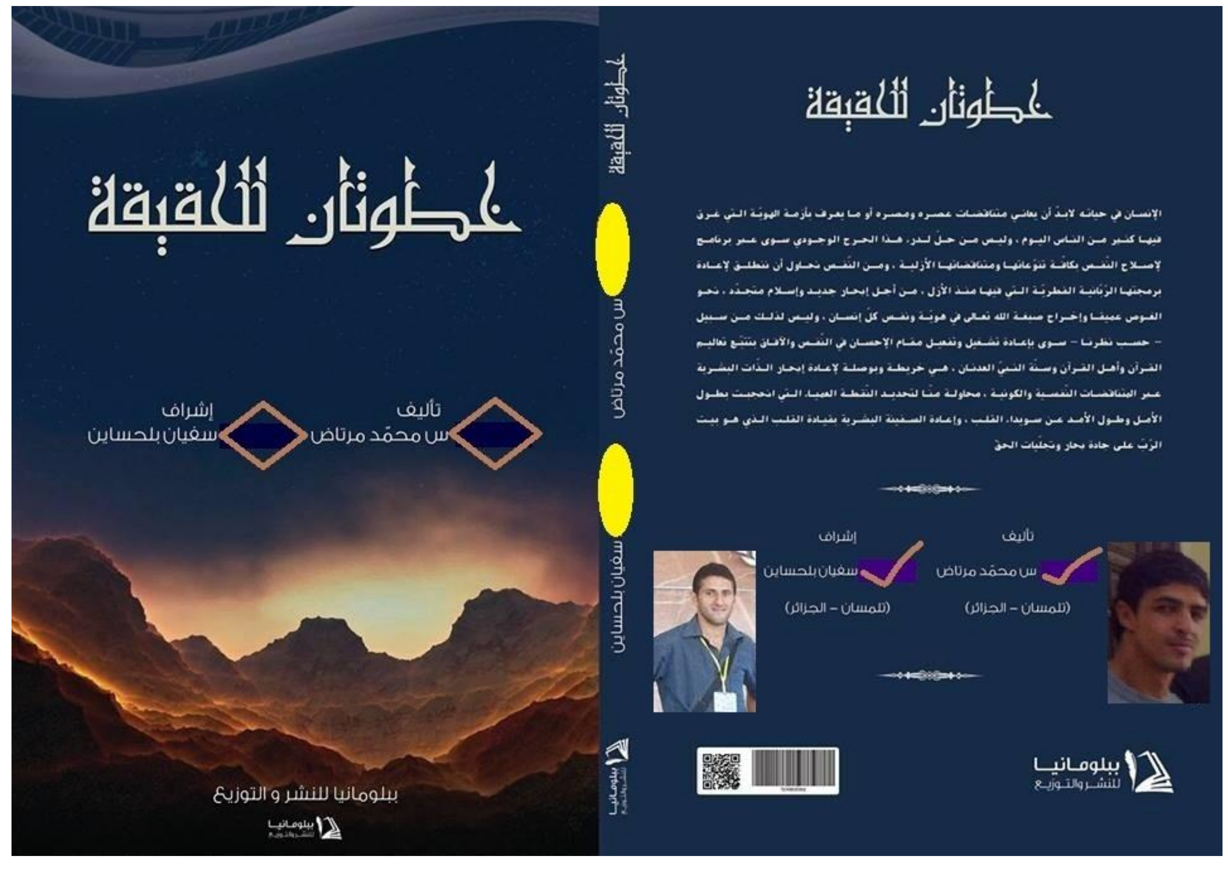



خطوتان للحقيقة
تأليف
س محمّد مرتاض
إشراف
سفيان بلحساين
بيلومانيا للنشر و التوزيع
خطوتان للحقيقة
الإنسان في حياته لابدّ أن يعاني متناقضات عصره ومصره أو ما يعرف بأزمة الهويّة التي غرق فيها كثير من الناس اليوم ، وليس من حلّ لذر. هذا الحرج الوجودي سوى عبر برنامج لإصلاح النّفس بكافّة تنوّعاتها ومتناقضاتها الأزليّة ، ومن النّفس نحاول أن ننطلق لإعادة برمجتها الرّبانية الفطريّة التي فيها منذ الأزل ، من أجل إبحار جديد وإسلام متجدّد ، نحو الغوص عميقا وإخراج صبغة الله تعالى في هويّة ونفس كلّ إنسان ، وليس لذلك من سبيل – حسب نظرنا – سوى بإعادة تشغيل وتفعيل مقام الإحسان في النّفس والآفاق بتتبّع تعاليم القرآن وأهل القرآن وسنّة النبيّ العدنان ، هي خريطة وبوصلة لإعادة إبحار الذّات البشريّة عبر المتناقضات النّفسية والكونيّة ، محاولة منّا لتحديد النّقطة العمياء التي انحجبت بطول الأمل وطول الأمد عن سويداء القلب ، وإعادة السفينة البشرية بقيادة القلب الذي هو بيت الرّبّ على جادة بحار وتجليات الحقّ
تأليف
س محمّد مرتاض
(تلمسان – الجزائر)
إشراف
سفيان بلحساين
(تلمسان – الجزائر)
بيلومانيا
للنشر والتوزيع

خُطْوَتَانِ لِلْحَقِيقَةِ

بحث في النّفس الإنسانية ، وكيفية تكميلها بأسرارالمقامات الإحسانية ، الصّالحة لكلّ طبيعة مكانية وزمانية

تأليف / #س محمّد مُرتاض و إشراف / #سفيان بَلحساين

دار ببلومانيا للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة – جمهورية مصر العربية

[1437 هـ - 2016 م]

الإهداء :

إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

الهدف العامّ للكتاب :

معالجة أزمة الهويّة حسب برنامج إصلاح النّفس بمقام الإحسان بمقاربة مقالات وتجارب متعدّدة الإختصاصات

الفئات المستهدفة :

كلّ مسلم ومسلمة ، وكلّ نفس إنسانية ، خاصّة فئة الشّباب بجميع توجّهاته وطموحاته

كلمات مفتاحية :

علم النفس الإسلامي ، الفكر الإسلامي ، أزمة الهويّة ، مقام الإحسان ، توحيد الأسماء والصّفات ، تطوير الذّات ، الطَّاقة البَشَرية ،

خطة الكتاب :

التمهيد – المقدمة – المتن – الخاتمة – الخلاصة ، قصة نجاح – تدريب – زيارة ميدانية – تطبيق شخصي –

إلى ماذا توصّلنا في هذا الكتاب :

الإنسان لا يصل إلى الحقيقة ، وإنما يصل إلى الحقّ تعالى _ قطْعُ عالم الخلق هي الخطوة الأولى ، وقطع عالم الأمر هو الخطوة الثانية

كيف نطبّق هذا الكتاب ؟ :

السّلسلة :

قصص نجاح :

ورشة تدريبية :

زيارة ميدانية :

تطبيق شخصي :

ملاحق ، وثائق وصور :

هذا الكتاب :

تقريظات :

ردود ونقد وتوجيهات :

الفهرس :

إهداء ......ص 1

تمهيد ....ص 11

المقدّمة .....ص 15

المتن .... وبه **تسعة نصوص متسلسلة** :

1- **أطوار النّفس الإنسانيّة** (ص 17) :

*شرح أولي لأطوار النفس ،

*مراحل السير إلى الله عبر أطوار النفس على الإجمال .

2- **الكمالات والسعادات الإنسانية لا تحصل الا بعد سلوك النفس في مقام الإحسان** (ص 29) :

*العلاقة بين النفس والقلب

*قوى الأخلاق في النفس هي شعب الإيمان

*غرض النفس أن تصبح قلبا يكون محلاًّ للرؤية الإلهية الإحسانية

*كيف تصبح النفس قلبا

*الفرق بين عيش النفس وحياة القلب

*خطوتان وتحقّق النفس مقام الإحسان

*سبب أزمة الهويّة

*علاج انفصام الشخصية الإسلامية بالرؤية الإحسانية .

3– **أركان وبرنامج مقام الإحسان ، وكيف يصل الإنسان إلى الحقيقة الإلهية التي هي توحيد الأسماء والصفات ، حسب كلام بعض مشائخ الحقيقة الإحسانية** (ص 39) :

*أركان مقام الإحسان

*الأضلاع الثلاثة لبرنامج السالك بمقام الإحسان ودورة حياة السّالك إلى الله تعالى

*شرح مشاهد النفس الإنسانية للذّات الإلهية (حقائق و معارف) كما فتح الله تعالى بذلك من كلام : -ستّ عجم بنت النفيس البغدادية ، -الشيخ مصطفى ماء العينين / تخصّص ومبحث : توحيد الأسماء والصّفات والذي هو لبّ متطلّبات مراحل مقام الإحسان ،

*برنامج (الطريقة) مقام الإحسان وهو برنامج إصلاح نفس الإنسان

*طبيعة التجلّيات الرّبّانية

*طبيعة التجلّيات النفسانية .

4- **كيف يصل الإنسان إلى النفس المطمئنّة والراضية والمرضيّة ومنها يصل إلى الله تعالى ، بناء على كلام شيخ خبيرفي مجال السّلوك النفسي بمقام الإحسان ؟** (ص 54) :

*أخبار النفس وأخبار الإنسان

*المستوى الثاني من شرح النفس الإنسانية وأطوارها حسب كلام وخبرة الشيخ الشّبراوي / *تصنيف الخواطر الإنسانية *بيان الحجب التي في النفس وتمنع بروز القلب لمقام الرؤية حسب كلام الشيخ زكريّاء الأنصاري *ترقّيات القلب في مقام النّفس المطمئنّة حسب كلام الشيخ عبد الحفيظ البسكري *نموذج تدريبي عن ترقّيات النفس اللّوّامة لتصبح مطمئنّة (حلية الأبدال التي عنها يظهر صالح الأحوال) ولا يؤخذ إلا بالصّحبة

*الرّفيق قبل الطّريق والجار قبل الدّار

*تنبيهات .

5- متفرّقات ومعارف إلهية تناسب مقام الإحسان ... (ص 79)

6- **أهمية مقام الإحسان ودوره في تغيير حياة الفرد والمجتمع ، وأنه لا يخلص للعبد غالبا إلّا بصحبة شيخ موجّه** (ص 85) :

*خطوتان تفصلان العبد عن الله تعالى

*زمن ومدّة السلوك في أطوار النفس هو يوم مقداره خمسين ألف سنة

*الوصول إلى الله لا يتمّ إلاّ بفتح النفس من داخل لا من خارج

*التحرّر الرّوحي للإنسان لا يصحّ بدون شيخ

*السّير إلى الله تعالى مستدير وليس مستطيل

*التغيير هو مجرّد فتح داخلي للنفس

*مقام الإحسان وعلومه هو تفصيل ركن الشّهادة من مقام الإسلام

*علوم الإحسان هي علوم مُكاشَفة لا علوم معاملة

*فتح البصيرة هو سبب انبعاث العبد لتزكية نفسه

*مقام الإحسان يؤخذ بالتّلقّي لا بالأوراق

*بداية سلوك التلميذ هي نهاية سلوك شيخه

*ضرورة شيخ التربية لفتح البصيرة

*المعيّة النّبويّة والرّبّانية هي المقصودة أخيرا وليس معيّة الشّيخ

*طرق السّير إلى الله تعالى تختلف باختلاف أمزجة النّفوس .

7- **سلوك النفس الإنسانية في الأكوان والآفاق كطريقة أخرى للوصول إلى الله تعالى** (ص 96) :

*العلاقة بين العقل والنفس والجسم ، من كلام الشيخ عبد الفتّاح القاضي

*طاقة النّفس في معلوماتها ، من كلام ابن حزم الأندلسي

*معرفة الكون تهدي لمعرفة المكوّن أيضا

*العوائق الزّمانية والمكانية للإنسان

*للكون قراءتان : مسطورة ومنظورة

*أقسام الكون الأربعة

*معرفة الكون هي طريقة اهتداء ومعرفة النّفس هي طريقة اجتباء

*مداخلة للإمام أحمد الفاروقي حول السّير الآفاقي والسّير النّفسي

*مداخلة للكاتب الإيطالي أومبرتو إيكو حول أسرار النّفس والآفاق

*مداخلة تولستوي حول الإنسان وعلاقته بالمحدود واللّامحدود .

8- **انقسام الناس في مقام الإحسان بين سالك وهالك لا ثالث لهما** (ص 107) :

*كلمة التوحيد هي مفتاح الوصول وتفصيلاتها في مقام الإحسان هي باب الحصول

*ضياع النّاس بين الخريطة والأرض

*سلوك النفس لا ينتهي دنيا ولا أخرى

*فتح القلب بمفتاح النفس المطمئنّة

*صادحة الأزل هي توحيد النفس لمن لم يزل

*الخلافة الإنسانية الأرضية تنتهي بالرّجوع النّفسي إلى الله بالتّوحيد الخالص اختيارا واضطرارا

*حقيقة الإسلام والإيمان هو الإحسان

*الفرق بين سلوك الموحّد والمشرك

*وعي النّفس ووحيها هو حفظ سرّ التوحيد كما كان في الأزل

*ما أفلح من أفلح إلاّ بصحبة من أفلح والعكس صحيح

*الفرق بين المسافر السّائر والمهاجر الطّائر

*آيات التّوحيد النّفسي والآفاقي مركوزة مسبقا في فطرة كلّ إنسان

*حضرات السّائرين إلى الله تعالى تختلف باختلاف أهدافهم الرّوحية

*واردات الرّحمن والشّيطان تختلف باختلاف الحضرة النّفسية لصاحبها

9- حسن الخاتمة ورؤية الله في الآخرة منوطة بتفعيل مقام الإحسان في الدّنيا في العادة والعبادة (ص 118) :

*الصّحبة هي علّة فلاح النّفس أو خسارتها

*الصّحبة هي علّة ترقّي النّفس أو جمودها

*من أسباب غرابة مقام الإحسان على العباد

*حقائق التّوحيد من بوّابة النّفس السّالكة

*مقام الإحسان هو مقام تطبيقي يقيني

*مقام الإحسان هو مقام عزيمة لا مقام رخصة

*النّفس المطمئنّة ودورها في التّعرّض للنّفحة الرّبّانية في الوجود

*حقائق عن النّفس الشّيطانية

*الدّعوى هي سبب ابتلاء النّفس بالمكر الشّيطاني

*سبب إصرار النّفس على المعاصي

*جوّ الصّحبة هي التي تحدّد نوعية التّغيير الذي يبدأ بالنّفس

*الصّحبة النّفسية هي سبب سوء الخاتمة أو حسنها

*برنامج إصلاح النّفس هو عاجل وليس آجل

*معارج النّفس في مقام الإحسان هي امتداد لمعراج النبيّ عليه السّلام ليلة الإسراء

*مقام الإحسان يورث الشّهود الأخروي على مقدار الشّهود النّفسي الدّنيوي

*درجتك ومنزلتك في الآخرة على قدر و نوعية سلوكك النّفسي في الدّنيا .

الإنسان : في أرقى تعريفاته يُسمّى بالباحث عن الحقيقة .

وما هذا الكتاب الذي بين يديك إلّا أوّل خطوةٍ نحو تحقيق هذا التعريف .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم

ربّ يَسّر ولا تعسّر عونك يامُعين وبك نستعين

مُبارك الإبتدا ميمون الإنتها مرجوٌّ النّفع به والإهتدا

" إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم " سورة الرعد

" من المفارقات المؤلمة أن بعض رجال الدين في نهاية العصور الوسطى وقفوا في وجه العلم لأنه يهدّد إيمانهم بالإله ، وفي القرن العشرين يقاوم البعض ما توصّل اليه العلم لانه يمهّد للإيمان بالإله . "

#ألفن بلانتينجا- فيلسوف أميريكي معاصر

" طوّرنا السّرعة لكنّنا جمّدنا أنفسنا "

#شارلي شابلين

" من عمِل بما يعلم ورّثَهُ الله عِلْمَ ما لم يعلم"

الحمد لله حَقَّ حمده وهو المستحِقّ للحمد والثناء ، والصّلاة على نبيّه العدنان نورُ السَّناء ، نحمده تعالى على آلائه الجليلة في الظّاهر والخفاء ، ونشهد أن لا إله إلا الله مالك الملك وله الخلق والأمر خلق الإنسان وشرّفه بالقرآن و كرّمه بمقام الإحسان ، ونشهد أن نبيّنا محمّدا عبده ورسوله وخليله وصفيّه وحبيبه كان خُلُقُه القرآن بعد أن تشرّف بدولةِ كمال نفسه عن كلّ شَوْبٍ و نقصان ،

فكان إماما للسّالِكين ومَحجَّةً للمتّقين وعِبرةً لمن لم يَكْمُلْ بِنَفْسِه على مِنْوالِهِ ونَفْسِهِ ، وبعد - فهذه وريقات تدلّ على بضاعة

صاحبها عسى ألاّ تفضحهما يوم يُبعثون ، وأن تشهد لهما ولقارئها بخير الظنون ، أردنا أن نشارك بها لإنقاذ نفوس ماتت قبل المَنون ، وإنما هي إشارات و لمحات تفتح على أنفاس انشغلت بالمال والبنون ،

خلاصتُها ومادّتها كيف يكون مقام الإحسان مركزا وفلكا لدائرةٍ نصفها مقام الإسلام ونصفها الآخر مقام الإيمان

إذْ دائرة الإسلام والإيمان كلا شيءٍ بلا المركز الذي هو مقام الإحسان ، وهل رأيت أخي دائرةً وُجدتْ لولا مركزها ،

هذا حالُ من اكتفى بوظائف الإسلام وشيئا من معتقدات الإيمان ونسي روح ذلك ومركزه وهو أن تتابع نبيّك

في الإسلام والإيمان بإحسان كما قال تعالى : والّذين اتّبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ،وليس هذا الرِّضى بين الحقّ والخلق سوى سلوك مرضيّ بالنفس ينتج بتكميل النفس البشرية الإسلامية على منوال النفس النبوية ، وهذا التكميل هوالذي يُعيد مركز عبادات الشخص وحياته على منوال عبادات نبيّه و مركز حياته وهو ما يورث الشهود الدّنيوي في مختلف تلوُّناته موحَّدًاعلى وجه ربٍّ واحدٍ باق ، ويورث في الاخرة على قدره شهود ورؤية الحق تعالى وجوهٌ يومئذ ناضرة الى ربّها ناظرة ،

وهو ما سمّوه بمقام الإحسان ، وهو المقام الذي أصبح غريبا في عصرنا هذا كأنه ليس موجودا فأحببنا أن ننبّه النّاس إلى خطورته وكيف يكون سببا في تعاسة من لم يزكّ نفسه بأنواره وأسراره ولو جاء بوظائف الإسلام من صلاة وغيرها ، وهو مايعرف بالسير وبالسفر وبالسلوك إلى الله تعالى ، وهو السلوك الذي أصبح شبابنا وشيّابنا لا يعرفون له لغة حتى مِنْ كثيرٍ ممّن تخرّج من الجامعات وطلبة العلم الشرعي ونحو ذلك ، كما سترى علاج ذلك في محاولتنا المتواضعة في كتابنا هذا ، دون أن نزعم أنّنا حقّقنا ما نقول وإنّما هي شرحٌ سطحيٌّ جدا لكيفية تكميل حياة الإنسان بمقام الإحسان في نفسه وفي الأكوان ، فكانت هذه الورقات دليلا على قلّة بضاعتنا وقلة زادنا ،

ولهذا الكتاب قصة ، أنه في سنة 2013 إلتقينا في مقهى , ولكم كان اللّقاء حارّا , فلقد افتقدنا بعضنا منذ أكثر من سنة , وبينما نحن في السّؤال الطّويل عن بعضنا . إذ وجدنا أنّا لم نختلف كثيرا عن السنة الماضية, فقد أخذت الدّنيا ومهّامها من وقتنا ما أخذت , واستلّت سيف الوقت الذي ينفذ منّا دائما , ووضعته على رقاب هممنا , التّي بدأت تختنق من هواجس فوات الأوان التي تبقى هواجسا , تسحب بريق الهمّة من الشّباب , وتتجلّى دائما ضاحكة , على من يأبه لها , وأمّا من لا يأبه , فهي تبكي لأجله وتفعل المستطاع للتغزّل به .

يسألني أخي وصديقي محمّد : ما الجديد في حياتك؟

فأجيب بسرعة البرق : أكتب كتابا . فيرفع يديه ويلوّح بالسّبابة والابهام نحوي : وأنا كذلك أكتب كتابا.

صحيح ؟ وما موضوع كتابك ؟ فيجيب محمّد : هو عن الذّات . وأنت ؟

والله أكتب عن تطوير الذّات وأضحك مبتسما ابتسامة عريضة .

فيشير عليّ : لما لا نجمع الأمرين في كتاب واحد ونأتي بما هو جديد وغير سابق ؟

أو لربّما سبقنا به آخرون , لكن لم يكن لهم الأثر الكبير , وسنكون أوّل من يستجلي التأثير . أو ربّما ربّما لم يتم تقديرجهودهم

فأنت لاتهدي من أحببت ...

معك حقّ ووافقته في الكلام ووافقني . طيّب فيما نكتب ؟ ولأجل من ؟ وما الهدف من الكتاب؟ وهل الناس تقرأ الكتب في هذه الأيام

ويتركون الفايسبوك ومضيّعات الأحلام ؟

سنكتب ليقرأ العالَم , ولأجل عامّة النّاس وخاصتهم في العالم الإسلامي بل في العالم أجمع , وهدفنا هو إيصال رسالة الإسلام بأنه

ليس مظاهر أو شوفينيات ، وأن من اعتقد ذلك فهو يتحدث عن نفسه الأمّارة فقط ولا يمثّل الرؤية العميقة لهذا الدين ...

كلّ هذا أخي محمّد ، أليس كثيرا ؟ دعها تأتي واحدةً واحدة .

اتّفقنا في الأخير أن يكون هذا الكتاب بعد تحقيق وبحث في الأثر ومن السنة ومن كتاب الله سبحانه وتعالى أن نخرج , كتابا يتحدّث

ويُحدّث النّاس ويذكّرهم بالنّفس ومقاماتها , وكيف يكون سلّم صعودهم عليها

طيلة حياتهم الى أرقى جنّاتها , ففي درجاتها نتصاعد من الجحيم الى الجنّة وأي جنّة , جنّة الفردوس ومقام الرؤية لربنا تعالى

في الآخرة ،

محاولين باذنه تعالى ان نبرهن على قوة تكميل النفس بمقام الاحسان ودور ذلك في معالجة مشاكل العصر وآفاته الاجتماعية من

تبرّج وسماع للمعازف والمخدرات وسائر العادات المدمرة للفرد والمجتمع ... (كما سنرى ذلك في كتب موالية أخرى إن شاء الله

حيث سنعالج بشكل جديد مبتكر مختلف الآفات الإجتماعية بعلاج واحد هو ما ينتجه مقام الإحسان في النفس والكون

من تطبيقات وفُرَصٍ تجاهلَها الناس طويلًا ، لأن من تحققت نفسه بأسرار وأنوار هذا المقام الجليل حاز على أقوى قوة

في الكون هي قوّة الذّكر يطبّقها على أيّ مذكورٍ وغير مذكور من الدّنيا والآخرة ، وأن مجتمعنا وشبابنا اليوم يَئِنّون و يستغيثون

ليس إلا لوجود حاجَةٍ في صُدورهم لم يدروها ماهي مع أن الكثير منهم يصلّون وبعضهم مثقّفون كما يقولون وغير ذلك ، وليس

لذلك من سبب سوى عدم تصحيح شعائر الإسلام على أنفاس الإحسان على خُطى النبي العدنان لا أكثر) إضافةً لدوره في مقاومة

الدعايات و الهجمات الإلحادية والتنصيرية والصهيونية وغيرها ، لكن الناس لم يفهموا ذلك الدور بوضوح ، وأنه ليس مقامٌ

للدراويش والمجانين كما ظنّ البعض ، أو ربما ظنّوه مقامًا للراحة والتقاعد ولكنه عملٌ بِدَوامٍ كاملٍ كما سترى ،

إنّها أزمة هويّة يا شباب ، انفصامُ الشخصية الإسلامية وما تبعها من انفصال بين الدين والحياة ، وليس من سبب لذلك سوى عدم

تفعيل مقام الإحسان في حياتنا اكتفاء ببعض مظاهر الإسلام التقليدي والوراثي فقط ،

صحيح إنّ الحياة

التّي نعيشها ماهي إلّا محض اختبار سيتمّ فحص نيّتك فيه , وأنت الوحيد الذي سيختار إن كان سينجح أم لا , إن كان من الذين سيقولون أنّ الايمان هو بالقلب فقط , ويكونون كمن اجتاز امتحانا مدّته العمر , ووضع ورقة الإجابة في الأخير فارغة ومن شدّة الرّاحة تعبوا , أم ستختار أن تكون من الذين لا يتهافتون ولا يتوانون دقيقةً في العمل الصّالح او الدّلالة عليه أو الذِّكر و المذاكرة والتّذكير,او العمل العادي بالنيّة الخالصة لله وحده ويكونون من الّذين , من شدّة التّعب إرتاحوا . فكثير من الناس الذين حقّقوا ما نتحدّث عنه وصلوا إلى الحقيقة بنصف المشقة التي تكبدها الآخرون للوصول إلى الوهم والخيبة ، لا أحد سيجبرك على الإختيار , ولا نحن , بل أنت من ستختار على الرّغم من الظّروف التي تعيشها في هذه اللحظة والأحداث المتراكمة عليك .

يمكنك الإختيار وتغيير حالك من الآن ،

فالوقت على الرّغم من أنّك تظنّ أنه قد فات إلّا أنّك حي ترزق الآن , والتّغيير في حياتك يستطيع أن يكون في أيّ لحظة فقط قرّر أن حياتك من هذه اللحظة ستسخّر لاكتشاف الحقيقة الكونية والإلهية وليس لك ذلك إلا إن كنت محسنا وليس فقط مسلما ، وليس لك ذلك أيضا إلا ببدء سلوك النفس على يد أهل الذِكْر كما سنذكره وإلا لن ينفعك كلامنا ، لأن كلامنا أغلبه منطوق بلسان نفسك أنت لا غير ولن يطبّقه أو يفهمه أحد غيرك أيضا : بل الإنسان على نفسه بصيرة ،

نسأل الله تعالى أن يحقّقنا وأن ينفعنا بما نبتغيه منه من تزكية نفوسنا، اللهم آت نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليّها ومولاها ، وعسى كتابنا هذا أن يكون براعةَ استهلالٍ ، وتحفيزًا لأهل الشأن أن يتقبّلوا هفواتنا وأن ينشروا تجاربهم في المجال ليصنعوا قدوة لشبابنا وتشجيعا لهم على تصحيح عبادتهم وروحها الذي هو مقام الاحسان ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ...

المقدّمة :

لماذا ؟ :

الكلمةُ التي يرفضها الغرب ،

وكذلك يفعل كلّ من توجّه تلقاء فكرة الغرب ،

واذا كان العقل لا يقدر أن يجيب على ذلك فلا حاجة عندهم لسبب يفسّر به الحياة الدنيا والأخرى , وهذا منذ أن صار عندهم الانسان كائنًا أرضِيًا ، ليست له سوى مطالب أرضيّة وهذا بعد أن فشل هذا الانسان السُّو پرمان في دوره كإلهٍ أرضيّ وأقرّ بأنّه يفتقر لشيء ليكون سعيدا ، الا أنه لم يفهم سبب فشله ، وبذلك تحوّل هذا الإنسان الى كتلةٍ من التبرُّمات ، يضيق ذرعا بنفسه وأنه زائد عن اللزوم ثم حاول أن يغترف الحلول من الشرق والغرب ، ولم يفهم أن الحلول الوضعِيّة تبقى وضعيّةً أرضيّة ، وذات جذع واحد باهت وعابِر وان اختلفت وتعددت فروعه ، فتارة ظنّوه في ترك الصّلاة وتارة في الإسراف في الملذات وتارة في الاستعلاء وتارة في التبرّج والفجور وتارة في اتباع آخر الصيحات وآخر الأغاني ، إنه هنا ، يكرّس فكرة الانسان الذي يعيش على هذه الأرض فقط والذي يجب عليه أن يستمتع في هذه الدنيا بسرعة قبل الموت ، وهذه البدائل أو القيم المستعارة عادةً لا تطفئ عطش القلب ، بل تزيدمن توتّره الناتج عن عدم حصول الاشباع لديه ، وذلك أن القلب جارِحَةٌ باطنيّة خلق الله فيها استعدادا لمعرفته وهذا الاستعداد إمّا أن يُستثمر وينمّى ، أو يُوجّه توجيها خاطئا نحو قِيم بديلة أوْ مُستعارة عن ربّها تعالى ، كالمال و الجاه والايديولوجيات ...

ثمّ أصل الاستعداد للمعرفة الالهية راجعٌ إلى شيئين على الأقل: أن الإنسان هو الكائن الوحيد في الكون الذي صُمِّمَ وِعاءً لحفظ ولفهم الإلهيات ولأجل ذلك كانت خلافتُه الحقيقية لمّا أُهبط , وأيضًا الى كون الله تعالى خلق آدم على صورته: والصُّورةُ لها ميلٌ غريزي وتلقائي إلى الرجوع إلى مصدرها إذا أُزيلتْ عنها الحواجزُ والحُجُب ، فلا جَرَمَ كان الإنسان خليفة للرّحمن فإنه هو صورة الرّحمن ، و صورةُ الشيء خليفة الشيء وما لم يُخلق على صورة الشيء لايكون خليفة عليه فكان الإنسان بذلك مرآة للأسماء والصفات والشؤونات الإلهية ولكن لمن أحصاها فمن أحصاها دخل الجنة كما سنرى ، فالإنسان نسخة جامعة وكل ما يوجد في الكائنات متفرّقا ، موجودٌ في الإنسان متمكِّنًا ، وهذه الجامِعيةُ ثابتةٌ خاصةً لقلب الإنسان ، فإن جميع ما هو في كُليّةِ الإنسان فهو موجودٌ في القلب وحده ، فقال ربنا في الحديث القدسي : " ما وسعتني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلبُ عبدي المؤمن " ، ثم ان القلب الذي هو محلّ هذا الاستعداد ومركز الصورة الإنسانية هو الجهاز الروحي الذي

يجهلـه الكـافر فـي نفسـه أو هـو جهـاز مُشـغّل تشـغيلا ناقصـا لـدى المـؤمن الـذي لـم يُـربّ روحانيتـه التـي تُحسّـن عبوديّتـه لربّـه تعـالى ، فـلا يقـدر علـى التقـاط الأنـوار الالهيـة والهـدي النبـوي المبثـوث فـي الوجـود . إذن الإنسـان ظـل الله تعـالى لأنـه أول منطبـع فـي الوجـود عـن الصـورة الإلهيـة لـذلك كـل موجـود عـدا الإنسـان مخلـوق مـن نـور وهـو مـاتبقى مـن المـرآة الإلهيـة التـي انطبـع وتجلّـى عنهـا الوجـود أزلًا ، أمـا الإنسـان فمخلـوق مـن ظلمـةٍ وهـي ظُلمـة الهُويّـة الإلهيـة ، وهـذه الظلمـة هـي الظـلّ الـذي ذكرنـاه : فـالمتميّز مـن نورهـا منهـا والمميَّـزُ هـو صـورتها المختصـرة منهـا ، والمنطبـع هـو الإنسـان صـاحب مقـام الـنفس الكاملـة الـذي يـدرك الواحـدَ والجمـع كثيـرا والكثيـر واحـدًا ولكـن فـي آنٍ واحـد بتوحيـد نفسـي وقلبـي واحـد كمـا سـنذكره إن شـاء الله تعـالى عنـد كلامنـا عـن سـلوك جمـع النقيضـين فـي مقـام الـنفس المرضـية الـذي هـو خارج عن مقامات العقل المعلومة .

وهذا القلب الذي تُناط به مسؤولية وعبء حمل الصورة الالهيّة (أي التخلُّق بالأسماء الحسنى الالهيّة) ليكون محلّ نظرالحق تعالى في الوجود من معنى " وحَمَلَهَا الإنسان" يتطلّع بالضرورة الى الله تعالى اذا أُزيحت من أمامه العوارض و الايديولوجيات كيفما كانت ، حتى توقَدَ لاحقًا زيتونة التوحيد لا شرقيّة ولا غربيّة نورًا على نورٍ ...

حتّى تفهم لم سجد الملائكة لمخلوق وهو آدم عليه السلام ، وهو أنّهم لاحظوا الصورة الالهيّة المتجليّة في شخص آدم الطِّيني لا لهيكله الجسدي. ثمّ تَعَطَّلَ هذا القلب الذي حَمل تلك الصّورة الإلهية التي جعلت صاحبه إنسانا خليفة بسبب عدم تشغيله وهو الغفلة عن الله ، وهذه الغفلة ناتجة عن تراكم

سُحب النّفس في سماء القلب ، وهي ما تحجب شموسَ حقائق الإسلام والإيمان ، أوْ ربّما لا يتسلّل منها إلا شعاع ضعيف . وهذا القلب أصبح معتقلا وراء زنزانة النفس التي حبَسه صاحبه فيها ، ولذلك على القلب أن يتجرّد الى الله تعالى بنفسه إذا أراد أن يذوق الحريّة الحقيقيّة وهي زوالُ أمر النفس في كلّ أمر ونهي فتبقى طائعة للقلب لا العكس ، وليست النفس هنا سوى إتّصال الروح بالهيكل الجسدي الذي يتولّى تدبيره المادّي وهو معروف ، أوتدبيره الرّوحي وهو ما يعرف بالسّفَر وبالسّير إلى الله تعالى وبالسُّلُوك ، و يمكن إدراج مراحله على ستّة أطوار تدريجية تصاعدية :

1- النفس الأمَّارة : وهي مستودعُ الرّغبات والأمنيات المكبوتات منذ الطفولة ، ومبدؤها استقصاء اللّذّات الحسيّة و حتى المعنويّة بأي كُلفة ، وهي تستولي على القلب فلا تتتركه فتوجهه نحو الارتباط بقيم ماديّة أو سياسية أو ثقافية وتسخّره وتستغله وراء ذلك لاشباع رغباتها دون توازن بين الطرفين ، وتستنجد في ذلك بالفكر والعقل لينطق

باسمها ويبرّر اختياراتها تارة باسم الموضوعية وتارة باسم الديموقراطيّة ، وتارة باسم الحريّة و وتارة باسم محاربة

الفقروتارة باسم التحضُّر والتقدم العصري ؛ دون أن تطرح عليهم ، أو يطرحوا عليها السُّؤالَ الذي طرحناه في المقدّمة

وهو :.. لماذا ؟

و تجدر الاشارة أن النفس الأمّارة بإحْلال حظوظها محلّ حقوق الربوبيّة التي هي نقيض حظوظها ، تريد أن تُنصّب نفسها إلهًا محرّرا من كل القيود التي توهَّمَتْها رغم الأضْداد الموضوعيّة التي تتربّص بها : كالموت والعجز والجهل ، فهي تستعير اوصاف الربوبيّة لإشباع رغبتها في استقصاء لذّتها الحسيّة (المتعة) والمعنوية (القوّة) ؛ وهذا ماقاله تعالى :"أفرأيت من اتّخذ إلَهَهُ هواه ... " ، ذلك أنّ حقوق الربوبيّة أسبق على حقوق النفس وذلك مبدأ العبودية لله تعالى فلها حق واحد يخوّل لها كلّ الحقوق: وهو حقّ العبوديّة لله تعالى ، فإنّ العبوديّة لله هي التي تَنفي أنَا النفس الأمّارة وتثبّتُ القلب ، وتهيّؤُه لإستقبال الأنوار الإلهية أثناء وظائف العبودية ؛ فعلى العبد أنْ يصحّح فقره الى الله الغني وهذا الإفتقار يجب أن يكون

صحيحا ليُقبَل كعبوديّةٍ لا كعادة أو تقليدٍ ، أمّا إنْ افتقر إلى غير الله أو لم يُصحّح فقره إليه كعبوديّةٍ فلن يزداد سوى فقرًا كما إن لم يصحّح أو

يصِحّ ذلّه لله تعالى لم يزدد سوى ذلّا ؛ إذن هذا هو القانون الذي يتحكّم في العلاقة الشعوريّة التي تربط العبد بالمكوّن وبالأكوان ، فمنازعة الرّبوبيّة هي مصدر شقاء النّفس الأمّارة بالسوء وهذه المنازعة لا يمكن معالجتها بالتأمل الفلسفي أو بأيّةِ إرادةٍ نفسية ، فمادامت النفس الأمّارة هي مركز القرار في شخصيّة الانسان فهي لا تصدر سوى القرارات التي تؤيّدها وتعزّز هيمنتها ونفوذها ، والقلبُ الهزيل الذي يعاني سوء التغذيّة الروحيّة لا يستطيع وحده مواجهة هذه النفس الأمّارة الا في ثلاث حالات: الخوف والشّوق والصُّحبة ، كما سنُفصّله لاحقا ؛

فإذن لا يُخرِج هوى النفس الأمّارة من القلب إلا خوفٌ مزعج أو شوق مُقلق مع صُحبة من يُنهِضُكَ حالُه ويدلُّكَ على الله مَقالُه لتصحيح هذا الخوف والشوق اللذان هما جناحا العبودية لله تعالى ؛ كما قال الناظم :

يصحب شيخا عارفَ المَسالك ***** يَقيهِ في طريقه المَهالكَ .

وهي امتدادٌ لمهمّة الأنبياء والرّسل الكرام والتي كانت دائما وأبدا دعم القلوب بالأنوار التي تعتبر قوتها اليومي للحفاظ على صحّتها وتوازنها وهذه المهمّة لا تنقطع إلى يوم القيامة لأن النور جند القلب والظلمة جند النفس وهذه الجنود لا تنقضي مادام هنالك قلبٌ ومادامت هناك نفسٌ .

ثمّ نور القلب وهو الذِّكْرُ هو المُضادّ الحيوي الذي يهاجم النواة الصّلبة الداخليّة لإرادة الشرّ في الإنسان التي هي جرثومة الخاطِر السيّء ؛ وهذا الخاطر إذا وجد أرضيّةً خصبة للانتشار وهو قلبٌ غافل عن الله تعالى ، فإنه يُخَدِّرُه أوّلًا ثمّ ينغرس فيه ثمّ يَتجذّر ليُصبح هَمًّا ثم نيّة ثم إرادةً ثمّ فِعلا . لذلك إذا غلبت أنوار الذِّكْر بصحبةِ الذَّاكِرين جاءتْ معها بوارداتٍ من الحق تعالى كما

كانت ظلمات الغفلة تجيء معها بوارداتٍ باطلة مِن الشيطان والنفس بصحبةِ الغافلين ، إذْ واردُ الحقّ يأتي من حضرةِ اسمِه **القَهّار** لا يصادمه شيءٌ إلا دمَغه ، كما أن هذه الخاصيّة لذِكرِ الله تعالى تُحقّق التجرّد الشعوري من الأشياء مع امتلاكها وليس التجرّد الماديّ فقط ، لأننا قد لا نمتلك شيئا ومع ذلك قد نكون مرتبطين به شعوريًا ، فمؤشرالإرتباط أو التجرّد من الشيء هو في المبالاة أو اللامبالاة الشعوريّة به ، ليتعامل مع المُنعم لا مع النعمة بحدِّ ذاتها ومع المُسبّب لا مع السَّبب ومع العَيْن لا مع الأثر ومع المَصدر لا مع الوسيط ومع الفاعل لا مع الفعل أو ردّ الفعل ؛ فالشَّقاء الذي يعانيه الانسان يكمن في ارتباط شعوره بالأشياء والقيم الماديّة و التملّك للشيء دون كينونةٍ في المالِك في ذاته ، لذلك الحضارة الماديّة عموما تؤدّي إلى اختلالات نفسيّة للإنسان :لا بالنظر إلى ماديّتها ولكن لأنها تنسج على القلب الغافل خيوطا من الإرتباطات الشعورية تؤدي إلى تفقيره روحيّا وبالتالي إحواجه إلى غيرالله ,,, فالحُرّ حُرٌّ ممّا هو منه يائس ، والعبد عبدٌ لما هو فيه طامع ، والمعادلة السلوكيّة للنفس الأمّارة بالسّوء تُخاطِب صاحبَها هكذا : **" مِنك إليك بِكَ "**

2 ـ النفس اللّوّامة: وهي المسؤولة عن يقظة الضّمير وهي سبب وبداية التوبة النَّصوح عند التائب وشرطٌ في استحضار

التوبة ، فالتوبة هي البنية الرئيسية في كل تنميّة بشرية و روحيّة بدونها لا يمكن أن يتحقّق الإقلاع عن دائرة الراحة ومن ثمّ الإقلاع إلى الله تعالى ، وعلى هذا المستوى من

النفس مازال إخلاص العبد لم يتحقّق بعد ، لأنها في كل حالٍ مازالت ترى الفعل صادرًا عنها فترى التوبة صادرة عنها وبفضلها

وترى وجودها مُستقلّا وقائما بذاته وهي تخاطب صاحبها كما يلي : "منك إليه بك" ، وسنزيدك أيها القارئ الكريم

تفصيلا عن النفس اللوامة لما ننتقل إلى المستوى الثاني من الشرح للذات الإنسانية لما ننقله لك من كلام شيخ خبير في ميدان سلوك النفس ممثلا في الشيخ عبد الخالق الشبراوي رحمه الله كما سترى إن شاء الله .

3-النفس المطمئنّة : إن خروج النفس اللوّامة عن فعلِها وتوَهُّمها له ، لا يأتي إلا بدعمٍ خارجيّ : إمّا من معلّمٍ موجّه خبير

وإنْ كان وجوده ضروريّا في المرحلتين السابقتين فحضوره في هذا المستوى واجب ؛ ذلك أن خروج النفس عن فعلها وشعورها الوهمِيّ هو أمرٌشاقّ ولا يتأتّى لصاحبها من تلقاء نفسه وهوما تعتبره شعورا منطقيًّا عندها ، والعبد لا يمكنه أن ينفكّ شعوريّا عن عبادته التي هي أقرب للعادة بالقيام بالمزيد منها وربّما زاد تعلّقُه بها ؛ فلِخروج النفس عن رؤية فعلها يجب أن تستند الى فعل حُرّ تلقائي ، وهو ذِكْرُالله تعالى ولكن مع كيفيّةٍ مخصوصة باِشرافِ فردٍ مِنْ أهل الذِّكر ، وهو المقصود بقول الله تعالى "فاسألوا أهل الذِّكرإن كنتم لا تعلمون"وهو شخصٌ حَقّق متطلّبات الذِّكر المخصوصة والمقصودة في بيتِ القصيد مِن الكتاب والسنّة يَسْموا وينموا به مَنْ عاش تطبيقاتِ هذا الكتاب وهذه السّنّة في العادة والعبادة حتى حقّق خِبرةً وأهليّةً ليس فقط علما أو عملا فقط ولكن أيضا شعورا ووِجدانًا كما يُفهم من مقام الإحسان عند كلّ عادةٍ وعبادةٍ وهوالمقصودُ أيضا بقوله تعالى : " قل هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون إنما يتذكّر أولوا الألباب " وقوله تعالى : "إن هو إلا ذِكرُ للعالَمين ,,, " .

فالذِّكرُ بكيفيّة مخصوصة أو كيفيّة مُعيّنة ليست لها خصوصيةُ الكيفيةِ الأخرى وإنْ كانت مثلها عملا تعبديًا ، إلا أنَّ العبرة في كون هذا الذِّكرالمقصود هنا هو المشحونُ بالأنوار الإلهية الوَهبية لا الكَسبية العادية ، كالتعرضِ لنفحات الله في شرعه التي تَحرق جميع التعلقات الشعورية بما فيها التعلُّقُ بفعلِ الذِّكر نفسه : فهو كعودٍ تحرّك به نارًا على موقِدٍ كلّما زاد اشتعالها زاد استهلاكها للعود حتّى تُفنيه ؛ وهذا الذِّكر المخصوص لمَا يحرق هذه الشعورات الزائقة من خلال تجلّي الفعل الإلهي فيها يُمهّد الطريق لإدراك الشعورات الهادفة في حياة المؤمن الذّاكِر عند تتويج القلب عاصمةً للمملكة الإلهية في البلاد المُلكية والإنسانية والكونية والآفاقية ؛ وهنا ستصبح الأفعالُ

أسبابًا لا أربابا و يخلق الله تعالى عندها الأشياءَ أيْ بمناسبتها لا بِها ؛ لأن الوعي بفعل الله تعالى في أفعال العبد لا يتأتّى إلا بفضل تدفق الأنوار الإلهية الخارقة و الحارِقة للسِّوى – ما سِوى الله تعالى – عبر قناة الذِّكر المخصوصة تحت إشرافٍ خاصّ من شيخٍ من أهل الذِّكر لا بل مِنْ أهل الله المذكور؛ تمامًا كما يتدرّج باحثُ الدُّكتوراه على يدِ أستاذٍ يَخُصُّه بالتّكوين والتّأطير ؛ و قلبُ هذا الشّيخ هو الذي يُؤطِّرُ غَيبيًّا قلبَ هذا السّالِك والتلميذ بأسراره وأنواره لا عَهْدَ له بها سابقا . وهذا الشُّهود لتجلّي الأفعال يُخرجه من نارِ اللّوم والمنازعة إلى سكينةِ الطّمأنينة ؛ فالعبدُ بعد هذا لمّا يُمارس عباداته فباعتبارها صادرةٌ من الله إليه لا باعتبارها

صادرة منه إلى الله تعالى . إذن ففي مجال التربية الروحية يسري قانون العرض والطلب الذي يحكم بعض الأسواق فيحدّد الطلبُ (درجة حاجة العبد ومدى حبّه وتصديقه لهذا المجال ولأهله) العرْضَ (الفتوحات والمعارف الإلهية) فهذا الذّاكِر لمّا انتظم في سلوكه على يد ذاكرٍ من أهل الذّكر لا بل من أهل المَذكور فهو على بابِ الله يكفي طرقَه بإلحاحٍ ليُفتح ؛ ونصيب أهل الذكر من المذكور هو على قدر نصيب أهل المذكور الذين يُربّون أهل الذكر من الإرث المحمدي الذي قال فيه عليه السلام : (و ان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما) فهناك الكامل وهناك الأكمل ؛ فالوارث المحمدي هو أستاذٌ يصبح قلبه سلكا كهربيا ناقلا لقلبٍ آخر يتدرب على يده حتى يُتوج كعاصمةٍ للمملكة الإلهية ويصلح فيها للخلافة على قلوبٍ إنسانية أخرى ؛ فالأرواح قانونها أنها

جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف أزلًا وأبَدًا والعكس صحيح ؛ أما بدون شيخ مُربّ واصلٍ موصل فإن العبد لمّا يريد أن يخرج عن إرادة نفسه وشهواتها بدون هذا المربّي يصبح كالغريق الذي يريد أن ينقذ نفسه بنفسه أو كالذي يريد أن يتخاصم إلى قاضٍ هو خصمه في نفس الوقت أو كمن يريد ان يوقِظ نفسه وهو مستغرق في نوم عميق ؛ فهذه النفس لاتقبل من صاحبها صَرْفاً ولا عَدلا ولا يمكن أن تصدر حكما لصالحه وانما لصالح هيمنتها وربوبيتها ؛ فكان تدخّل المربّي كقاضٍ محايد بالنسبة للطرفين معا وبدونه تعتدي النفس على شخصية صاحبها وبِنفسه ، فتوهِمه بالحظوظ العاجلة التي تتنافى مع حقوق الربوبية ورسوم العبودية التي يعتبر الإلتزام بها هو منفذ الإغاثة بالنسبة للقلب وبالتالي للجسد . فكلما ماتت النفس حيِيَ القلب وكلما استولت النفس بحياتها الدنيوية

مات القلب وإذا مات القلب لا تنفع طاعات صاحبه ولو أتى بالإنباء عن الله ؛ فالشيخ المربي والداعية إلى الله الذي يجود به ربنا على خلْقه في كل زمان ومكان يلعب دور المرآة العاكسة التي يرصد فيها المؤمن اتجاه تصوُّره وتطوّره الروحي من خلال نظرته إلى الشيخ حسب الإستعداد الخاص للعبد لهذه الولاية لله تعالى بعد أن نال الدراية في الكتاب والسنة مع الرواية والحفظ لهما وهنا بَعْدَ هذا ما بَقي له سوى العِناية ، وبمجموعِ كلٍّ من الرواية والدراية والعناية يَنال الولاية والهداية : " الله وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور والّذين كفروا أولياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات " . فنظرةٌ من مُرَبٍّ مُخْلص تُغني عن الكتب والمحاضرات والدورات والشهادات و ... فقد سمعنا أن الأغلبية الساحقة من العظماء والناجحين حتى من الكفار كان أعظم سببٍ لنجاحاتهم هو اتّخاذهم للمعلّم المرشد والقدوة ، فما بالُ شباب الإسلام إذا لم يقتدوا بالشيوخ الراسخين والمُعلّمين الأولياء الصّالحين المُصلحين اقتدوا باللاّعبين والفنّانين ؛ وبمثل هذا هو ما أحبط سفر قلوبهم إلى الله تعالى وتركهم عالقين في روتين العبادات والعادات وفي دوائر محدودة ومكرّرة من نفس ردود الفعل على دنيا أو تَديّن مغشوش في نماذج وقوالب متحجرة من الشرق والغرب ؛ وكذلك اختفاء وقلّة من يدعوا إلى الله تعالى فقد كثر من يدّعي أنه يدلّ على الله ويوصل إليه في هذا الزمان بل وفي الزمن الذي قبله فما بالك بزمننا ، فترى أحدهم يدّعي الولاية ولكن باللّهو واللّغو بل وادّعى كثير من الملحدين الإرشاد بمخالفة الشّريعة وبسبب غَلَبة هؤلاء المُدّعين اختفى الشيوخ المرشدون الحقيقيون في أركانِ الزوايا وكم فيها من خَبايا .

إنّ النّفس اللوامة بانتفاء اللوم والمنازعة لربها عنها نتيجة استغراقها في شهود الفعل الإلهي في فِعلها بلا حظوظٍ أو اقتداءٍ على نموذجٍ باطل مما ذكرناه تُصبح نفْسًا مطمئنة تعمل لله وبالله تعالى أي محبة لاطَمَعًا في مخلوق ؛ فصاحبها يُصبح ليرى ما فَعل الله تعالى بها لا ماذا فعلت فتحقّق شرطي التوحيد : كمال الحبّ في كمال الذلّ ؛ بمُعادلتها : " منه إليه بك " وإن كان كما تلاحظ مازال فيها بقيَّةٌ مِن حروف الخطاب الدّاخلي وهو وَهْمٌ مُتبقّ عن رؤيةِ صاحبها لفِعله ولكنه لا يرى بوضوحٍ فِعل الله مِنْ فعله الذي به يُحقق درجةَ توحيد الأفعال ؛ رغم زوال حجاب التعلّق بالطاعات عند شهودها الفعل من الله تعالى لكن عرق المنازعة لم يَسكن يقينا و تمامًا فلا يزال يَنبض فيها خافِتًا أو اعتراضًا صامتا على مُراد الله تعالى إذا لم ينسجم مع أقوى رغباتها الدفينة مِنْ زَمَنِ النفس الأمّارة .

4 - النفس الراضية : إذا أضيفت حقنة إضافية من الذِّكر القلبي فإن تلك المعارضة الصامتة والمنازعة الخفية ستزول تدريجيا وذلك نتيجة ما أحدثه هذا الذكر من رؤية للكون على حقيقته بأنه مرآة تجلّي الصفات الإلهية الجمالية والجلالية والكمالية تشكّل الأفعال البشرية قنوات لها ومظاهرعنها ، فتُذعن لمُراد الله تعالى في صاحبها و في الكون فتصبح راضية لأنها رأت ولمّا رأت فبِحَسبِه اقتدت ، ثم اهتدت بحسب ما اقتدت ، وهذه الرؤية هي حدّ قوله تعالى : " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " ولكنها رؤية تفصيلية وإجمالية معًا عكس رؤية بعض المؤمنين أو حتى بعض الكفار فإنّ كلّ مارأوه هو إجمال فقط لأنهم لم يسلكوا بخصوصية الجناحين : الجلال والجمال معا ؛ والله تعالى لمّا أوجد الكون أوجده من عدَمٍ { راجع الفصل الذي عالجنا فيه بحث الكون وتجليات المُكوِّن فيه بقوله :" كُن " } ليرى صفاته وأسماءه في مرآةٍ إنسانية لأنّ المرآة الإنسانية هي المَجلى الوحيد الصالح لرؤية الربّ عنه وفيه في نفس الوقت ، فكان الكون مرآة لصفاته تعالى ولم يَسعها سوى القلب الإنساني : فإذا تجلّت هذه الحقيقة الصفاتية الربانية على القلب بالسلوك الشرعي فإن ذلك يقضي على المعارضة الباقية في النفس المطمئنة فتصبح راضية ، وإن بصيرة الذاكِر التي شحذتها نورانيةُ الذكر القلبي المخصوص تنصرف عن الفعل الكوني ليس تقاعسًا أو جهلا ، ولكن هذا في آخرِ درجةِ الفهم لحقيقةِ الفعل الكوني وترقِّيًا لفهم حقيقة فِعل المُكَوِّن لتصبح المعادلةُ : " منه إليه به " ، به : الهاء تعود على الأسماء والصفات ، فتتمهَّدُ

الطريق لتواصل الكمّ والكيف والمبنى بالمعنى ولكن إجمالًا كما كانت رؤية الآيات في الآفاق في النفس اللوامة والمطمئنة إجمالا وسيُعرف ذلك تفصيلا في المرحلة الموالية من سلوك النفس ، فاستقامت العبودية على صراط الله تعالى باندراج الإسلام ومقاماته بالإيمان ومقاماته فصارت العبادةُ عبوديةً والمغفرةُ ثوابا و الفقرُ غنى ، فعلى هذا المستوى من النفس يكون انقلاب الأضداد الدنيوية إلى حقائق، ومتغيراتها إلى ثوابت تمهِّد للرُّسوخ في المستويات التالية . وبذلك تنسدُّ الثغرة التي كان إبليس يتسلل إليها كلما أراد أن يزيِّن للعبد التناقض بين المُسمَّيات والأشياء : إذْ مِنْ هذه الثغرة كان يعِدُه بالفقر ويأمره بالفحشاء ومنها يُرَبّي إبليسُ أتباعه ممَّنْ لم يَتربّوا بالسُّلوك الصّحيح والمخصوص على العادات التي تُهلِكهم دنيًا وأخرى ، ومنها يبرر لهم اختياراتهم لإطفاء لهيب شوقهم للملذّات ومنها كان يُزيّن لهم أعمالهم وهم لايشعرون ، ولما ينساق العبد له ثم يتوب كان أثراللوم باقيًا والرضى فانيًا لأنه لم ينبعث بالشَّوق للسّلوك الخاص ، لا مجرَّد العادي أو العامّ الذي يجده مع أصحاب الغفلة من زملائه رغم علمه بعدم منطقيةهذه المعاصي ، لأن الثغرة لم تنسدّ وفق مراحلها الصحيحة وذلك بتحقيق الذكر الأكبر الذي يتحصل على مدار التربية النبوية على طول عبادات وعادات الشخص في حياته فمن هذه النقطة سبب إجابة الدعاء ورَدّه ، مَن وصل لهذا المستوى الرّابع من النفس يكاد لايُردّ له دعاءٌ وإلا فعليه أن يُصحِّح المراحل حتى يصحّ له ذلك حسب الذِّكر الذي تلقَّنَه من أهل الذك لأنها ثغرة لا تُردَم إلا بسِرِّ ذكر الإسم العظيم الأعظم . وهذه الثغرة هي سبب كلِّ شوقٍ أو خوفٍ لما سِوى الله تعالى وسبب كلِّ حيرة وهي مادّةُ الرّان الذي عنها يسري لسائر القلب وهي عقدة الإصرار على الأخطاء والمعاصي وعنها تنشأ كل ثغرة في العادات أو العبادات والدعوات والإستجابات والأفعال والأقوال والأحوال ، فتنقضها وتبطلها لتناقض وبطلان إرادة صاحبها فهي سبب نواقض الإسلام والإيمان فضلا عن الإحسان وسبب المعيشة الضّنكى أو السّعدى في الدّنيا والأخرى ، وتَناسي هذا السُّلوك هو الذي يُعمي

القلب عن النَّظر لمصالحه الحقيقية في الدّاريْن فيصبح أعمى أصمّ فلا ينفع فيه ذكرٌ ولا تذكيرٌ وهو لم يُحقق المستوى الأول أو الثاني من النفس فما بالك بالمستوى الرابع الذي نحن نتحدث فيه ، قال تعالى : " ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى " لأن عدم تصحيح السلوك وتدريجه بالذكر الصحيح هو الذي يُخلّد في جحيم نار الآخرة ويجعل صاحبه يموت على سوء خاتمةٍ لأنه لم يُفَرّق بين محبوباته من دون الله تعالى حتى لايَذِلّ لغيره وهو إن أحبّ غيره ذلّ له ثم فوجئ بالحق ووجده عِنده فوفّاه حسابه فيبقى خالدًا في نار الآخرة لخُلود ودوام محبوباته من دون الله في الدُّنيا وعلى ذلك خُتم له وعليه يُحشر ويُنْشر . فعلى مستوى النفس الراضية لا يبقى لمن صحّحها أيّ محبوبٍ سوى الله تعالى فلا يبقى أيّ تناقض في فهمه للكون وثنائياته الأزلية و الأبدية وترتفع التبريرات والحجج و الذرائع الدنيوية التي كان العبد من قبل يلهث لإشباعها بكيفية خاطئة لا تُناسب فطرته التي فُطر عليها كما قال تعالى : " لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم " . فيصبح منطق الأسماء والصفات وصولا إلى الإسم الأعظم هو الذي يسود في رؤية العبد للكون بعد منطق الأفعال ، وهناك ينسجم الكون والكائن ودنيا العبد وآخرته فلم يعد في الإمكان بأبدع ممّا كان ويصبح العبد يستدلّ به بعدما كان يَستدلّ عليه تعالى، ويصبح يَدُلُّ به وعليه بعدما كان يَدُلُّ عليه فقط ، إذْ كان وقْتها الغيبُ غيبٌ والشهادةُ شهادةٌ وما لقَيصر فله وما لله فله, وهو هنا عرف أنه تعالى هو المَلِك الحَقّ المُبِين تسهيلًا لإستدلاله به تعالى كعبدٍ آمن بالغيب فصحَّت صلاتُه وزكاته وصومه وحجّه لأنها مشيدة برأس ذلك كلِّه وهو كلمة التوحيد على اليقين لا على الغيب والتخمين : " للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون " فعادت صلاة الموحد على اليقين ليست كصلاة الموحد على التخمين أو صلاة

التقليد والعادة ، وذلك من كرامات هذا المستوى الرابع من غيب النفس من حقّقه علم ما قلناه فـ" إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ " و" قل هل يستوي الذين يَعلمون والذين لا يَعلمون " ونتيجةً لذلك يكون التفاوتُ في الأجور والدرجات والفوائد الدنيوية والأخروية : " والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم " فهو مقامُ نموٍّ وزيادة في كلِ خير، وكل ساعة تمرُّإلا وهو في زيادةٍ عن الساعة السابقة لها.

فعلى هذا المستوى سَوَّيْنا النقطة الحسّاسة في حياةِ العبد وبَرْزَخِه بين حياتيْن : حياةُ الدّنيا الفانية وحياةُ الآخرة الخالدة ولا تتحقق هذه التّسوية لغيرِ مَنْ عاشها وسَلَكَها عند أهل الذكر الذين هم أهل الله وخاصته لأنها نقطة حسّاسة في القلب وبرزخٌ لفهم ونظرة العبد للأشياء لاتقبل التأخير أوالتأجيل والمساومة والمماطلة وهي النقطة الفاصلة بين وجود الشخص وبين وجدانه ، مَن جَدَّ وَجَدَ ومن زرع حصَد: " يوم تجد كل نفس ماعملت من خير مُحضَرا " ثم عَقّب ماوجدته النفس لصاحبها بتحذيرِ النفس الرحمانية : " ويُحذّركم اللهُ نفسَه " فافهم .

**5 – النفس المرضيّة : ثم إن شعور النفس بصفائها يبقى مُلازما لها على مستوى النفس الراضية عند حصول تجلّي الأسماء والصفات مِن بوّابة الإسم العظيم الأعظم الذي تَلقّنه السالك عن مُرشِده وإنْ كان هذا الشعور أيضا قميصًا داخليًّا آخرَ وهميًّا في النفس الرّاضية فإنْ استطاع العبد بتوجيهات مُدرّبه أن يتحرّر منه حَصل له التجريد الأعظم والتفريد الأفخم والتوحيد الأكرم إذْ ذلك الوهم المتبقي هو آخر معقلٍ تُحتجز فيه النفخةُ الرَّبّانية ولكن هذا لا يتأتى بعد توجيهات المُرشِد إلا إذا هجمت أنوار الحق الذاتية وليس الأسمائية أو الصفاتية على القلب من غير سابقِ علومٍ أو معرفةٍ ومِن غير كسبٍ أو اتخاذِ أسبابٍ مُتعارفٍ عليها ومِنْ غير تحضيرٍ مُسبق ، فإنْ حصلت هذه الفجأة من الأنوار الربانية فتموت النفس فجأةً بعد نجاحها في اختباراتِ قبرٍ وبَرزخِ النفسِ الراضية الذي ذَكرناه بعد سدِّ تلك الفجوة في القلب ، وهنا تعود حَيَّةً ، وتعودُ والقلب والروح شيئا واحدًا إنّما بالحياة الباقية وصاحبُها هنا في الدنيا فتدُكُّ تلك الأنوار الإلهية المُفاجئة الوهمَ المُتبقي في النفس دكًّا وتَمحقُه وتَسحقُه مَحْقًا وسَحْقًا ، فيَفنى مِداد الشهوات وتبقى مِدادُ المعارف الربانية يَحتاجها صاحبُ هذه النفس لمزيدٍ مِنَ التّرقي والكمال، وآيةُ ذلك أن يجد صاحبُ هذا المقام مالم يَكن فانيًا وما لم يزل باقيًا : كان الله ولاشيء معه وهو الآن على ما عليه كان حسب القاعدة التالية : " منه إليه بذاته " ، فتصبح مادّةُ عبوديته لله تعالى كأنه يراه بعد أن كان يرى أنه يراه في النفس المطمئنة وفي الآفاق كما قدّمناه ،لأن مِداد هذه العبودية أنوارٌ ذاتية وهَبِيَّة لا كَسبية ولا وَهمية وليست من أيِّ عالَمٍ تتصوره في الدّنيا أو الأخرى أو غيرهما ، يُخفي شعور العبد بتحلُّله الأكبر من العادات التي تقيّده في العبادات من الشرك الخفي والأخفى وهو آخرُ خيطٍ وَهْمِيٍّ عَدَمِيٍّ يَشُدُّه إلى عالم المِثال الخارجي وعالَم الغيب الداخلي ، مِدادها لو كان بحرًا لنفَد وكلماتُ الربّ وتجلياته

لا تَنفد على حضرةِ هذه النفس المرضية متحققا بالله الأوّل والآخر والظاهر والباطن مُتخلقا بأخلاق الله

من بوابة التخلق بأخلاق الرسول عليه السلام التي شاهدها في مرشده كما سنذكره لاحقا إن شاء الله

. وفي ذلك ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطَرعلى قلب بشر أو مؤمن وتلك هي جنة الصدر لمّا

تصبح النفس مرضيّة ، وذلك النور الرباني الوهبي في الصدرالذي يحمل نَفْسًا مرضية هو قوله تعالى :

" أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله " .

6 – النفس الكاملة : إن النفس أُنزِلَتْ ناقصة جاهلة لكن الإختبار الذي قوبلت به في الدنيا هو الذي

يُمَحِّصُها ويُكَمِّلُها بإرادةِ صاحبها، فالحيوان يولد حيوانا لكن الإنسان لا يولد إنسانًا إن لم يَتدارك نقصه

في أسفل سافلين بفضل القلب الذي له طاقةُ التقلّب من العدوة الدُّنيا إلى القصوى بتزكية النفس تزكيةً

نبوية ربانية ، فإن وصل السالك إلى هذه المرحلة فإن عليه رجوع من الأحدية التي هي غيب التوحيد

إلى الواحدية التي هي شمسُه ، ولكن هذا مُؤقت لا دائم كما سارَمِنَ الواحدية للأحدية مؤقتا في النفس

المرضية وقبلها الراضية وهذا كما سنشرحه لاحقًا ان شاء الله تعالى ، فقط أمْسِكْ هذه الفكرة مؤقتا .

فإن كل تجلٍّ يَمْحُو في كَينونةِ العبد التجلّي الذي قبْله، فكلُّ تَجَلٍّ يمحو تجلّيًا قبْله وتخلّيًا قبله أيضا، فعلى قدر التخلّي يكون التَجَلّي ، وعلى قدر النّفي يكون الإثبات ، فإنه بالنسبة للعابد صاحب النفس المحمدية

الكاملة تصبح كل التجليات السابقة واللاحقة معا بالنسبة إليه مستوياتٍ موضوعية في مرآةِ الوجود :

فهو يُعامل كل مستوى بالمنطق الذي يتحكم فيه بما فيه مستوى الحجاب الكوني الذي يتحكم فيه منطق

السَّببية والتسويغ والتبرير ، فيزداد في كل حقٍّ يُحقّه وفي كل باطل يدمغه وفي كل بدعة يقمعها وفي

كل دعوة تامة إلى الله تعالى يدعوها وفي كل إشارة أو عبارة يحصّلها لا يزداد إلا هدْيًا وهدى ، لأن

شرط مزيد الهُدى هو الإهتداء : " ويزيد الله الذين اهتدوا هُدًى " فلا يشغله الجمعُ عن الفَرْق ولا

الفَرْقُ عن الجَمع و لا الكون عن المُكوِّن ولا عَنْ " كُـــنْ " فهو باقٍ ببقاء الله صالحًا ومن جملة صلاحه إصلاحه كما أصلح قلبه بواردات الإلهام والتقوى الوهبية لا الكسبية كما ذكرناه ، يُصلح قلوب الخَلق بإذن الله الحق عن وارداتِ الفجور ليلتحق السَّلف بالخَلف والخَلف بالخِلافة فهو في مقامِ الرَّشاد والإرشاد ليُعلّق النفوس ويُشوّق القلوب إلى مقلّب القلوب لأنه يتعامل مع مُقلّب القلوب لا مع الخلق أو القلوب ، وهذا هو مفتاح الترقية فهو يزداد ترقِّيًا وكمالا بمزيدِ ترقيّاته وتكميله للخَلق نائبًا عن رسول الله عليه السلام بإذنِ حَقٍّ مِنَ الحَقِّ ، مُتمثِّلًا سِيرة طـه في سورة طـه : " وقل ربي زدني علما " فيتخرّج وليّا صالحًا مُصلحًا .

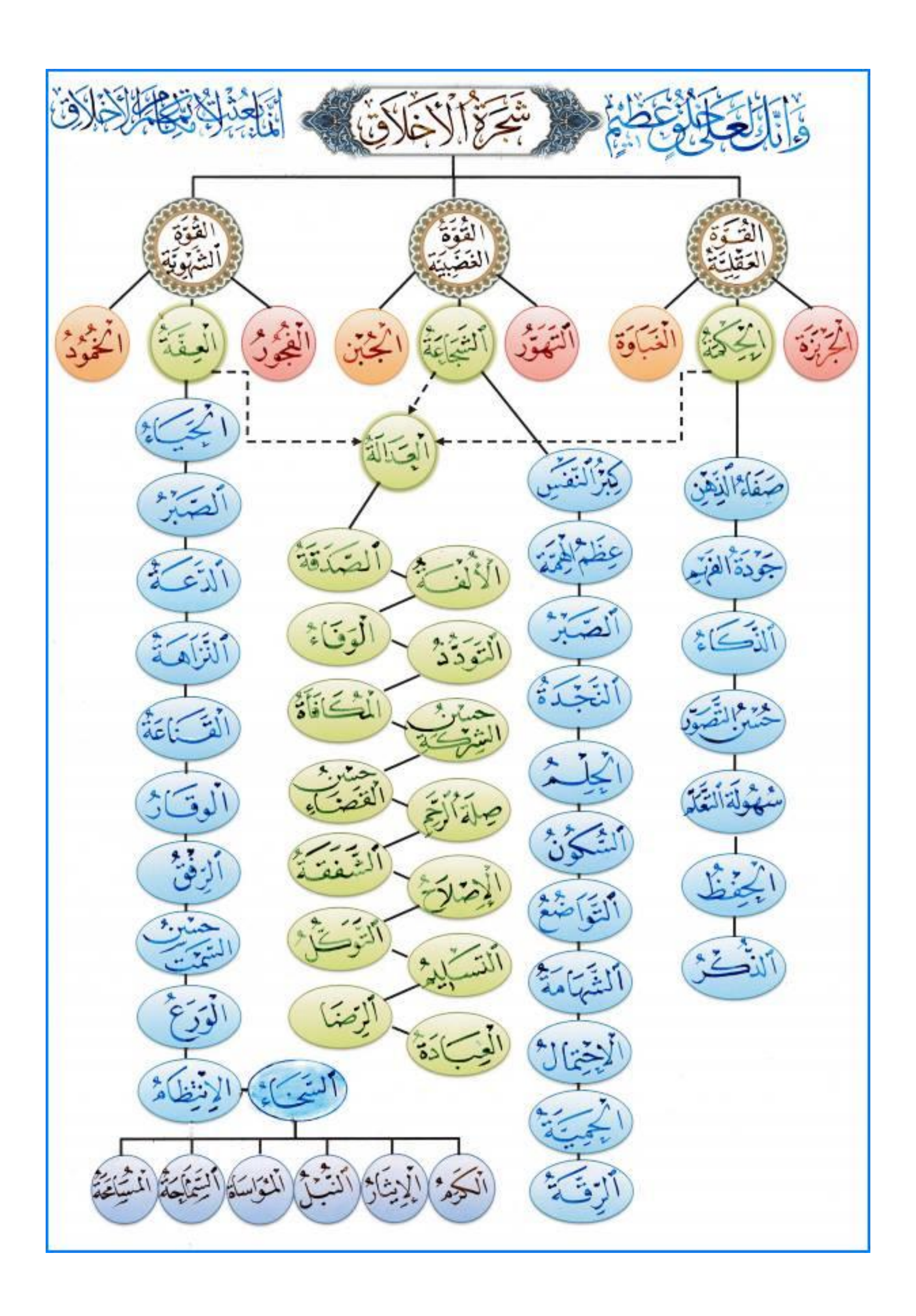
ثم اعلم أن إساءة الأدب مع الحق والخلق وصاحبنا في هذا المستوى من السلوك أمر خطير جدا فربما هفوة منه مهما قلَّتْ قد تطرد صاحبنا عن حضرة الحق وربّما إلى الأبد فمن زاد تقدمه في الوصول إلى الله طولب بمزيدٍ من الأعباء والمسؤوليات : "إنّما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ " لا كما ظن البعض أن مثل هذه المرحلة هي مرحلةُ تقاعدٍ أو مرحلة للنوم والإستراحة إذ كلما اقتربت من ربّك كلما طالبَك بمراحل جديدة وتكاليف أصعب ليَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بيّنة ويَحيى مَنْ حَيِيَ عن بيّنةٍ ، فما كان الله لِيَذَرَ المؤمنين على ماهم عليه حتى يُمحّص الصالحَ للعرش والطَّالِح إلى التراب والفرش ، فمن أساء الأدب عند البساط رُدَّ إلى الباب فإنْ أساء الأدب عند الباب طُرِدَ إلى ساحة الدَّوابِّ . لذلك ترى من تَحقق بهذه المرحلة أشدُّ اجتهادًا في العبادة عمّا كان عليه وأشد نصيحة وتأثيرا بإيجابٍ في الخَلق ، إذْ نظرةٌ منه ربّما تُغني عن الكلمات والمجلدات والشهادات ، فإنه حَجَّ إلى ربّه وأتمّ حَجّه بلا رفث ولا فسوق ولا عصيان وهو على هذه الحال في حَجٍّ إلى ربه حتى يأتيه موت الدنيا مُحقّقا العبودية لله تعالى من خلال ربه تعالى لا من خلال نفسه مهما كان تسمية ومستوى هذه النفس : فالنهار ليس منك إليك ولكنه وارِدٌ عليك ...

وفي هذا المخطط لخَّصْنا مراحل السَّفَر إلى الله تعالى الذي هو سبب السعادة في الداريْن وذلك عبر أطوار النفس الستة التي ذكرناها :

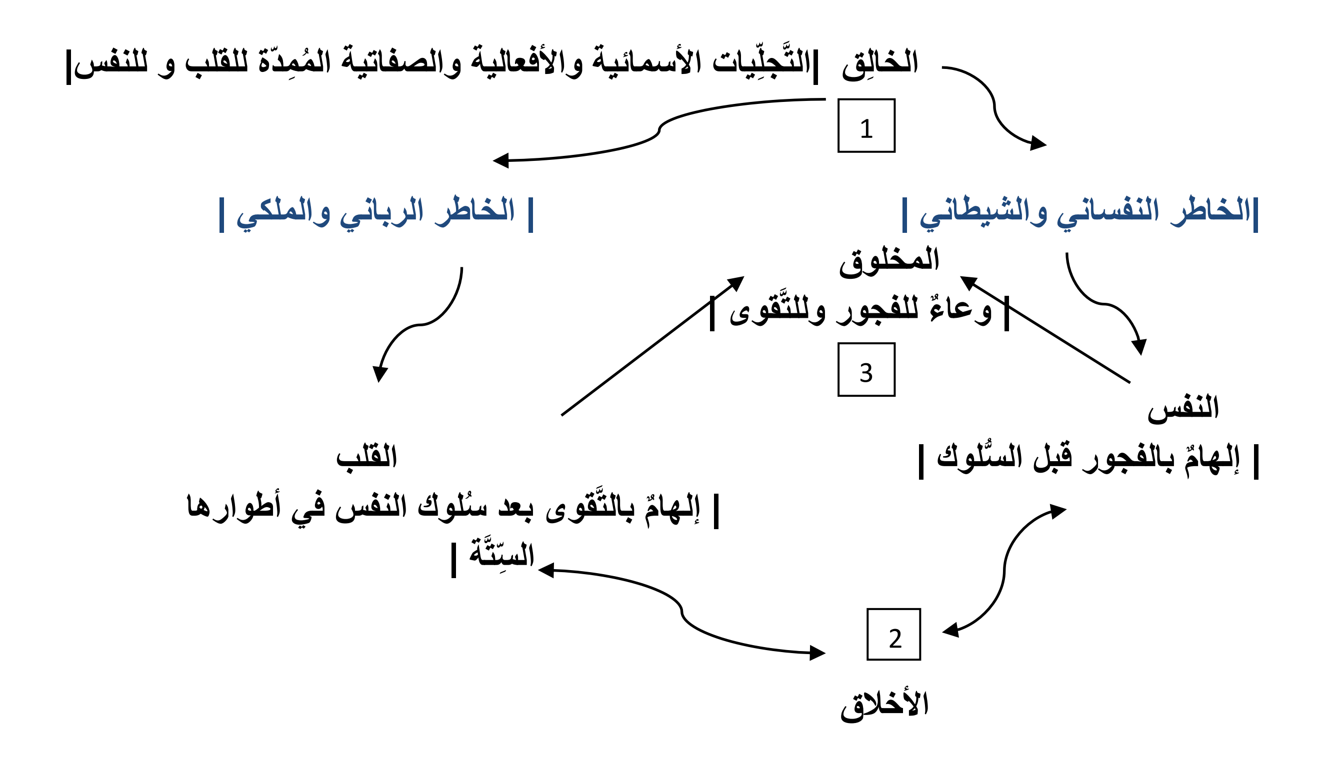
تنبيه ← ترقية ← تربية ← تأديب ← تحقيق ← تعريف

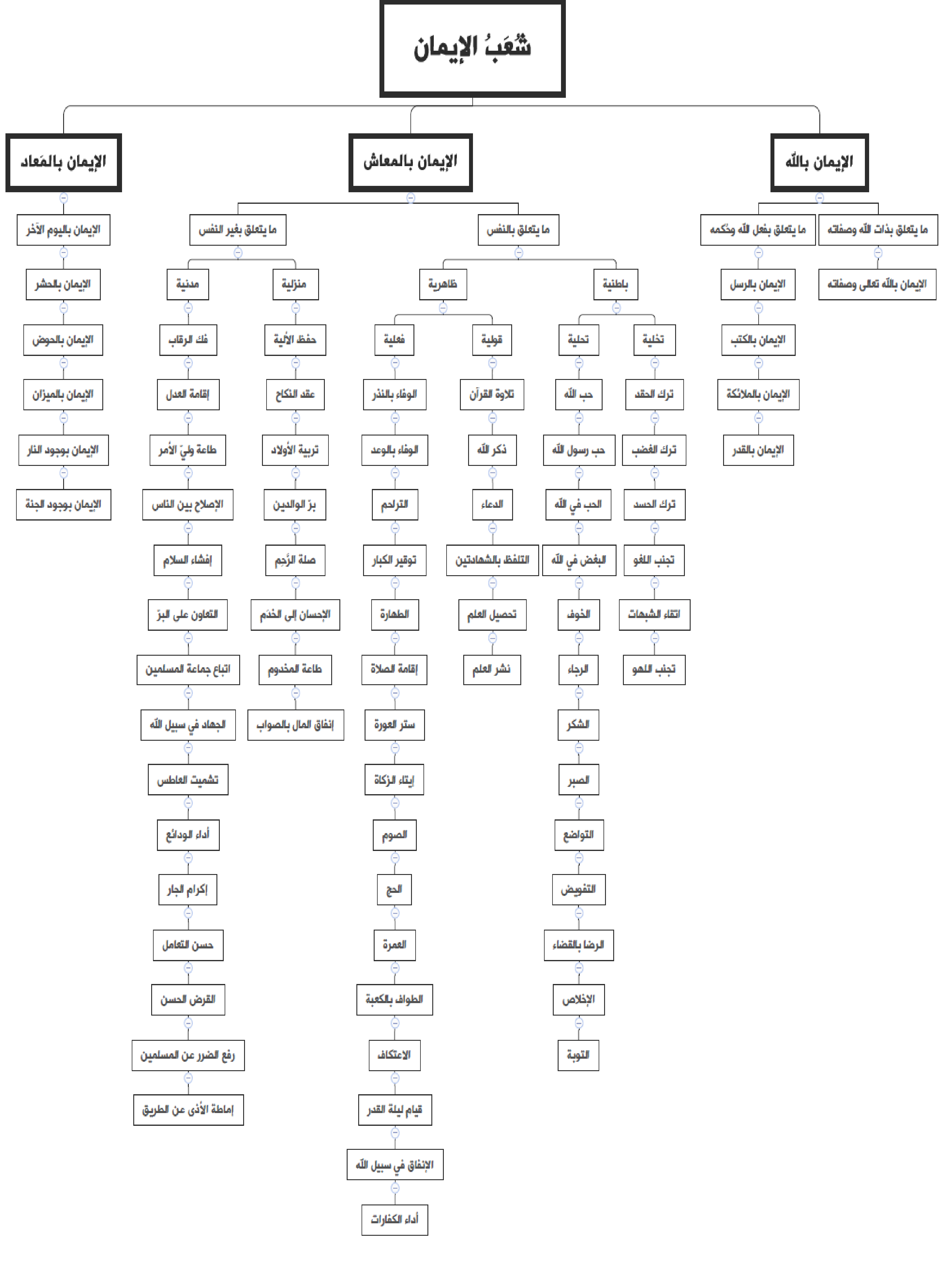
سفرٌ إلى الله وهو التخلّي والتجريد ← سفرٌ من الله وهو التحلّي والتّفريد ← سفرٌ في الله وهو التجلّي والتولّي , أو : سَيْر ← سِيرة ← سَريرة

هذه النفس هي وسيلة الإنسان الوحيدة إما للترقي في المعالي أو للتدني في الأسافل ، والغرض أن تُصبح قلبًا لصاحبها فإن الله تعالى لا ينظر لهذه الصور ولا لهذه المآكل والمشارب ولكن ينظر إلى إلى القلب ، وما دام العبد في طور النفس الأمّارة فهو بلا قلبٍ فإنه لا ينتفع بهذه الصور والمآكل ونحوها ، ولمّا ينبّهه أحدهم إلى ضرورة تطريق نفسه بالشرع لا بالطّبع خاف من ذلك لأنه إن فكَّرَ في ذلك وتَطرّق بالسلوك إلى الله تعالى فقد يتبدّل كيان نفسه ويستوحش من كلّ تاريخ التقهقر والتعاسة الذي عاشه ، إذن فحين تعود الرئاسة للقلب فإن النفس تصبح قلبا وتقلب أيَّ شيءٍ أراده صاحبها إلى ما ينفعه كما هو الأمر في نفسه ، ومن هنا تداخلت قوى النفس وتشعبت حالاتها في وحدة متكاملة يطلق عليها الأخلاق إلى ثلاث قوى : قوة غضبية وعقلية وشهوية هي المُراد بالسلوك لأنّ مَنْ زادَ عليك في الأخلاق زادَ عليك في الدِّين وهذه الزيادة لا تحصل إلا بالتكامل والتوازن بينها عبر السلوك إلى الله تعالى وصولًا إلى النفس الكاملة كما نرى في المخطط التالي :


وإنك لعلى خلق عظيم
شجرة الأخلاق
إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق
القوة العقلية
القوة الغضبية
القوة الشهوية
الجربزة
الحكمة
الغباوة
التهور
الشجاعة
الجبن
الفجور
العفة
الخمود
العدالة
صفاء الذهن
جودة الفهم
الذكاء
حسن التصور
سهولة التعلم
الحفظ
الذكر
كبر النفس
عظم الهمة
الصبر
النجدة
الحلم
السكون
التواضع
الشهامة
الاحتمال
الحمية
الرقة
الصداقة
الألفة
الوفاء
التودد
المكافأة
حسن الشركة
حسن القضاء
صلة الرحم
الشفقة
الإصلاح
التوكل
التسليم
الرضا
العبادة
الحياء
الصبر
الدعة
النزاهة
القناعة
الوقار
الرفق
حسن السمت
الورع
الانتظام
السخاء
الكرم
الإيثار
النبل
المواساة
السماحة
المسامحة

ذلك أنّ الإيمان كما هو معلوم بِضْعٌ وسبعون شعبةً فالذي سَلَك إلى الله في عَشْرِ شُعَبٍ ليس كالذي سَلك في أربعين شعبة مثلا ، وذلك أن غاية الشريعة هو الوصول إلى الله وهو ثمرة التصديق وهذا التصديق هوثمرة قوى النفس المتصوّرة وهي شُعَب الإيمان ، وهذا لا يُكتسب إلا بممارسة الحُجّة التي لَقّنها النبي عليه السلام لمّا أمَر بهذه التكاليف والعبادات ، فإن ربّنا تعالى ما بعث رسله بالميزانيات الضخمة ولا بالجيوش الجرّارة ولا بالترسانات الإعلامية وإنما بعثهم بالحجة التي تجدها كل نفس في فطرتها أنها حق فتصدقه وتعمل به وهو خيرٌ لها ، أو تُكذّبه وتتجاهله وهو شرّ لها لأنها تَكْذِبُ في نفسها على نفسها لا لنفسِ هذا النبي والرسول ، إذ الحُجَّةُ الصّادقة هي مفتاح الأخلاق التي تنغرس في النفس ،أيْ التصورات ،وهذه الأخلاقُ هي مفتاح التصديق ،والتصديقُ هو ما يَصنع الإعتقاد ، كأنَّ الأخلاق هي حَواسُّ العقيدة ،وقلبُ هذه الحواسّ ورئيسُها هو النفس في حالةِ " فألهمها فجورها " أو القلب في حالةِ : " تقواها " :





إعداد: نزار حمّادي

وقد نَظَمها الشيخ الطيّب بن كيران قائلًا :

لِلإِيمَانِ بِضْعٌ بَعْدَ سِتِّينَ شُعْبَةً   فَمُحْرِزُهَا حَازَ الْكَمَالَ بِجُمْلَةِ

وَيُرْوَى لَهُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ هَاكَهَا   فَلِلْقَلْبِ بِدْءٌ فِي حُلاهَا السَّنِيَّةِ

فَيُؤْمِنُ بِالْمَوْلَى وَأَدْرِجْ صِفَاتِهِ   وَرُسْلٍ وَكُتْبٍ وَالْمَلائِكِ فَاثْبِتِ

وَتَقْدِيرِهِ خَيْرًا وَشَرًّا كِلَيْهِمَا   وَيَوْمِ جَزَاءٍ فِيهِ مِنْ غَيْرِ مِرْيَةِ

وَفِيهِ اعْتِقَادٌ لِلسُّؤَالِ وَحَشْرِنَا   وَحَوْضٍ وَمِيزَانٍ وَنَارٍ وَجَنَّةِ

وَلِلْقَلْبِ حُبُّ اللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ   وَحُبٌّ وَبُغْضٌ فِيهِمَا بِالشَّرِيعَةِ

وَخَوْفٌ رَجًى شُكْرٌ وَصَبْرٌ تَوَاضُعٌ   وَتَفْوِيضُ أَمْرٍ وَالرِّضَا بِالْقَضِيَّةِ

وَفَاءٌ وَرُحْمَى فِيهِ تَوْقِيرٌ لِمَنْ عَلَا   بِسِنٍّ وَإِخْلَاصٌ وَتَرْكٌ لِإِحْنَةِ

وَلِلْغَضَبِ الْمُرْدِي وَلِلْحَسَدِ الَّذِي   بِهِ تُؤْكَلُ الطَّاعَاتُ تَعْجِيلُ تَوْبَةِ

وَأُبْدِي خِصَالًا لِلِّسَانِ تِلَاوَةٌ   وَذِكْرٌ دُعَاءٌ ثُمَّ نُطْقٌ بِوَحْدَةِ

تَجَنُّبُ لَغْوٍ بَثُّ عِلْمٍ تَعَاهُدٌ   وَلِلْبَدَنِ انْسُبْ مَا يَجِي مِنْ بَقِيَّةِ

طَهَارَتُنَا حِسًّا وَمَعْنًى صَلَاتُنَا   فَرِيضَةً اوْ نَفْلًا وَسَتْرٌ لِعَوْرَةِ

زَكَاةٌ وَصَوْمٌ ثُمَّ حَجٌّ وَعُمْرَةٌ   لِفَرْضٍ وَنَفْلٍ كُلُّهَا ذَاتُ قِسْمَةِ

طَوَافٌ عُكُوفٌ وَالْتِمَاسٌ بِطَاعَةٍ   لِلَيْلَةِ قَدْرٍ وَالسَّخَا بِالْعَطِيَّةِ

فِرَارٌ بِدِينٍ وَالْوَفَاءُ لِنَاذِرٍ   وَفَكُّ رِقَابٍ ثُمَّ حِفْظُ الْأَلِيَّةِ

وَسِتٌّ بِإِتْبَاعِ الْفَتَى قَدْ تَعَلَّقَتْ   نِكَاحٌ بِهِ يَبْتَغِي الْوُصُولَ لِعِفَّةِ

وَإِصْلَاحُ أَوْلَادٍ وَبِرٌّ بِوَالِدٍ   وَوَصْلُ ذَوِي الْقُرْبَى وَبَذْلُ الْمَؤُونَةِ

وَرِفْقٌ بِمَمْلُوكٍ كَطَاعَةِ مَالِكٍ   وَأُبْدِي خِصَالًا عُلِّقَتْ بِالْخَلِيفَةِ

إِقَامَةُ عَدْلٍ طَاعَةٌ لِوُلَاتِهِ   وَإِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ بَذْلُ التَّحِيَّةِ

تَعَاوُنُ بِرٍّ وَاتِّبَاعُ جَمَاعَةٍ   جِهَادٌ وَتَشْمِيتٌ أَدَاءُ الْوَدِيعَةِ

وَإِكْرَامُ جَارٍ ثُمَّ حُسْنُ تَعَامُلٍ   وَإِكْرَامُ ضَيْفٍ ثُمَّ قَرْضُ الْمَثُوبَةِ

وَإِنْفَاقُ مَالٍ بِالصَّوَابِ إِمَاطَةُ الْـ   أَذَى عَنْ طَرِيقٍ ثُمَّ كَفُّ الضَّرُورَةِ

تَجَنُّبُ لَهْوٍ فَالْمُحَصَّلُ سَبْعَةٌ   وَسَبْعُونَ بَسْطُ الْبَعْضِ يُرْبِي بِعِدَّةِ

فإنّ مَنْ أحصى شُعَب الإيمان كان أحرى بأن يتأهّل لشُعَب الإحسان تفصيلًا بعدما أحصاها إجمالا في مقام الإيمان ، خاصّة أعلى شُعَب الإيمان وهي : لا إله إلاّ الله ، ومن هنا تفهم لِمَ مقام الإحسان ما هو إلا إحصاء وتفصيل لكلمة التوحيد الشريفة في شعب حياة هذا المحسن ، بعدما حفظ علومها ووَعاها إجمالا

في مقام الإسلام ، ورَعاها دَلالةً واستدلالا في مقام الإيمان وشُعَبه ، فكان مقام الإحسان شرحٌ لصَدْرِ مُقيمِ أركان الإسلام وشُعَبه في مقام الإيمان ، ثم تعود الفروع والشّعب لأصلٍ وحيدٍ وشرحٍ جديدٍ يُعرف بعد تأهّل النفس لسلوك طُرُق وشُعَب الإحسان وإحصائها واحدةً واحدةً تفصيلًا بعدما كانت إجمالًا .

وأنت ترى أن الشخص إذا أراد أن يُصادق شخصا آخر يبحث عن الصفات التي فيه وما الذي يحبه وما الذي يكرهه حتى يضبط تعامله جيدا معه ، وكذلك من أراد أن يعامل مَلِكًا أو مسؤولا فكيف إذا كان مَلِكُ الملوك وربُّ الأرباب فيُحْسَنُ أن يعرف كيف يتعامل معه حتى يجتنب مساخطه ويُصيب مَراضيه حتى لا يخسر خيره ولا يُصيبه غضبُه ، وأول طريقٍ لهذا الإحسان في المعاملة مع ربنا تعالى هو معرفته

ولايكون ذلك إلا بمعرفة نفسك التي بين جنبيك أوَّلًا ، ولا يكون ذلك إلا بمعرفةِ وَحْيِهِ الذي جَمَعَ قوانينَ هذه التعاملات وبَيّن أصولَها وفروعها ، إذْ أعْلَمُ أهلِ الأرض أعْرَفُهُمْ بربه وأعْرَفُهم بربه أعْرَفُهُمْ بنفسه،وهذه المعرفة تحصل بالتطريق لهذه النفس بالسلوك الخاص لا السلوك العامّ العادي،فما كانوا من أهلِ الله وخاصَّته بمجردِ السلوك العامّ العادي ، لأنَّ سلوك النفس لتصبح قلبًا هو انتقالٌ مِنْ عالَم الشهادة إلى عالَم الغيب ويَتطلب طاقةً عالية تتوزع بين الجَمال والجَلال وبينهما برزخٌ لا يبغيان هو بين الجمال والجلال هو برزخُ الوسطيةِ والإعتدالِ الذي يَخْلُصُ عند مقام النفس الكاملة ، فعليه تستقرالنفس وتَقِرُّوَتَطْمئن بين الخوف والرجاء : بين سَيْرٍ وطَيْرٍ، بين سَوْقٍ وشَوْقٍ،ذلك أن النفس لها قوتين رئيسيتين للسلوك إلى الله نعالى : قوة التعقل وهي التي تخرق الحجب الكونية والآفاق العَينية ، وقوة التصور المحدودة والتي يحبِسها أولُ حِجابٍ وأولُ بابٍ كأبوابِ الشهوات ونحوها فلا تقدر على تجاوزِعاداتها الشهوانية الخاطئة لأن صاحبها لا يستخدمُ سوى قوة التصورالتي لا تُجيب سوى عن سؤالِ

كيف ؟ ، وليس لها خَبَرٌ عن جوابِ سؤالِ لماذا ؟ ، فتُنْكِرُ ما أثبته عقلك لمجرد عجز قوة التصوير عن إثباته بالصورالمألوفة فلوأنكرت أن لا أحد يَطرق الباب ولكنّ صوت الطرق يُكَذِّبُ تَصوُّرَك لأنه منقولٌ لك من عالَمٍ مخلوقٍ متصوَّرٍ وتستطيع تصوُّرَه وتعقُّلَه معًا ولكن ما تتعقله قد لا يَرِدُك من عالم الشهادة فقط وإنما أيضا من عالم الغيب الذي يَحفظ صورَ ومعقولات عالم الشهادة التي تراها في هذه الدنيا ، إذ عالَم الشهادة ليس أصيلا وليس نسخة أصلية للوجود الدنيوي وإنما موادّه من عالم الغيب مَنْ وَعاها فَهِمَ لِمَ هي هكذا كما هي عليه ، فأجاب عن سؤالِ المَلاحِدة الذي شَغَلَهُم وهو : كيف ؟ ، ويدخل ضمن هؤلاء الملاحدة أيضا كلُّ مَنْ ألْحَدَ في هذا السلوك الذي ذكرناه للنفس حتى مِنْ كثيرٍ مِنْ أبناءِ الأمة

الإسلامية . وسلوك النفس مادَّتُه ذكر الله تعالى حتى الإطمئنان بذكرك له وهو الإطمئنان بالمذكور فيكون لك سمْعًا وبَصراً ويَدًا ورِجْلًا ، فإنَّ النفس بعدما تتخلّى عن المُشوّشات التي تَحُولُ بينها وبين الإتصال بمَذكورها وتَخلّقت بأخلاق الله بتدريبٍ مِنْ أخلاقِ أهلِ الله تَعلّقَتْ بحبْلِ الله الممدود من هذه الأخلاق فقَرَأَتْ سلوكها إليه عَلَيْهِ ورَقّتْ وارتَقتْ فصَدَّقَ شاهِدُها غائبَها ، وهذا صِدْقُ المعرفة للنفس بربها تعالى هو شرْطٌ قَبْلِيٌّ لازِمٌ لحصول الإخلاص والخشوع اللازمان لحصول الإطمئنان بذكر الله تعالى الأكبر : " ولذكر الله أكبر " وهذا هو السلوك الذي أوّلُه الطاعة وآخِرُه الجَنَّة ، فيالَها مِنْ نفسٍ موعودةٍ بين امتحانِ وَعْدٍ ووَعيدٍ ، ويا لَها مِنْ نفسٍ مخلوقةٍ بَيْنَ امْتِكانِ خَلْقٍ وأمْرٍ: " فلا اقتحم العقبة وما أدراك ماالعقبة " بَين العادة والعبادة جَمَعَتْ الطاقة والفاقة وبين الزمان والمكان وبين الإمتحان والإمتِكان وبين " إياك نعبد وإياك نستعين " ، وهي تَحْمِلُ وتَحْتَمِلُ النَّقيضيْن ومِنْ كلِ زوجيْن اثنيْن ، وما دامت تتردَّدُ بين النقيضيْن تَرَدَّدَتْ عن الإنطلاق إلى الله تعالى بين هذيْن النقيضيْن ، فوَجَبَ على الإنسان أن يترقى بنفسه إلى مقام القلب الذي يتصرف في النقيضيْن، لأنه البَرزخ بينهما لَمّا جَعَلَه ربُّنا بيتًا له ومَحَلًّا لنَظَرِهِ الأوّلِ والأخير وما السلوك الذي ذكرناه سوى تصحيحُ النقيضيْن في النفس ليُصبِح القلبُ مُنْتَفِعًا بالوحي مِنَ الكتاب والسُّنَّة والسِّيرة ، فهوليس سُلوكا نظريا وإنما أعمالٌ وأحوالٌ موزونةٌ ومضبوطة على مزاجِ وأخلاقِ النبي عليه السلام كما يُمَثِّلُها الشيخ أو المُرشِد أثناء هذا السلوك ، وذلك أنَّ الوحي أو التعامل مع القرآن والسُّنَّة لا يُؤخذ كيفما اتفق وبمقاديرعشوائية ، لأنه يأتي في البداية قويًّا مُرَكَّزًا لا يَثْبُتُ له القلبُ الذي مازال يخوض في النَّقْضِ والنَّقيض المُقابِلِ له وهو أصلُه في النفس ،فلا يَنفع صاحبه وهو هكذا صلاةٌ أو صيامٌ أو صدَقَةٌ إذْ القلب مازال حَجَرًا والحَجَرُ لا يصوم ولا يصلّي ، وذلك القلب الحَجَري أسوأُ من الحَجَر لأنه كُلِّفَ وامْتُحِنَ وخوطِبَ بأشرفِ الوحي لِيَنْفَعِلَ أثناء ذلك باتصاله بالمَذكور فتصبحُ شمسُ القلوب دَليلًا على ظِلِّ مُقَلِّبِهَا وهناك في تلك الظلال ترتاح

النفس مطمئنة . فالنفس شُرِّفَتْ ثم عُرِّفَتْ ثم كُلِّفَتْ وليس ذلك سوى لنفس الإنسان دون نَفْسِ الحيوان فلمْ يُكلف الله نفسًا إلا ما آتاها مِنَ الفهم عنه لوحيه وخطابه. فسلوكُ النفس هو فرائضُ الإسلام الخمس ، لكن الناس يصلّون ويصومون وغير ذلك دون أن يُشيّدوا ذلك بعنوانِ هذه الوظائف وهي شهادةُ التوحيد فيأتي إسلامُهم تلقينًا وتقليدًا فيظلّوا طول عمرهم دون ترقٍ إلى أسرارِ هذه العبادات والمعاملات وهي التي تُخَلِّدُهُمْ في جَنّاتِ الرِّضوان ، لأن الخلود في نعيم الآخرة لا يأتي بمجرّد هذه الحَركات والصلوات والصوم وغيره وإنما بِسِرِّه وهو اليقين أثناء تلك الشَّعائر وهو حَجَرُ أساسها إنْ اخْتَلَّ اختَلَّتْ وإنْ ثَبَتَ ثَبَتَتْ وهو كلمة التوحيد ، وهذا بالسلوك المخصوص الذي محلُّه النفس قبل أن يُصبح سَيْرًا إلى الله ومَحَلُّه القلبُ الذي هو مَحل نظر الربّ أثناء العبادات والمعاملات ، فإنْ لمْ تَسِرْ لمْ تَصِلْ وإنْ لمْ تَصِلْ لمْ تَرَ : " أولم يسيروا في الأرض فينظروا "، ومادام الإنسان نفسُه أمّارة أو لوّامة لم تخلُص له حقيقةُ الشُّهود الإلهي لأنه لا يكون إلا بالقلب لا بالنفس ، إذ القلب هو محلُّ الرُّؤيتين المقصودتين بقوله عليه السلام : ' كأنّك تراه ' و ' فإنّه يراك ' ، وما دامت النفس لم تُسَلِّمْ القيادة للقلب لن تَرَ شيئا حَقًّا في الوجود لأنها ليست محلّ هذه الرؤية ، فربُّنا لا ينظر سوى للقلب ومنه فقط يَصعد له عملُ صاحبه ، فإنْ ارْتَقَتْ النفسُ من مقام الإسلام عبر شُعَبِ الإيمان إلى مقام الإحسان صارت قَلْبًا في طورٍ أعلى من العقل وأشرف منه إذ يصبح العقل بعد هذا خادِمًا للقلب بعدما كان خادما للنفس ، ثم سيعود القلب روحًا وسِرًّا وفُؤادًا ولُبًّا بمواصلةِ صاحبه السلوكَ إلى الله تعالى بمقام الإحسان ما دام حيًّا كما سنرى إن شاء الله تعالى ، وما دام صاحبُنا لم تُصبح نفسُه قلبًا مطمئنّا بذكرالله لم تَصحّ له مُعاملتي مقام

الإحسان اللّتين هما : المُشاهَدة (كأنّك تراه) والمُراقَبة (فإنّه يراك) لأنه يعيش عَيْشَ نَفْسٍ فقط كالحيوان ، ومن هنا تنشأ أزمة الهُوِيّة التي انتشرت في مجتمعاتنا في الشرق والغرب لأنها انفصامٌ

للشخصية و كَبْتٌ لحاجةِ الإنسان الدِّينية الإحسانية ، فيُفضّل ربحَ لذّاتِ الدنيا العاجلة على حساب معاملاته مع

ربّه دِينًا ودُنْيَا ، يُفضِّلُ العيش بنفسه لا بِربّه عَبْرَ قلبه، ولَمّا لا يستقيم له ذلك لأنه ضِدّ فِطْرته الربّانية

اختلَّتْ شخصيتُه وبذلك تتأزّم هُوِيَّتُهُ ، لأنه لا يسمع ولا يُبصر شيئًا يُروي شغفه الأزلي للحقيقة

كالحيوان ما دام في عيشِ النفس لا في حياةِ القلب ، فللنفس العيْشُ لكن للقلب الحياةُ لا مجرّد العيش ،

والقلب لا يَحيى حَقّا وصِدقا إلا بتلك الرؤية الإحسانية التي ذَكرها النبي عليه السلام لمّا عَرّف الإحسان

في كلمتين فقط ، ومادام لم تَصِرْ النفسُ قلبًا لتظفر بإحدى تلك الرؤيتين (كأنك تراه ، فإنّه يراك) لم

يَصْفُ لصاحبها عادةٌ ولاعبادةٌ ، لأن العادات والعبادات لابد أن تكون مُشيّدة بالشُّهود لمن تتعبّد له

وهو ركن شهادة التوحيد الذي جُعِلَ رأسَ كلِ مَقامٍ وكلِ حالٍ مِنْ هذا الدِّين ، وبغير ذلك سَتفترس هذه

النفسُ صاحبَها في شخصيّته ليصاب بما يعرف بأزمة الهُوِيَّة ، وهذا الفصامُ في الشخصية الإسلامية

والإنسانية عمومًا لا علاجَ لها إلا بإحدى الرؤيتين المذكورتين في مقام الإحسان الذي عليه المَدار

لشرائعِ الإسلام ومعتقداتِ الإيمان وذلك قوله تعالى : (ومن يُسْلِمْ وجهه إلى الله وهو **مُحْسِنٌ** فقد استمسك

بالعروة الوثقى **لا انفصام لها) فلا انفصام إذن للشخصية والهويّة والذّات الإنسانية والمسلمة بعد**

ترتيب الشرائع الإسلامية والشعائر الإحسانية إيمانًا واحتسابًا ، وبِقدر الإنفصام بين مقام الإسلام

ومقامي الإيمان والإحسان على غيرِ نَفَسٍ وتَوجُّهٍ واحدٍ ووحيدٍ للواحدِ الأحَدِ يكونُ الإنفصام بين حياة

الشخص الدِّينية وحياتِه الدنيوية وتلك هي أزمة الهُوِيَّة ، وقد أشرْنا لك أيّها القارئ الكريم إلى شيءٍ

مِنْ علاجنا لهذه الأزمة ، كما سترى مزيدًا من ذلك عبر باقي صفحات الكتاب . فمقام الإحسان بوسعه

أن يَنفي متناقضاتِ حياةِ كلِّ إنسانٍ مسلمٍ إنْ كان قادرًا على دفع تكاليفِ تدريبِ نفسِه كما سنرى ذلك .


الكمالات الإنسانية
الكمالات النفسانية
الكمالات البدنية
الكمالات الخارجية
كمال القوة النظرية
كمال القوة العملية
الصحة
الجمال
المال
الجاه
معرفة الحقائق كما هي
القيامُ بالأمور كما ينبغي
والمقصود من إنزال القرآن الكريم تكميل النفوس بحسب القوة النظرية والعملية
لتحصيل سعادة الدارين وإحراز فضيلة الكونين وبيان مراتب السعداء ومنازل
الأشقياء
مركز الإمام ابن عرفة للعلوم الإنسانية ـ تونس

لَخّصنا السلوك فيما سبق أثناء حديثنا عن النفس الأمارة وصولا للنفس الكاملة ، ثم نواصل ذلك ولكن هذه المرة بشيءٍ من تفصيلِ هذا السلوك على مستوى ركنِ الشهادة التي هي أوّلُ أركان الإسلام وأوَّلُ وآخِرُ سلوكِ السَّالِكين وأوَّلُ وآخِرُ طَيْرِ طَيَرَانِ الطَّائِرِينَ إلى الله " ففِرّوا إلى الله " .

فنقول أنَّ النفس الأمّارة لتصير نفسًا كاملة ، على صاحبها أن يَطْوِي تلك المراحل التي وضّحناها سابقا وحسب برنـامجٍ مادّتُه شهادةُ التوحيد حسب المراحل التالية :

الواحِدِيَّة ← الأَحَدِيَّة ← الفَرْدَانِيَّة

وكذا حسب برنـامجِ التزامٍ مادّتُه وأركانُه :

ذِكْرٌ باجتماعٍ و خُشُوعٌ باستماعٍ وتَحَمُّلٌ بإتِّباعٍ

وهي أركانُ مقام الإحسان فما بَعْدَه ، وشَرْحُ ذلك يُعْرَفُ بشرحِ الذات والنفس الإنسانية بالمقابلة مع الذات الإلهية ، إذ معرفةُ النفس هي بمعرفةِ وتعريفِ الرَّبِّ ، ومعرفتُه تعالى شَرْحٌ لمعرفتك بنفسك إن استطعت تحقيق السلوك إليه كما ذكرنا ، فأعرف الناس أعرفهم بربه وأعرفهم بربه أعرفهم بنفسه ، لذلك اخترنا لك إشارةً إلى هذا الشَّرح بين النفس الإنساني والنفس الرحماني حسْبما ننقله لك من كلامِ امرأةٍ صالحةٍ هي السِتُّ #عَجَم بنت النفيس البغدادية رحمها الله تعالى مع شيءٍ من تعليقنا

عليه وهو قولُها : مداخلة *** ستّ عَجَم بنت النّفيس البغداديّة :

[حقيقةُ واحِديّةِ الله تعالى أنَّ هذه الحقيقة
تنشأ عن اسم الذَّات وهو المعروف بإسم الأحَدِية ، فإذا تَسَمَّتْ الذَّاتُ بالواحدية التي هي حقيقةُ الإله أخْفَتْ الأحديةَ التي هي اسمٌ لحقيقتها في هذا الإسم الذي نَشَأَ عنها:فكأنّ الذات تَظهربحقيقةِ تقييدِها في هذا الإسم الذي هو واحديَّةُ الإله] أو ما يُعرف بتوحيد الربوبية حيث الإسمُ يُنفِق على المُسَمّى دون أن يَعْزُبَ عنه ذَرَّةٌ منه [وتُخْفى حقيقةَ إطلاقِها فيها . وإنّما قلنا إنه للواحدية لا للأحدية لأنّه تعالى قال : " إنّ إلهكم لواحدٌ " ولم يَقُلْ : لَأَحَدٌ ، فشُهِدَتْ صورةُ الواحديةِ المنوطة بالتقييد لا صورةَ الأحَدية المنوطة بالإطلاق ، ولما عَلِمْنا أنّ الأحدية مَخْفِيَّة في صورةِ الواحدية] أيْ الخَلْقُ المُختفي في صورةِ

الحَقِّ تعالى إذْ هو ربُّهم وبه تَعرّفوا عليه وعلى أنفُسِهِمْ فتراهم يَدعونه ويَستغيثون به ونحو ذلك من

خصائص توحيدِ الرُّبوبة أو الواحدية [عبَّرْنا عنها بحقائق الأحدية لا بها نفسها ، حتى أنه تعالى خَلَق

آدمَ على صورته أيْ صورة الأحدية وخَلَق حواء على صورة آدم أيْ صورة الواحدية فآدم هنا هو مِثالٌ

لا مِثْلٌ : إذْ كان مُقابلًا مُقابلةَ موازاةٍ حتى كان خليفةً بين الله تعالى والعالَم ، والمِثال لا يُقال إلا على

مُنْطَبِع في مرآةٍ ليكون ظِلًّا لها ، لا حقيقةً ؛ والصّورةُ لا تُقالُ إلا على مُقيّد] وهذا يَشرح الإنتقال بين

الأحَدِية والواحِدية كما وعدْناه عند حديثنا عن هذا الإنتقال الحاصل في سلوك النفس المرضية لمّا

أصبحت كاملة ، إنّما [لمّا عَلِمَ الشّاهِدُ أن الأحدية كامنةً في الذات الإلهية الواحدة وهناك شَهد العبدُ

زوالَ الإشارات التي كان يَتشدّق بها] والعبارات التي كان يُعبّر بها بلسان النفس الأمّارة [لأنه قد

كَمن له ما كان ظاهرًا في الشُّهود وقد ظَهَرَ ما كان خافيًا له بالنسبة إلى الشُّهود أيضًا لأنه تيقّن أنّ

الأحدية كامنةٌ هَهُنا فلم يلبث حتى ظَهرت له ونُفيت الواحدية] فبقَدر التَّخَلّي في النُّفوس وبقَدر النفي

لِسِوى الله تعالى يكون الإثباتُ لوجهِ الله الباقي في ذاتِ أحديته تعالى ، وهذا لمّا يَتجلّى اللهُ الحقّ على

الباطل الكامِن في النفوس فيدمَغُها بخاصيةِ الذِّكْر القلبي أثناء السلوك إلى الله تعالى على بِساط الأنفس

والآفاق فيَرى العبدُ آيةَ ربِّه الكبرى ويَشهدُ توحيدَه في كل حَركاته وسَكناته لأن قلبه أصبح ذو وجهةٍ

واحدة هو وجهُ ربه تعالى فيه وفي الأشياء

[وهذا هو إخفاءُ الظاهر الحاصل و إظهارُ الباطن المَعدوم ، لأنه يكون الشهود دالًّا على حقيقةٍ ما ، وهي موجودةٌ خافِيةٌ في شهودنا فلا يَبعد أن يَظهر ذلك الموجود الخافي ويَخفى ما كان ظاهرًا بالنسبة إلى الشّاهِد ، فلمّا ظهرتْ الأحديّة لهذا الشَّاهِد] وهو جمعُه بين توحيدِ الرُّبوبية والألوهية والأسماء والصِّفات معًا في مَشهدٍ واحدٍ وفي نفْسٍ واحدٍ ، وذلك لا يَصِحُّ إلا بالسلوك الخاصّ الذي ذكرناه بين الأنفُس والآفاق ، ومن هنا أهميةُ هذا السلوك لأنه وحْده يَجيء للعبد بكراماتِ مقام الإحسان وليس بمجرد الكلام أو أداء العبادات بالغفلة [ولكنْ لا يَقدر أن يَنعت ذلك لأن تلك الأُمّيّة هي مِنْ أوصافِ الأحديّة المقتضية لعدم التقييد والتوصيف] كما وَضّحَته في بداية كلامها [وكذلك زوال الإسم والرَّسْم] اللذين هما من أوصاف التقييد أيْ أوصاف وبقايا الأخلاق الذميمة التي كانت تُرافِق النفس من الأمّارة إلى المَرضية قبل أن تصبح خالصةَ التوحيد بلا تقييدٍ في مستوى النفس الكاملة [اَللّذيْن يَنشآن عن ضِدِّ الأحدية الذي هو الواحدية ، فإنَّ الذات متى ظَهَرتْ بهذا الإسم] الأعظم [فَنِيَ المُخاطَب والمُخاطِب ، وهنا زال كلُ شيءٍ إذ لا مُعَيَّنَ في الأحدية] شيءٌ سِوى الواحدُ ، كما يَنبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه بسُلطةِ اسمه القَهّار ، وسِوى العبودية الخالصة لَمّا تَتحقَّق بها النفس لَمّا تُصبح كاملةً [وأمّا ظهور كل شيءٍ له في هذا المَحلّ فمِثل شُهود النَّقيضيْن] وكان هذا على مستوى النفس الراضية كما قَدَّمناه حول تلك الثغرة التي يزين منها إبليس في القلب للعبد بالحيرة والمعاصي[فإنه لَمَّا كان الشُّهودُ ظاهِرًا بالأحدية ،والشَّاهِدُ مُتيَقِّنٌ بخَفاءِ الأشياء فيها على سبيل العلم وجَبَ أنْ يظهر يقينُه عَيانًا بظهور المعلومات في ذاتِ العالِم : فكأنه شَهِدَ هَهُنا ذاتًا عالِمةً مُتَّصِفَةً بالإطْلاق فقط ، وهو مثل شُهود الجَمْعِ بين النَّقائض] وهوالجمعُ بلا فَرْقٍ والحاصل في النفس الكاملة ومنها يُنفِق صاحبُها على نظرته للأشياء من عوالمِ الكثرةِ والنقائض والفُروق ، بتوحيدِ سُلوكها ووِجْهَتِها على

خِزانةِ القلب المُوَحِّد لربه الموحَّد –بنصب الحاء - الناظر إليه ، وقبل ذلك في المستويات الخمسة السابقة من أمّارة ولوّامة ومطمئنة وراضية ومرضية لَمّا كان خطاب هذه الأنفُس للعبد فيها بين { مِنك وبك وإليك} و { مِنك وبه وإليك } وغير ذلك كما قدّمناه ، فكان يجمع بين كاف المخاطِب وهاء المخاطَب معًا ويستأثر بأنانيّته دون أنانيّةِ الحقّ تعالى ولو صلّى له وصام ،

ولكن بشوائبِ الأنانيّة التي تَحجز العبدَ عن الترقي والتغيير الإيجابي على مدارج توحيدِ الألوهية وتوحيدِ الأسماء والصّفات اللازمان لحقوقِ مقام الإحسان وليس الإسلام والإيمان فقط [لكنْ هذه الذاتُ ليس هُوَ : لأنَّ هَهُنا ذاتًا متصفةً بالإطلاق ، والمعلوماتُ فيها خافيةٌ لا يَلْحَظُهَا] ولا يتذكرها بالذكر الأكبر إلا مَنْ [تَقَدَّمَ له شُهودُ النَّقيضيْن] والوَجْهَيْن في الأكوان مِنْ كُلِّ زوجيْن اثنين بين حَقٍّ وخَلْقٍ ، ولكن الخَلق امتازوا بكونهم بين باطلٍ وحَقٍّ ، خاصة لمَن يَسلك بين البرزخية القلبية والكونية على مدارج النفس الستة كما ذكرناه [وهو الكاملُ النفسَ] صاحبُ الجَمْع والفَرْق ، أيْ صاحبُ النفس الكاملة المُكَمِّلة لَمّا يطمئن قلبه الذي هو خلاصةُ سلوكِ نفيِ النَّقائض ونفي النقائص بربه ، فيه وفي الآفاق ،

أيْ لَمّا يطمئن القلب الواحدي بذِكرِ المذكور الأحَدِي [وهو التقييد مع الإطلاق مُجتمعان ، ليَشهد] الفُروقَ والأكوان والآفاق [الكثيرةَ واحدةً] أيْ الجَمع القلبي بعد تحقيقِ الفُرقان في الأنفُس والأكوان ، فهو كصاحب نفسٍ كاملةٍ [أحديَّ الصِّفة] لتَخلقه بأخلاق الله وصِفاته واحدةً واحدةً ، ، ولا يُطيق ذلك إلا صاحب الهِمّة في السلوك بنفسه إلى الله تعالى،بل وتفاوتتْ النتائج حتى بين السّالكين أنفسهم:

[مُتكثِّرَ المَوصوفات] .

في شرح مقولة الستّ عَجَم بنت النّفيس :

يقول الشّيخ #مصطفى ماء العينين بن مامين الشّنقيطي رحمه الله تعالى (مُخصّصا كلامه عن توحيد الاسماء والصّفات الذي هو لُبّ مقام الإحسان) شارحًا هذه النّقطة من كلام السّتّ عجم :

" وهذا بحرٌ لا يسبحه شخص إلا بعد أن يَفنى أوّلًا عن صفات نفسه الذميمة وبقاياالأنانيّة – حتى في العبودية

نفسها - فيَفنى عن صفات نفسه بظهور صفات ربه ثم يَفنى ثانيا عن هذا الفَناء بشُهودِ سِرّ

الرُّبوبية – أيْ تحقيقُ شُهودِ الواحدية – ثم يَفْنى ثالثًا عن مُتعلقات صِفاته بمُتحقّقات ذاته تعالى –

وهو تحقيق سرِّ الفردانية كما سنرى - فيترقّى من المرتبة الكونية – إلى المرتبة النفسية القلبية

الإنسانية – إلى المرتبة القُدسية ويصير في مرتبةِ مَنْ عرف نفسه عرَف ربَّه ، فيظهرُ له أنَّ ما ظهَر

إنَّما ظهَر به وصفًا وَصفًا ؛ ولم يُغيّر ما كان عمّا كان بل كان وهو الآن على ما عليه كان ، فلا يَصح

عنده ضميرُ نفسٍ ، سواءً ضمير مخاطب أو ضمير متكلم أو ضمير غائب إلا الله تعالى كما جاءت في

هذه الكلمات القرآنية الثلاث : " إنني أنا الله لاإله إلا أنا " و " لاإله إلا أنت " و " لاإله إلا هو " ،

فالضّمائرُ الثلاث تعودُ على نفس الذات ، فضمير الخطاب في جهة الله تعالى هو ضمير المتكلم وهو

ضمير الغَيبة سابقًا أيْ في الأزل ، فليس لله تعالى غيرٌ يَفتح – ويَفتتح – هُويّتَه " هو الأول والآخر

والظاهر والباطن " وقلت شِعْرًا : له الآنية مع هُويّة قدما * ولفظ أنت له عن كل ما ذكرا ؛**

وأقربُ الأوصاف إلى ذاته تعالى هي الحياةُ ، وأقربُ الأوصاف إلى الحياة العِلمُ – من استغرق في هذا

العلم بالتخلُّق بالصّفات الإلهية أثناء ما يَظهر من سلوكِ النفس حيِي الحياةَ التي لا شَقاء فيها، وما دام

يَشهد الكثرة لم يَبلغ مقام الكمال لأنّه يعتقد أنّ مايراه واحِدًا يُشبِه الجملة والكثرة ، إذْ هم متشابهون

عنده هنا ، فلا يُحيط بالأسماء والصِّفات إلا بعد هذا الفَناء كما ذَكره الشّيخ على مستوى مقامِ النفس

الكاملة ، وإنْ كانتْ الكثرةُ موجودةً لكنَّها عند هذا العابِد ليست مشهودةً لصالحِ أحديَّةِ الشُّهودِ والوُجودِ

لله ربّ العالمين وحده ، فهو هنا خليفةٌ على مستوى الإسم الرّحمن المُستوي على العرش لأجل

الإنطباعِ في مرآةِ

الوُجود فهو على صورتها لا مُختصر صورته منها ، لبراءةِ المِرآةِ الإلهية عن الثَّنوية والشِرّكِيَّةِ فقال

أنْ تعبد الله كأنك تراه ، وليس "كما تراه" ،

في مرآةِ الآفاق والأكْوان ، فإنها خاضعةٌ مُسَبِّحَةٌ عابِدةٌ له مثلك ،

وجَعَلك تراه وليس تُشاهده لأنّ الرؤية لا يتقدَّمُها علمٌ بالمَرئيّ بخلاف المُشاهدة يتقدمها علمٌ بالمشهود

هو ما يسمّى بالعقائد والعابد لَمّا وصل إلى مقام النفس الكاملة لم يكن له ذلك لولا تصحيح العقيدة في

مستوى النفس الأمّارة واللوامة وما بعدهما عن كل لغو ولهو وباطل بخالص التلقين للذّكر الذي هو

أسمى من كل عقيدةٍ مخلوقة وقد تكون باطلة ، فَتَتَبُّعُ توجيهات المرشد هام جدا لئلا يأخذ معه عقائدَ

باطلة إلى المقامات الموالية من سلوكِ النفس فيُفسد عليه السلوك في المقامات الموالية ،لأنها مقاماتٌ

خطيرة صعبة لا تقبل الباطل بل تزهق السالك إنْ جاء معه إليها ببقايا باطلِ عقائدِ النفس الأمّارة فضلًا

عمّا بَعدها ، ومن هنا تفهم أيضا لم يقع الإنكار والإقرار في الشُّهود في الآخرة ولا يقع في الرؤية إلا

الإقرارفقط نظرًا لرسوخِ رؤيةِ النفس الكاملة في مقامِ"اعبد الله كأنك تراه"– ولذلك أيضا جُعِلَتْ الحُجُبُ

على العلوم والمعلومات،ومَحلّ هذه الحُجُب في النفس الأمارة غالبًا وهي إما حُجُبٌ جَمالية وهي الأكثر

أو حُجُبٌ جَلالية وهي الأقل – ومادام الحجابان لم يُسويا عن مقام توحيدِ الأحديّة في النفس الكاملة

فإنه قد يَرجع صاحبُها عن قريبٍ ويَتقهقر إلى الوراء إنْ لم يَصل الأحديةَ بتوحيدِ الفردانية كما سنذكره

إن شاء الله – فإنَّ لكلّ اسمٍ أو صِفةٍ لله تعالى أثرٌ ، وذلك الأثرُ مَظْهَرٌ لجَماله أو جَلاله أو كَماله ، وكلّما

انْكشَف للعبد أثرٌ مِنْ آثار تلك الأوصاف والأسماء – بسلوك مراحلِ النفس بين النفي والإثبات القلبي

لكلمةِ التوحيدِ الشّريفة كما ذَكَرْناه – أَحْرَقَتْ سُبحاتُه وَجْهَ – قَلْبِه حيثُ مَحَلُّ التَّعَلُّقاتِ بالشَّهَوات

بالغفلة عن وجه الله تعالى فيها ليحصل الإنتهاء ؛ وكذا في الطاعات – فيعلم العبد أنه لا حجاب عن الله

إلا بتصريف الله تعالى وذلك شيء حَكَمَ الله به ، وما حَكَمَ به لا يخرقه غيرُه ولا يصرفه سواه ؛ وبعضُ هذه الأسماء والصّفات لا يمكن أن يظهر لها أثرا في الخلق أصلا ،فإذا مَحَوْتَ النسبة التي لْلغَيْر وجدتَ

النسبة كلّها له تعالى ، على أن من لم يركب سفينة الشرع – مقام الإسلام والإيمان – غرق أثناء سيره إلى

الله لأن تنوعات - النفس الكاملة في بحار وتجليات المعارف الأسمائية والصفاتية لاتنتهي و – لا

يعرفها إلا آحاد الفضلاء . والمعارف الإلهية الربانية – والتي هي نتائج وكرامات و لا تحصل الكرامة

إلا بعد تحقيق الإستقامة لسلوك النفس إلى غاية مقام النفس الكاملة وما بعدها في مشاهد الفردانية

بعد مشاهد الواحدية والأحددية– هي على مائة وثمانية وأربعون ألف منزل محققة لم ينلها أحد من

الأمم قبل هذه الأمة – لأن مقام الإحسان حكر على أمتنا دون سواها ولكنه أيضا حكر على من انبعث

للسلوك الخاص ؛ فإن مقام الإحسان لا يُحقق بالجلوس والراحة في دوائر العبادات الشهيرة في مقام

الإسلام فقط دون تحقيقِ سِرِّها وروحها بفضلِ هذا السلوك للنفس الذي ذكرناه – ولهذه المنازل

مراتب ذَوقية لكل ذوقٍ مشربٌ خاص يعرفه من ذاقه " قد علم كل أناس مشربهم " على أربع مقامات

رئيسية : مقام العلم اللَدُنى ومقام علم الأنوار الإلهية وعلم الجَمْع والتَّفْرقة وعلم الكتابة

الإلهية ؛ ثم بَيْنَ هذه المقامات مقاماتٌ مِنْ نوعها تنتهي إلى بضْعٍ ومائة مقام كلُّها منازلُ لأهل الله

وخاصّته – وبها ترتفع منازلهم في الآخرة وهم أقربهم مجلِسًا من النبي عليه السلام في الآخرة ومِنْ

هنا أهمية السلوك ما دُمت في الدنيا فإنه عليه السلام قال : " أقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسِنكم

أخلاقا "أحسَنُهم أخلاقا أحسَنُهم في مقام الإحسان - : فأمّا العلم اللَّدنى فيتعلق بالإلهيات ؛ وعلم الأنوار

الإلهية فهو بما يَخُصُّ الملأ الأعلى من قبْل وجود آدم عليه السلام ؛ وأما علم الجَمْعِ والتفرقة فيتعلق

باللَّوح المحفوظ وشؤونه ؛ وأما علم الكتابة الإلهية فما ناله أحدٌ من الأمم سوى علماءُ هذه الأمة ،

وتتنوَّع تجلياتُه في صُدورهم على ستة آلاف ومائتي نوعٍ تقريبا وكلُ منهم له نصيبٌ قليل أو كثير منها

وقد كان لعلماء الأمم السالفة نَفثات رُوحٍ في الرَّوْعِ أيْ في القلب ، وما كَمُلَ إلا لهذه الأمة – وهم

خواصّ أهل الله فيها الذين كَمَّلوا نفوسهم – وراثةً مِنْ نبيّها محمد عليه السلام – ومن هنا أهمية

سلوك النفس على سيرة ومنوال النفس المحمدية لا مجرد اقتداءٍ في العبادات أو اقتداء بالممثلين

والنجوم وإنما في سِرّ هذه العبادات والمعاملات الذي هو من سِرِّهِ عليه السلام الذي هم مِنْ سِرّ الوحي

الذي أُنزِل عليه وعليْنا فقال عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه : " مافاتكم أبوبكر بكثير صلاة ولا

صيام ولكن بسِرّ وَقَرَ في صدره " وهو سِرُّ التوحيد السَّاري في إمام هذه الأمة أبي بكر إلى من يليه

من سَلَفٍ وخَلَفٍ إلى يومنا هذا إلى يوم القيامة لم ينقطع ولله الحمد لحظة واحدة لأنه سِرُّ الذِّكْرِ الذي

هو سِرُّ السَّعادة ومحفوظٌ بحِفْظِ الذِّكْرِ لمّا قال تعالى : " إنا نحن نزلنا الذِّكر و إنا له لحافظون " -

والأكوانُ كلها آثارٌ لتقدير قُدرةِ القَهَّار – في سِرّ هذه الأكوان وهي النفس المحمدية التي على منوالها

يجب أن تقتدي النفوس الإنسانية وإلا فهي كالحيوانية فإن من فاته الإقتداء فاته الإهتداء وماحُرِموا

الوصول إلا بتضييعهم هذه الأصول – فقومٌ انحجبوا بالأثر عن المُؤَثِّر وقومٌ حَكموا بانعدام الأثر لوجود

عَيْن مَنْ له القَدَرُ وقومٌ شهدوا الأثر والمُؤَثِّر – على مراتبِ ومراحلِ سلوكِ النفس ، فإنها تَسْلُكُ في

نفسها كما أسلفنا سابقا وكذا تَسْلُكُ في الآفاق وهو ما سنذكره لاحقا إن شاء الله – ولم يَرَوْا بينهما

فَصْلًا كما أنه ليس بينهما وَصْلٌ ، فعشقوا الأثر وعلموا ألَّا إدراك بالبصر ، قُلْتُ شِعْرًا :

شهودُ الذَّات ليس له حدودٌ *** كذاك الوصفُ لو يَكُ ذا تعلّقْ
ويشبه ذا وذاك شهودَ فِعْلٍ *** بحَقٍّ مع شَرْعٍ ذا تحَقُّقْ
وليس يُنال ذاك سِوى بذِكركَ*** يكون به التَّحَقُّقُ والتَخَلُّقُ
ودُمْ جولانَ قلبٍ في طلاب *** لدَرك الكلّ وأثْبتْ ذا تشوّقْ

واعلم أيضا أن العبد إن كان بالله تعالى وأسمائه – بعد فَناء أمارة النفس والتخلُّق بأخلاق الرسول " وإنك لَعَلى خُلُقٍ عظيم"وتصبح هذه الآية مصداقُه لأنه مُقْتَدٍ بخيرالخَلْقِ خُلُقًا وهونفس التَّخلُّق بالأخلاق الإلهية لَمَّا يكون تعالى لك سمعًا وبصرًا – فإنه يكون كَوْنًا حقيقيًّا بفضل الله وآلائه ، وأمّا إذا كان بنفسه – وعاداتها الأمّارة بالسّوء أو اللّوّامة لِمَا فَاتَهَا – أو باسْمِهِ ورَسْمِهِ فإنه لا يكونُ بنفسه – كما زَعَمَ وظَنَّ – ولا يكونُ باسْمِهِ ورَسْمِهِ ، ومِنْ أيْنَ يكونُ العبدُ إذا لم يكنْ بربّه ومِنْ أين يَفْقِدِ إذا كان بِرَبّه لا بلُبِّهِ – فماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَ الله تعالى لوُجوده بنفسٍ أمَّارةٍ وماذا فَقَدَ مَنْ وَجَدَ الله تعالى لمَواتِ تلك النفس وهي بدايةُ حياةِ القلب الذي هو بيتُ الرَّبِّ – واعلمْ أنَّ الأمور الذَّوْقِية – مِنْ عُلومٍ ومَعارف ربانية تَحْصُل بشَرْطِ تحصيلِ السُّلوكِ بِكافَّةِ القوى الباطِنة وعلى رأسها النفس – لا يُفيد فيها التعبير إلا لِمَنْ ذاقَها – لأنّها تُرَى وتُسْمَع وتُشَمّ ولا تُقال أوْ توصف إلا بِضَرْبٍ ضئيلٍ من التَّفهيم الكلامي ، إذْ العلوم لا تُذاق إلا بعد أن تَنزِل مِنَ العقل إلى القلب الذي هو بيتُ الرب حيثُ يعالجها بربّه لابنفْسِهِ أوعقله ، إذْ حَضْرَةُ القلب هي حضرةُ الرَّبِّ في كلِّ إنسانٍ هُناك تُعالَجُ مقامات الإحسان إذْ القلبُ هو مَحَلُّ الرُّؤية الإلهية مِنْ وإلَى ، كما في حديثِ أُعبد الله كأنك تراه – ومَنْ ذاقها لا يحتاج إلى مُعَبِّرٍ إذْ لا يفيد فيها التَّعبير ولوْ ضَرَبْتَ لها كُلَّ مَثَلٍ – تمامًا كما لا يُؤمِن الكثيرُ من الكفار ولو جاءهم الرّسولُ لهم بكلّ آيةٍ فهُمْ عالقون في النّفس الأمّارة لا يَرْتَقون ومن هنا خطرُوضرورةُ السُّلوك الصَّحيح الذي نتحدث عنه لا بلْ إنّ الإيمان لا يَصِحُّ إلا بالإسلام والإسلام لا يَصِحُّ إلا بالسُّلوك على عوالِمِ مقام الإحسان – لكنّك بمجرّد ما تَذوقها تَعْرفها – فمَنِ ذاقَ عرف ومَنْ عَرف اعْتَرَف - وتُدرك أنَّ كلَّ ما يُقالُ عنه هو مِثالٌ للشَّيْءِ لا الشَّيْءُ نفسه ، قلتُ شِعْرًا :

وَذاكِرٌ شهد نفسَه انتخب *** مَنْ عَرفَ النَّفْسَ فَقَدْ عَرفَ رَبّ

فهذه النفس هي أرْضُ الله الواسعة في خليفته وهو الإنسان فهي أرْضُ المحققين لأن بها تظهر حقائق الأشياء على ماهي عليه ، وهي أرْضُ العَظَمَةِ ففيها ظهرتْ عظمةُ الحَقِّ لَمَّا كان كَنْزًا فأَحَبَّ تعالى أنْ يُعْرَفَ – فهذا الكَوْنُ هو إنسانٌ صغيرٌ والإنسانُ بنفْسِهِ هو عالَمٌ كبيرٌ - ، كما قيل :

وتزعُمُ أنك جرمٌ صغيرٌ *** وفيك انْطَوى العالَمُ الأكبر

اعلمْ أنَّكَ إذا أدَمْتَ الذِّكْرَ والفِكْرَ – كما تَبَيَّنَ في السُّلوك – في نفسك شاهدتَ هذا العالَمَ كلَّهُ مِنْ نَفْسِكَ

، لكنْ ذلك لا يكون حتّى يَمْتَزجَ ذِكْرُ الله تعالى بدَمِكَ ولحمك – انْمِزَاجَ الغيب بالشَّهادة ، ونفسُكَ قَلْبًا

وبَرْزَخًا بينهما كما يُتَبَيَّنُ مِنَ السُّلوكِ – ويَكونُ به سَيْرُ نَفْسِكَ :

ويكملُ الشُّهود عِنْدَ الحَرَكاتِ *** واللَّحظات كُلِّهَا والسَّكَنَاتِ ...اهـ مِنْ كلامه رحمه الله ؛

ثُمَّ قالتْ : [والحَقُّ يُطْلَقُ على مجموعِ الوُجود ؛ ومجموعُ الوُجود اسمُ الهُويَّة الذَّاتِية الإلهية وهي تَستهلِكُ حقائقَ الصِّفات والأسماء المُتميّزة ، وقَدْ كان الشَّاهِدُ في حُكْمِ هذا الشُّهودِ مُسْتَوْدَعًا في مِرْآةِ الوُجودِ الحقيقيّة الّتي هي نورٌ على الإطلاق وهذا مَحَلُّ الكاملِ] في مقامِ النّفس الكاملة [وإنْ اخْتَلَفتْ مَحَالُّهُ الّتي تَقْتَضِي الشُّهودَ أيْ بحسب المَظاهِرِ والأسماءِ والصِّفاتِ ، فلَمَّا كان في هذا الشُّهود مُسْتَوْدَعًا في مَحَلّ التَّمييز الّذي عَبَّرْنا عنه بالمِرْآةِ عَبَّرَ عنه الشَّاهِدُ بالنُّور وأرادَ به مَحَلَّ التَّمْييز ونِسْبَتِهِ إلى الوُجودِ ، لأن مَحَلَّ الشَّاهِدِ هو مِرْآةٌ يَنْظُرُ اللهُ تعالى فيها صورَتَه على ما يَليقُ بجَلالِهِ فيحْصُلُ انْطِباعٌ وهو صورةُ هَذَا الكامل] النَّفْسَ [فهذه المِرْآةُ هي مَحَلُّهُ ، وليس هذا كائنٌ في هذا الشُّهودِ ؛ إذْ ليس فيه سوى ذاتٌ مُطْلَقَةٌ عالِمَةٌ] مُحِيطَةٌ [لكنْ هذا لا يكون إلا لِمَنْ سَبَقَ له ذلك الشُّهودُ وَصفًا ، فلا يَرَ العبدُ هنا شيئًا لأجل عَدَمِ الكَثْرَةِ] الطَّبيعيَّة والطَّبْعِيَّة التي أَلِفَتْها النَّفْسُ قبل هذا المستوى[في هذا الشُّهود ؛ وأيضًا إنْ رأى الأشياءَ] لَمَّا يَرْجِعُ لِلْوَاحِدِيَّة القَلْبِيَّةِ لَمَّا يَتَقَلَّبُ في شُؤونِ دُنْياهُ المُتَكَثِّرَةِ ، ولعلَّكَ لاحظْتَ أنَّ الشُّهودَ الّذي ذَكَرَتْهُ هذه الشَّيْخَةُ لا يَصِحُّ إلّا بِقَلْبٍ حَيٍّ غايَةً في الحياة

بَعْدَ مَوَاتِ النفس ثمّ عَوْدَتُهَا بالحياة مِنْ وَراءِ بَرْزَخٍ وقَبْرِ القلب الّذي كان مَيِّتًا بشَهَواتٍ وشُبُهاتٍ

النفس الأمّارة ، وهُنا هذه المَرَّة حَياةُ افْتِتاحٍ وامْتِدَادٍ لحياةِ القلب [لَمْ يَرَ رُؤيةً : أيْ لا يَرى المعلوماتِ

بشُهودٍ مُقيَّدٍ] وذلك هو خلاصةُ سَيْرِ القلب الواحِديّ عَبْرَ نِقاط النفس الستة مِنَ الأمّارة إلى الكاملة

وكلُّ مَقامٍ هو أحَدِيٌّ بالنسبة للّذي قَبْلَهُ وواحِديٌّ بالنسبة للّذي بَعْدَهُ [وهَهُنا شاهِدٌ لمشهودٍ وصامِتٌ

غيرُ ناطِقٍ بلا حِجاب ولا مَحْجوب ، فلم يَبْقَ إلّا البَقاءُ وفَنِيَ الفَنَاءُ عَن الفَنَاءِ بـ " أنَا "] أيْ فَناءُ آخِرِ
عِرْقِ المُنازَعَةِ في النفس المَرْضِيَّةِ وآخِرُ دَعاوي الرُّبوبيّةِ والأنانيَّةِ على مَشارِفِ النفس الكاملة ، وإنْ

كانَ ثمّت بَقِيَّة اختباراتٍ أخرى تُطَرّقُ النفسَ الكاملة تَصْحَبُ صاحبَها في مقاماتِ القُرْبِ الأسْنى كمَا

سنُفَصّلُهُ عند حديثنا عن (المُضَلَّع الثالث) مِنْ مَوادّ برنامجِ التّوحيد وهو سلوكُ النفس في تحقيقِ
مَعارفِ

الفَرْدَانية ، [وهنا تَرى ضَرْبًا مِنْ جَمْعِ الجَمْعِ إذْ تَتَفَرَّقُ المَمْحُوَّاتِ بشَرْطِ ظُهورِ الأحَدِيَّةِ علَيْها ، وإذا

تَمَكَّنَتْ هذه الأحديَّةُ وصارتْ في الشَّاهِدِ وَصْفًا عادَتْ بَقاءً واتَّصَفَ الشَّاهِدُ به ، وهذا البَقاءُ] بَقاءُ

الأخلاق المحمودة وهي الأخلاق الإلهية بعد فَناءِ الأخلاق المذمومة مِنْ مَوادّ الخواطر الشيطانية

والنفسانية فتتَخلَّقُ بها في كلِّ عبادةٍ مع الحَقِّ ومعاملةٍ مع الخَلْقِ ،والجديدُ هنا هو أنّها أخلاقٌ ثابتةٌ في

أغلبها بعد أنْ كانتْ تَثْبُتُ وتزول في المقامات السابقة وذلك معنى قولنا سابقًا أنّه على قدر النّفي في

الكلمة الشريفة يكون الإثبات والثَّبَاتُ : "يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثّابت في الحياة الدنيا وفي

الآخرة " [هو المُفْنِي للفَنَاءِ] ومِنْ جُملةِ ذلك كما ذكرنا فَناءُ بَقايا النّفس الأمّارة بالسّوء تحت سُلطانِ

اسمِه تعالى الباقي والوارِث ، فيعودُ القلبُ وارِثًا عَنْ قلبِ النبي عليه السلام لَمَّا وَرِثَتْ نَفْسُ صاحِبِهِ

أخلاقَه كما ذكرناه فلا تَبْقَ نفسٌ ولا آفاقٌ تُشَوّشُ على القلب استقبالَ وارداتِ الحقّ تعالى عليه بواسطةِ

المعادلة : " مِنه وبِهِ وإليه " تفصيلًا بلا حاجةٍ لإجْمالٍ [يُفْنِي كلَّ فَناءٍ مُرادٍ لإسْمِهِ ، فيحصُل مِنْ كُلّ

هذا دَوامُ واحِدٍ صَمدانِيّ ، ذاتيّ الصِّفاتِ بَرِيءٍ مِنَ الخَلْقِ] وعَوائِدِهِمْ الأمّارة واللّوّامة [لَكِنْ يَشْهَدُ في

هذا الواحِدِ خُصُوصًا مَا] وهو خُصوصُ نفسِه الكامِلة المُكَمَّلَةِ بنَفْسِ النَّبِيِّ الأَكْمَلِ وهُناك مَشْهَدُ نورِ

الأحَدِيَّةِ حيثُ يَطْلُعُ الفَجْرُ الصَّادِقُ لنَجْمِ العُبودِيَّةِ [فإنَّ الهُوِيَّةِ تَسْتَهْلِكُ حقيقةَ الشَّاهِدِ] طَوْعًا ،

وحينها

يَذوقُ طعم العبودية طَوْعًا لا كَرْهًا والذي كان مِنْ إكراهاتِ شَهَوَاتِ النفس سابقًا [ولابدّ مِنْ نور

التَّمْييز، فهذا الشُّهودُ ليس في مكانٍ معروفٍ في الدُّنيا ولا في حَضْرَةٍ مَعلومةٍ فتُتَعَلَّمُ ولا في اسْمٍ ولا

في صِفَةٍ ولا في حَدٍّ ، وإنّما هو في النُّور وهناك حيثُ المَشْهَدُ الذي يَشْتَمِلُ على مجموعِ الوُجودِ المُقَيَّدِ

، وهو أيضًا لا يَخْلُو منه مَحَلٌّ تَنْطَلِقُ عليه الشَّيْئِيَّةُ] والإسْمِيَّةُ لا الرَّسْمِيَّةُ [والنُّورُ المَذْكورُهو المُحِيطُ

بالعَمَاءِ الذي ينشأ عنه العرش الذي كان على الماء ؛ والسَّيْلُ الذي أُرْسِلَ فيها خِطَابُ] العبوديَّةِ

والتَّكْليفِ إلى العبد يَوْمَ أَخْذِ المِيثاق في الأَزَلِ [الشَّاهِدِ في حال هذا الخَلْعِ على المَعْنِيَّاتِ بالنُّور

الرَّبَّاني مُريدًا للدُّخول في الصُّورةِ الّتي كانتْ قَبْلَ الأُوَلِيَةِ] وهو ما ذكرناه سابقًا حول أصل الإستعداد

البَشَري لِقبولِ المعارفِ الإلهية وجُعِلَتْ عوالِمُ الصُّوَرِ والخِلافَةِ المَادِّيَّةِ ذَريعةً لهذه المعرفة إذْ هي أصلُ

التَّدبيرِ لأمورِ السَّعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ مَعًا [لأنَّ هذا الشُّهودُ لا يَحْصُلُ إلّا هناكَ ، ويَتَيَقَّنُ الشَّاهِدُ أنه

قَبلَ الوُجودَ ، وهذا قَبْلَ يَوْمِ " أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ "] فهذه الأحَدِيَّةُ لَمَّا تُشْرِقُ أثناءَ

السُّلوك بنور الوَحْيَيْنِ الأزلِيِيْن الأَبَدِيَيْنِ في سَمَاءِ القلب الوَاحِدِيِّ المُوَحِّدِ المُتَنَوِّرِ بنورِ الذِّكْرِ الذي هو

مجموعُ الوَحْيِ إنْ صادَفَ صِحَّةً وحُضُورًا في القلب فَيَصِلُ لِلنّورِ المَذْكورِ " اللهُ نُورُ " أيْ بعد تحقيقه

لآخِرِ سُلوكِ النَّفسِ الذي بدأ بالتنبيه والتشريف وانتهى بالتكليف والتعريف ، إذْ هو تعالى نورٌ يُضاءُ

تحته ظلماتِ السُّلوك وخَفايا الطَّريق ، وهذا التَّعريف الذي يَحْصُلُ للنّفس الكاملة هو التَّعريف الذي

عَرَفَهُ ربُّنا تعالى قَبْلَ خَلْقِهِ هذا الإنسان فَأَحَبَّ تعالى أنْ يُعْرَفَ وأَحَبَّ للإنسان أنْ يَعْرِفَ

، ولأجلِ هذا التَّعريفِ أَمَرَهُ بالعبادات ووَضَعَ له الحُدودَ عُمومًا وأَمَرَهُ بطَيِّ نفسِه ومراحِلِها إليه

خُصوصًا ، فليس ثَمّت غير النفس بها يَحْصُلُ هذا التَّعْرِيفُ الوَاصِلُ بين ماهو إنسانيٌّ وماهو إلـهيٌّ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ [وهناك تَسْتَقِرُّ الأَحَدِيَّةُ التى تُمَيِّزُ الأسماءَ وتَجعلها واحِدًا واحِدًا] وهِيَ تأويلٌ للأسماء التي عَلَّمَهَا آدمَ عليه السلام لَمَّا خَلَقَهُ على صورتِه كما ذكرنا ، وكُلٌّ فَهِمَهَا وعَرَفَ تأويلَها على مُقْتَضَى حاجَةٍ في نفسه ، قَدْ تكونُ بِنورِ الشَّرْعِ وقَدْ تَكونُ بِظُلمةِ الطَّبْعِ

[وهِيَ فِى الظَّاهِرِ لا تُطْلَقُ على

آحَادِ الأسماءِ الأحديَّةِ ، لأنَّ كُلَّ مَا لَهُ مِثْلُ مَعْنًى وصورةٍ لا يجوز إطلاق هذا الإسم عليه ، وإنّما أَطْلَقَ هذا] العبدُ [الشَّاهِدُ الأَحَدِيَّةَ على هذا الإسمِ] وهو اسمُهُ تعالى : الرَّبُّ [لأنّه إذا تَفَرَّدَ بشَرْطِ غَيْبَةِ الأسماءِ الباقِيَةِ كان فيه جميعُ الأسماء فانِيَةً في الظُّهور باقيةً فى المَعْنَى ، ولا معنى للأحدية إلا بالإسْمِ فيَفْنَى التَّمْيِيزُ وتَبْقَى المَعانى ويَظْهَرُ مُنْفَرِدًا، فإنَّ حقيقةَ العَدَمِ والوُجُودِ لا تَظْهَرُ إلا فى شُهودٍ ؛ وهذا هو تَمَكُّنُ طُلوعِ نَجْمِ العُبودية] التي لأجْلِها سُمِّيَتْ خِلافةً في الكون ولأجلها كُلِّفَ الإنسانُ لَمّا أُهْبِطَ إلى الأرض ، ولكنّه هبوطٌ وتَنَزُّلٌ صعبٌ لأنه مازال فيه تَعَلُّقٌ بربوبيَّةٍ خَفِيَّةٍ سابِقةٍ هي حَاجَةٌ في كُلِّ نَفْسٍ تُريدُ أنْ تَقْضِيَهَا كما ذكرناه في النفس الأمّارة ، وهنا بعد أن كَمُلَتْ نفْسُ صاحبِنا عَرَفَ غرض هذا الإنزالِ والخِلافة الذي هو تَخْليصُ عبوديَّةِ الشريعة مِنْ بَيْنِ فَرْثِ ودَمِ نُفوسِ رُبوبِيَّةِ الطَّبيعةِ وذلك بِكَشْفِ سِتارِ الواحِديَّةِ عَنْ سِرِّ الأحدية والفردانية،لا رُبوبيةِ الرَّبِّ الأصليَّةِ فهي رُبوبِيَّةُ وَهْمٍ في النفس حتى تدركها إذْ الله تعالى دائمًا بخلافها وبِغيرِ ما تُصَوِّرُهُ النفسُ بِزَعْمِها الكَمالَ لصاحبها ، وهذا هو الذي جَعَلَ أصحابَ النفس الأمّارة واللّوّامة يُحْجَبُوا بالمَبْنى عن المَعْنى وجَعَلَ أصحاب النفس المطمئنّة والرّاضية والمَرْضِيَّة يُحْجَبوا بالمَعْنى عن المَعْنِيِّ ، فبَقِيَ المَعْنِيُّ وهو ما أسميناه بالأحدية مِنْ نصيبِ أصحابِ النفس الكاملة ، حيثُ [الأَلِفُ صامِتٌ والحروفُ نَواطِقُ فيه] إذْ مُحالٌ أنْ يَنْطَبِعَ عَنِ الصّورة الواحدة صورتان ، والكمالُ ليس فيه تفاضلٌ لأنّ المُقابِلَ واحدٌ فلا ينبغي إلا لواحدٍ وهو الواحدُ الأحَدُ ؛

وهنا ينتقل صاحب هذه النفس الكاملة من الأحدية إلى شهود الفردانية كما بدأ في أوّل سَيْرِهِ بشُهودِ الوحدانية ، وهذه الفردانية خلاصَتُها مِنْ اسْمِهِ تعالى النُّورُ وعَنِ هذه النُّورانِية نَشَأَ اسْتِدارَةُ الزَّمانِ عِنْدَ عَطْفِ الأَزَلِ والأَوَّلِ والباطِن على الأَبَدِ والآخِرِ والظَّاهِرِ [فجَعَلَ تعالى هذا النُّورَ مَحَلَّ المُخالِفين والمُتَنَاسين لْلعَهْدِ الأَوَّل في يَوْمِ " أَلَسْتُ بِرَبّكُمْ " ، لأنَّ الحُجَّةَ لا تقوم إلا بذِكْرالعَهْدِ] والإعتراف سَيّدُ الأَدِلَّة [وهذه الفردانية تُقيمُ الحُجَّةَ على كلّ مُشْرِكٍ وما أَشْرَكَ ، وتَتجلّى في صورةِ عُلومِ البَشَر] دُنيوية ودينية [إذْ العِلْمُ بعَيْنِهِ هو تذكيرٌ بالعهد المَأخوذِ بالأَزَل ومِنْ هذا التَّجَلِّي تَظْهَرُ حقيقةُ النُّور المُمَيّز بَيْنَ الشَّاهِدِ والمَشْهودِ حسب تَفاضُلِ الرُّؤَى] فكان الإحسانُ أنْ تعبد الله كأنك تراه ولنْ تراه إلا على قدر سلوكك من أجل إثباتِ أَهْلِيَتِكَ لهذه الرؤية الربانية ، ولن تراه إلا بِنُورٍ ، فإنْ كان بِغَيْرِ نُورِهِ تعالى أو بِنُورٍمشوّبٍ بِغَيْرِهِ مِنْ ظُلمةِ الطَّبْع لَمْ يَكُنْ لَكَ أنْ تراه حينها ويبقى لك فقط حَقٌّ " فإنّه يراك " [فَلَيْسَ أظْهَرُ مِنَ الآخِرِ ولا أَخْفَى مِنَ الأَوَّل ، وهذا النُّورُ هو حَدُّ جَرَيان هذا الشَّاهِدِ وهو الُمشْتَرَكُ بينهما...] اهـ كلامها رحمها الله تعالى ؛ تَأَمَّلْ تَهْتَدِ .

لذلك ربُّنا يَتجلّى للعباد يوم القيامة بالصّورة التي كان يَهْتِفُ العابدُ بها في الدنيا ويَعْتَقِدُهَا ، وهي له في الدنيا اختبارًا وفي الآخرة إِخْبارًا لمن فاتته إخباراتُ الوَحْيِ النبوي والسُّلوكُ طِبْقَ تلك الإخبارات بالنفس في الدنيا ، فكان الوحي وهو الخَبَرُ، بين إخبارٍ في الآخرة واختبارٍ في الدّنيا . وقد ذكرنا سابقا كيف نتخلص من أخبار النفس الزائفة وتحقيقها بالأخبار الصادقة وهذا بالسلوك عند أهله وذكرنا فكّ شفرة برنامج النفس الباطل ورموز الإنتقال مِنْ نفسٍ لأُخرى ومِنْ برنامجٍ لآخَرَ أصَحَّ منه ، وسنُواصل بإذنه تعالى في هذا الأمر في إطار مُكاشَفَةِ ومُناصَحَةِ النفس ؛ إذ هذه النفس هِيَ نارُ الله المُوقَدَة التي تَطَّلِعُ على القلوب والأفئدة ، وبدون هذه النَّارِيَةِ لَمْ يتأهَّلْ الإنسانُ لحَمْلِ أمانةِ الوُصول

إلى الله تعالى بالإخلاص وهي الأمانةُ التي أبَتْ السمواتُ والأرضُ والجبالُ حَمْلَهَا فبقيت وديعةً على

عنق كلِّ إنسانٍ ، ولأجل ذلك ماكُلِّفَ الصبيُّ والمجنونُ ولا النّائمُ عنْ هذا الأمر الجليل ولا الحيوانُ .

فالذَّواتُ تَفاضَلَتْ بالنفس،والنفوسُ تفاضَلَتْ بالقلب الذي يَسْلُكُ بين مراحلها ولم يَرْضَ أوْ يَقْبَعْ في أوَّلِ

درجاتها لأنّ درجاتها الأولى هي نَفْسُ درجاتِ الحيوان تقريبًا فيَقْنَع بدائرةِ الرَّاحة . إذْ هذا الجمودُ على

"دائرة الراحة" لا يُمَيِّزُ صاحبَه عن الحيوان لَمَّا قال تعالى : " يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنّارُمَثْوًى لهم " إذ الإنسان ما أُنْزِلَ وكُلِّفَ إلا لأجل تطبيق البرنامج الإلهي الذي صَمَّمَهُ ربنا تعالى لسعادتنا ، وهذا "البرنامج الإلهي مُبَرمجٌ على نفْسِ البرنامج الإنساني الموجود في صُلْبِ نَفْسِ كلِّ إنسانٍ" عكس الحيوان الذي نفسُه دون نفسِ الإنسان في استيعاب البرنامج الإلهي في النفس و الآفاق ، إذ برنامجُ النفس الحيوانية مادّتُها أكلٌ وشربٌ ونومٌ وتزاوجٌ وينتهي الأمر، ولذلك لم يُوحَ إليه برفيعِ الوحي الذي أوحِيَ به للإنسان ، وليس هذا البرنامج الذي أُؤْتُمِنَ عليه الإنسانُ سوى نفسُه التي تَمَيَّزَ بها عن الحيوان بما هي الفاصِلُ بين الواقِعِ الإلهي وبين الواقِعِ الطَّبيعي والحيواني ، ذلك أنّ الإنسان عالَمٌ كبير والعالَمُ إنسانٌ صغيرٌ كما قيل ، ولأنّ النفس تعَلقت أوّلًا بالبدن فلِتدبيرِ حاجاته التي يَتقوّى بها على العبادة ، وأثناء انشغالها بالتدبير الحسّي تَناستْ ماتُدَبّرُ لأجله أيْ الحاجات الروحية لصاحبها ، أوْ لَمْ تُواصِلْ التركيز على الروح الأصلية في البدن والتي لولاها لما كان لها ولصاحبها وُجودٌ ، إذْ الأصلُ في البَدَنِ قُبول الصُّوَرِ والأشكال وهذا عملُ الحيوان أيضًا ، كما يَقْبَلُ أيضًا العُروجَ والدُّروجَ بين عوالِمِ الغيب أُفُقًا وعمودًا وهذا عملُ الإنسان ، فالبدن هو المحتاج إلى النفس وليس العكس إذْ ليس للعِلْمِ أثر في المعلوم ولكن العكس ، إذْ المعلومُ هو مَنْ يُعْطيهِ مِنْ نفسه ما هو عليه في عَيْنِهِ .

إنّ فـي بـاطنِ نفسِ أيِّ إنسـانٍ قـوّةَ " كُـنْ " التـي لـيس لـه منهـا فـي ظـاهِره إلا الفعل المُضـادّ وبـذلك تميّـز عـن الجمـاد أيضـا ، وقـوّةُ " كـُنْ " هـذه نُسِخَتْ فـي قـوّةِ البسملة فكـان النبـي عليـه السـلام يُبسمل فـي كـل شـيء وقبـل الشـروع فـي أي شـيء ، وسـبب ذلـك أيضـا أن الإنسـان وُعِـدَ وتوُعِّـدَ بشـيءٍ أكبـر مـن نفسـه ولا بـدّ أن يبلغـه وذلـك بالسـلوك علـى بسـاط الـنفس كمـا ذكرنـاه ، أو بـالموت علـى سـوء خاتمـة " وأنّ إلـى ربّـك المُنتهـى " فالحـذر، ثـم اعلـم أن مـن أخبـار صـاحب هـذه الـنفس وهـو الإنسـان أنـه إذا سـنح لـه شـيء مـن الرجـاء أذلّـه الطمـع وإن هـاج بـه الطمـع أهلكـه الحـرص وإن ملكـه اليـأس قتلـه الأسـف وإن عـرض لـه الغضـب اشـتدّ بـه الغـيظ وإن أسـعده الرضـا نسـي الـتحفّظ والتثبّـت وإن نالـه الخـوف شـغله الحـذر وإن اتّسـع لـه الأمـر اسـتلَبته الغفلـة وإن أفـاد مـالًا أطْغـاه الغِنـى وإن أصـابته مصـيبة فَضَـحَهُ الجـزع وإن عضّـته الفاقـة شـغله الـبلاء وإن جَهـده الجـوع قعـد بـه الضّـعف وإن أفـرط بـه الشّـبع كَظَّتْـهُ التُّخمـة ، فكـلّ تقصـيرٍ بـه مُضِـرٌّ وكـلُّ إفـراطٍ لـه مُفْسِـدٌ ، هـذا هـو الإنسـان ، أمـا نفسـه التـي نُدنـدِنُ حولهـا فحدِّثْ عنهـا ولا حـرج ، فـإن فيهـا كِبـر إبلـيس وحسـد قابيـل وعُتـوّ عـاد وطُغيـان ثمـود وجـراءة نمـرود واسـتطالة فرعـون وبَغـي قـارون ووقاحـة هامـان وحِيَـل أصـحاب السَّـبت وتمـرّد الوليـد بـن المغيـرة وجَهـل أبـي جهـل ، ومـن غرائـب الإنسـان أسـوقها لـك عبـرةً أيُّهـا الإنسـان أنـه إذا فـرح استحسـن القبـيح واستسْـهَلَ الصَّـعب وإذا غضـب اسـتقبح الحَسـن واستصـعب السَّـهل ، ولنعتبـرْ بحـديث نبيّنـا عليـه السـلام إذْ يقـول كمـا رواه الحـاكم فـي المسـتدرك : [مسـكينٌ ابـن آدم مكتـوم الأجـل مكنـون العلـل محفـوظ العمـل ، تُؤلمـه البقّـة وتقتلـه الشّـرقة وتنتنـه العرقـة] وبقولـه تعـالى : " إنّ الإنسـان خُلِـقَ هلوعًـا إذا مسّـه الشّـرّ جزوعًـا وإذا مسّـه الخيـر منوعًـا إلاّ المُصـلّين الّـذين هـم فـي صـلاتهم دائمـون " فمـا الـذي مَيَّـزَ المُصـلّين عـن غيـرهم حتـى يسـتثنيهم ربنـا تعـالى مـن هـذه المتناقضـات التـي فـي كـلِّ إنسـانٍ ؟ إنهـا نفوسـهم لا غيـر، فـإنَّ الشـريعة تتنـزل وحيًـا وروحًـا فـي كـلِّ آنٍ علـى هـذه النفـوس السـالكة بالشَّـرع كمـا نَـزَلَ الـوحيُ شَـرْعًا فـي آنٍ واحـدٍ علـى قلـبِ النَّبـيِّ الأمـين بـالقَطْعِ " ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلينَ وقَليلٌ مِنَ الآخِرينَ " .

*** المُستوى الثاني من شرح أطوار النفس :

- حسب كلامِ وخِبْرَةِ الشيخ الشَّبْرَاوي :

وحتـى نَسـتزيدك أيهـا القـارئ الكـريم فهْمًـا وتوضـيحا ننقـل لـك مـن كـلامِ شـيخٍ عنـده خبـرةٌ فـي سُـلوك الـنفس وتَسـليكِ نفـوسِ الطُّـلاّب هـو الشّـيخ #**عبـد الخـالق الشَّـبْرَاوِي** رحمـه الله ، يُلخّـص لنـا كـلَّ مـا ذكرنـاه عـن هـذه الـنفس التـي جَمَعَـتْ بـين الطَّاقـة والفاقَـة ، وعـن سَـيْرِها وسُـلوكها فـي مراتـبِ التَّوحيـد ، مَـعَ شَـرْحِنا لكلامـه بمـا فَهِمْنَـا مَـعَ بِضـاعتنا الضَّـعيفة مِـنْ أمْثالنـا ، فقـال رحمـه الله تعـالى : [إن الـنفس الناطقـة هـي جـوهرٌ مُجَـرَّدٌ عـن المـادّة فـي ذاتـه مُقـارِنٌ لهـا فـي أفعالـه وهـذه الـنفس هـي التـي تُسـمى بالأمّـارة واللّوّامـة والمطمئنّـة ، فكلمـا اتَّصَـفَتْ بصـفاتٍ سُـميت لأجـلِ اتّصـافها بهـا لإسـمٍ مـنْ هـذه الأسـماء ، فـإنْ صـادَقَتْ الشَّـهوات " وهـي البُخارالـذي يُحصّـل الحيـاة والحِـسّ والحركـة الإراديـة للبـدن لَمّـا يُشـرِق علـى ظـاهِرِ البـدن تحصُـل اليقظـة وإنْ أشـرق علـى باطِنـه حصـل النـوم وإنْ انقطـع إشـراقُه بالكليـة حصـل المـوت " وصـارتْ تحـت حُكمهـا سُـمّيَتْ أمّـارةً ، وإن سـكنت تحـت تكـاليف وأوامـر الشـرع وأذْعَنَتْ اتّباعَ الحقّ رغم بَقِيَّةٍ للشهواتِ فيها سُمِّيَتْ لَوّامةً ،

فـإنْ زال هـذا الميـل وقَوِيـت علـى معارضـةِ الـنفس الشـهوانية و زاد ميلُهـا إلـى عـالَمِ القُـدُس وتلقَّـتْ بعـد ذلـك الإلهامـات الربانيـة أكثـر مـن الشـيطانية سُـمّيَتْ مُلهمـةً ، فـإنْ سَـكَنَ اضـطرابُها ولـم يَبْـقَ للـنفس الشـهوانية حُكْـمٌ أصـلًا ونسـيت الشّـهوات بالكُليـة] أيْ حتـى الشـهوات الدينيـة كإدعائهـا تلـذُّذها بالنوافـل والأحـوال والمقامـات وأعمـال البـرّ ولذائـذ العلـوم والمعـارف الإلهيـة وغيـر ذلـك [سُـمِّيَتْ مُطمئِنّـةً ، فـإنْ تَرَقَّـتْ مـن هـذا وسَـقطتْ المقامـاتُ مـن عينِهـا وفَنِيَـتْ وأخْلصـت عـن جميـع مُراداتهـا] ظـاهرًا وباطنًـا وبعـد أن تَفْنـى كـلُّ الشـهوات وتبقـى شـهوةُ الـذِّكْرِ وحـدها [سُـمّيَتْ راضـيةً] ، نفهـم مـن كـلام الشـيخ لحـدّ الآن أنَّ الـنفس الأمّـارة عالمُهـا الشـهوات والشـبهات معًـا وأن الـنفس اللوامـة انتهـت عـنْ أصـول الشـبهات ولهـا بَقِيَّـةٌ مِـنَ الشـهوات المادّيـة والمعنويـة معًـا ثـم فـي المطمئنـة يبقـى لهـا نـزوعٌ نحـو الشـهوات لكـنْ شـهواتٌ عِلْمِيَّـةٌ ومعنويـة مِـنْ آثـارِ سـلوكِ مقامـاتٍ سـابقةٍ كالزهـد والتوبـة والتوكـل ونحـو ذلـك إنْ لـم يُتـابِعْ أوامـرَ الشـيخ المُشـرِف عليـه ، وفـي الراضـية والمرضـية لا يبقـى لهـا شـهوةٌ

أصــلًا ممّــا كانــت تعرفــه مــن قبــل ولكــنْ يكــون لهــا نــزوعٌ نحــو ذنــوبٍ جديــدة وغيــوبٍ عديــدةٍ هــي أيضــا شــهواتٌ لــم تكــن تعلَمهــا ، وبالمواظبــة علــى اتبــاع نصــائح الشــيخ ورُســوخه فــي فُتــوح مســالِك و مقامــاتِ الأحديــة الــذي ذكرنــاه ســابقا " ولا يُفهَــم إلا بالســلوك التطبيقــي " يتجــاوزُ صــاحبُها هــذه العقبــات إلــى ماشــاء الله لــه ، فكــلُّ حــالٍ يصــبح مقامًــا فــي المرحلــة النفســية المواليــة فتصــير الأحــوالُ الزائلــة مقامــاتٍ راســخة حســب تصــحيح الشــروط والأركــان كمــا يُبــيّن لــه شــيخُه ذلــك ، مِــنَ الــداخل فــي القلــب إلــى الخــارج فــي الجــوارح والبــدن بعــد رفــعِ تلــك القنــاة المُستعصــية التــي تمنــع مــرورَ إلهامــاتِ القلــب إلــى الجــوارح بيُسْــرٍ، أيْ فعــلٌ حــرّ تلقــائيّ فــي العبوديــة بــلا عــوج ولا تخلــيطٍ ، وهــذا كمــا قلنــاه بفضــل التــدريب النفســي علــى يــدِ أســتاذٍ وشــيخٍ مــاهرٍ زاوَلَ هــذه الأحــوال و خَبَــرَ هــذه الأهــوال ويفــرّق بــين وارداتِ الــرحمن ووَارداتِ الشــيطان وبــين الأحــوال والمقامــات مَتــى ترسُــخ وكيــف يتجنــب اعوجــاج فَــتْحِ تلــك القنــاة بــين القلــب والجــوارح ، [فــإنْ صــارت نفسًــا مرضــيَّةً عنــد الحــقّ والخَلْــقِ ورجَــعَ صــاحبُها إلــى العبــاد داعيًــا لهــم إلــى ربّهــم وإرشــادهم وتكمــيلهم سُــمّيَتْ كاملــةً ؛ ثــم اعلــم أن هــذا الجَــوهر الــذي ذكرنــاه بــأن اســمَه الــنفس الناطِقــة لــه أســماءٌ أُخَــرُ] تتغيــر علــى طــولِ الســلوك ، كمــا تَرَقَّــى مِــنْ معنًــى ترقَّــى إلــى مَبنًــى آخَــرَ يُســمَّى بــه ذلــك المعنــى الــذي حصــل بالســلوك ، والمبنــى الجديــدُ يُشــرِف علــى معنًــى جديــدٍ [فتــارةً يُقــال لــه القلــب الــذي هــو حقيقــة كــلِّ إنســانٍ ، وهــو جــوهرُه و لــه ظــاهرٌ هــو الــنفس الشــهوانية ولــه بــاطنٌ هــو مــا يُســمَّى بــالرُّوح] هــو جنــدُ القلــب كمــا أن الــنفس الشــهوانية جُنْــدُها البــدنُ [وللــرُّوح بــاطنٌ هــو الصَّــدْرُ، والفُــؤادَ ولــه بــاطنٌ هــو السِّــرُّ ولــه بــاطنٌ هــو الُّلــبُّ ثــمّ الأَخْفَــى] ولأجْــلِ هــذا التعــدُّد للقــوى الباطنــة فــي الــذات البشــرية وإنْ كــان منبعُهــا واحــدٌ هــو مــا يُســمَّى بــالنفس ، تَعَــدَّدَتْ الطُّــرُقُ إلــى الله تعــالى وتنوعَّــتْ العبــادات والقُربــات وكانــت شــرائعُ الأنبيــاء يَنسَــخُ بعضُــها بعضًــا وإنْ تنوّعــت مشــاهدُ هــذه الشــرائع عــن الحقيقيــة التوحيديــة الكبــرى لأنَّ طُــرُقَ النهايــة تختلــف بــاختلاف البدايــة ولكــنْ انحصــرت واختُتِمَــتْ بــلا زيــادةٍ أو نقصــانٍ فــي الــثَّلاثِ الشــهيرة : إســلامٌ وإيمــانٌ وإحســانٌ ، عكــس الأديــانِ الأخــرى أو المَــذاهب والأحــزاب الشَّــتّى التــي تبــدأُ أو تركّــزُ علــى جانــبٍ دون آخــر وتبقــى فيــه تُدنــدِن طــولَ عمرهــا وهــي تحسِــبُ أنهــا تــأتي بجديــدٍ بــلا ترقيــةٍ أو تنميــةٍ فــي الــنفس وإنْ كــان فيــه شــيءٌ مِــنَ التجديــد فــي الآفــاق ولكــن بــلا نفــسٍ زاكيــةٍ كمــا قــال تعــالى : " قــد أفلــح مــن تزكّــى وذكــر اســم ربــه فصلّــى بــل تــؤثرون الحيــاة الــدنيا والآخــرة خيــرٌ وأبقــى إن هــذا لفــي الصُّــحُف الأولــى صُــحُفِ إبــراهيم

وموسى " فتراهم حتى مِنْ بعضِ بني أمَّتِنا يعمل على جزءٍ من الذَّات تارةً بالظَّاهِرِ وتارةً بالباطِنِ فقط ، وتارةً بَيْن بَيْن ، ويشاركون في دوراتِ تطوير الذات ولكن يلزمهم عددٌ لا يُحصى من الدَّورات لأن كل دورةٍ تعملُ على جزءٍ فقط من الذّاتِ وتترُك الباقي للمُتدرِّب ، عكس الدورات التدريبية التي نتحدث عنها إذْ هي لا تنتهي بمجرّد فَضّ المجلس ولكنْ هناك متابعةٌ دقيقةٌ من الشيخ لتلاميذه واختباراتٌ وتدريباتٌ عسيرةٌ لا يصمد لها إلا الفحول من الرجال ، ولا يمكن أن نُبيح لك أيها القارئ الكريم بالدليل على ما نقول إلا إشاراتٍ سَتَراها مبثوثةً طيلة هذا الكتاب فانتبه ، فبعضُ من لا يعرفون تمامًا قانون السلوك كما وصفناه لإسعادِ هذه الذّات الإنسانية اتَّخذوا هذا السلوك ثقافةً أو مجرد بحوثٍ أكاديمية جافَّةٍ مادامتْ الأسُس مُشيَّدةً على قوانينِ هوَى أرضيةٍ وَضْعِيَّةٍ بلا شرائعِ القرأن ولا طَرائقِ السُّنَّةِ ولا حقائقَ السِّيرَةِ تُمْزَجُ في مَتْنٍ واحدٍ ، لا يُفهَمُ هذا المَتْنُ إلا على يدِ شيخٍ مِنْ أهلِ الذِّكْرِ كما فهمناه وليس بفَهْمِ دكاترةِ الجامعات وأصحابِ الندوات المغلقة ونحو ذلك ، فمَنْ فاتَه الإقتداء فاتَه الإهتداء ، ووالله ما أفلح مَنْ أفلح إلاّ بصحبة مَنْ أفلح بذلكَ يَحصُلُ الإقناع والإشباع والإمتاع ، فإنَّ الخلافة في أرضِ الدنيا هي خلافةٌ مؤقَّتَةٌ وشهواتها مؤقّتَةٌ ، و لا تتِمُّ إلا بالخلافة على أمانةِ النفس التي هي جوهرُ الهُويَّةِ البشرية وبهذه الهويّة التي تكون بالسلوك عبر الأطوار النفسية تُفْتَحُ الآفاقُ بشرطِ فَتْحِ النفس مسبقًا ، ولكن الصعوبة تكمن في التوفيق بين قوى النفس الظاهرة والباطنة التي ذكرناها سابقًا واحدةً تلو الأخرى ، وهذا يتطلَّبُ إيحاءً وتصريحًا معًا ، هو ما يُعرَفُ بالبصيرة " فمَنْ أبصر فلنفسه ومن عمِي فعليها " ، وفتوحُ بصيرةِ النفس هي مطابقةُ بصرِ النبي عليه السلام لِمَا أبْصَرَهُ صاحبُها لَمّا يعبد الله كأنه يراه ، فإنَّ عينَه عليه السلام لا تُخطِىء أبدًا ، وهذا لا يحصل إلا بالمراقبة لبيتِ ربِّك الذي هو قلبك بحيث لا يفقدُك ربّك حيث أمَرَكَ ولا يجدُك حيث نَهاكَ ، يقول شيخ الإسلام الحافظ #ابن مرزوق الحفيد رحمه الله تعالى : { قولُه عليه السلام في الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه تنبيهٌ على وجوبِ المراقبة فينبغي على العبد أن يُشْعِرَ نفسَه حالَ العبادة أنَّ الله تعالى يراه ، فإذن كلُّ عبادةٍ تجبُ فيها المراقبةُ وهي خَمْسُ مُراقَباتٍ لِلْخَمْسِ الأركانِ مِنْ أركانِ الإسلام } اهـ ، فيصبح صاحبُها ذو فراسةٍ لا تُخطِىء مِنْ أخبارِ الكون والآفاق فيهتدي لسعادته بيُسْرٍ لأنَّ نورَ الإيمان الذي هو نورُ المراقبة يُطابِق نورَ الفطرة التي فَطَرَ ربُّنا نفوسَنا عليها ، ثمَّ انقطع مَنِ انْقطعَ بتعطيلِ هذا النور

واستبداله بظلمات القعود عند دوائرِ راحةِ النفس الأمّارة ، وصاحبُ هذه الفراسة التي تحصل بفضل تسليكِ النفس لْلمُطمئنة بذكرِ الله إلى الراضية إلى المرضية إلى الكاملة تصبحُ عينَ قلبه هي قُرَّةُ عَيْنِ رَبِّهِ في الخلوة والجلوة ، فيفهمُ وَحْيَ ربّه كتابًا وسُنَّةً بلا حجابٍ مِنْ ظُلمةِ الطَّبْعِ والطِّينِ ، فيَقِرُّ ويطمئنُّ عند كلِّ تَجَلٍّ يَرِدُ مِنْ أسمائِه تعالى وأفعالِه أو صفاتِه ، فلا تُخطِىءُ معاملتُه بصفاءِ التوحيد وهذا بقَدْرِ التجريدِ الذي كان له أيامَ السلوك النفسي والقلبي ، فيكونُ مِنَ الّذينَ يَهْدونَ بالحقِّ وبِهِ يَعْدِلونَ ، فإنه لا يُمْكِنُ تجاوزُ مقامَ القلب ، والإتصالُ بمُقَلِّبِ القلبِ مِنْ غير سلوكِ وتزكيةِ النفس والذَّاتِ ، فإنَّ النفسَ في الأصل مُمْتَزِجةٌ ومختلطةٌ بالرُّوح وإذا لمْ تُسْتَخْلَصْ مِنَ الروح بمساعدةِ القلب لنْ يقدر صاحبُها على النزول إلى مقامِ العبوديةِ الحَقَّةِ لربِّه تعالى ، ومادامـا مُجتمعَيْنِ حصلتْ النقائضُ لفِكْرِ صاحبِها ولا يُتَصَوَّرُ الإنجذابُ الرُّوحي الخالِصُ نحو المطلوب ، فإنَّ الحقيقةَ الجامِعِيَّةَ القلبية قائمةٌ مُستحْكَمَةٌ ناجِزَةٌ ، فلا تُسْتَخْلَصُ الرُّوحُ مِنَ النفس إلا بَعْدَ قَطْعِ منازِلِ السُّلوك وطَيِّ مراحلِ الوصول إلى الله تعالى إجمالًا وتفصيلًا يقينًا وتلقينًا لا تخمينًا ، فتكونُ بدايةُ السُّلوك بالقلب ونهايتُه بالرُّوحِ ، أيْ بعد اطمئنانِ النفس في كلا المَقاميْن : مقامُ الرُّوح ومقامُ القلب لَمَّا تُستَخْلَصُ مِنْ تشبيهِ القلب وتنزيهِ الرُّوح أوْ مِنْ جَلال القلب وجَمال الرُّوح ، فتكونُ في البداية طائعةً مُطيعةً للقلب وفي النِّهاية تنقُلُ مُبايَعتِها للرُّوح ، وهذا أمرٌ صعبٌ ومُشْكَلٌ بلا بصيرةٍ قلبيةٍ تكونُ بَرْزَخًا بين مُعاملاتِ النفس وأعمالِ الرُّوح التي تَنْمَزِجُ بها ، وهاهنا نكتةٌ ينبغي التنبُّهُ لها وهو أنَّ الرُّوح قبْلَ تعلُّقِهَا بالبدن كان لها تَعَلُّقٌ أصليٌّ وفِطْرِيٌّ نَحْوَ ربِّها ولمَّا كُلِّفَتْ بالبدن نَسِيتْ ذلك التَّعَلُّقُ الأصلي وعَلِقَتْ في التَّعَلُّقِ الظِّلِّي الوَهْمِي وزَالَ عنها ذلك التَّوَجُّهُ نَحْوَ المقصودِ ، وهو ربُّها تعالى ، فانتقلَ ذلك التَّوَجُّهُ إلى القلب وانحصر فيه التَّوجهُ إلى الله تعالى ، وجَعَلَهُ تعالى جامِعًا لتَوَجُّهاتِ النفس وتوجُّهاتِ الرُّوح معًا ، فحيثُما تَوَجَّهَ القلبُ توجَّهَت الرُّوحُ ، ولكنَّ النفسَ المُنْمَزِجَة بها تَصُدُّهَا عن توجُّهاتِ القلبِ ، ولا حَلَّ إلا بسُلوكِ النفس بمراحلها الصحيحة كما ذكرناه سابقًا ، فإنّه تعالى ما جَعَلَ علينا في الدِّين مِنْ حَرَجٍ لَمّا فَرَضَ عليْنا هذا السلوك إليه كما قال " وأَنّ إلى ربّك المُنتهى " عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى فافهم ، إذَنْ بهذه البصيرة يُفَرِّقُ بين الخواطر في نفْسِهِ وفي غيره فيَعلمُ مِنْ أين جاءتْه ولِمَ جاءتْ ، وهِيَ البصيرةُ التي سَمّاها الإمام الهَرَوِي رحمه الله ببصيرةٍ تُثَبِّتُ الإشارةَ ، مَنْ أحْكَمَهَا على يدِ شيخه تَرَقَّى

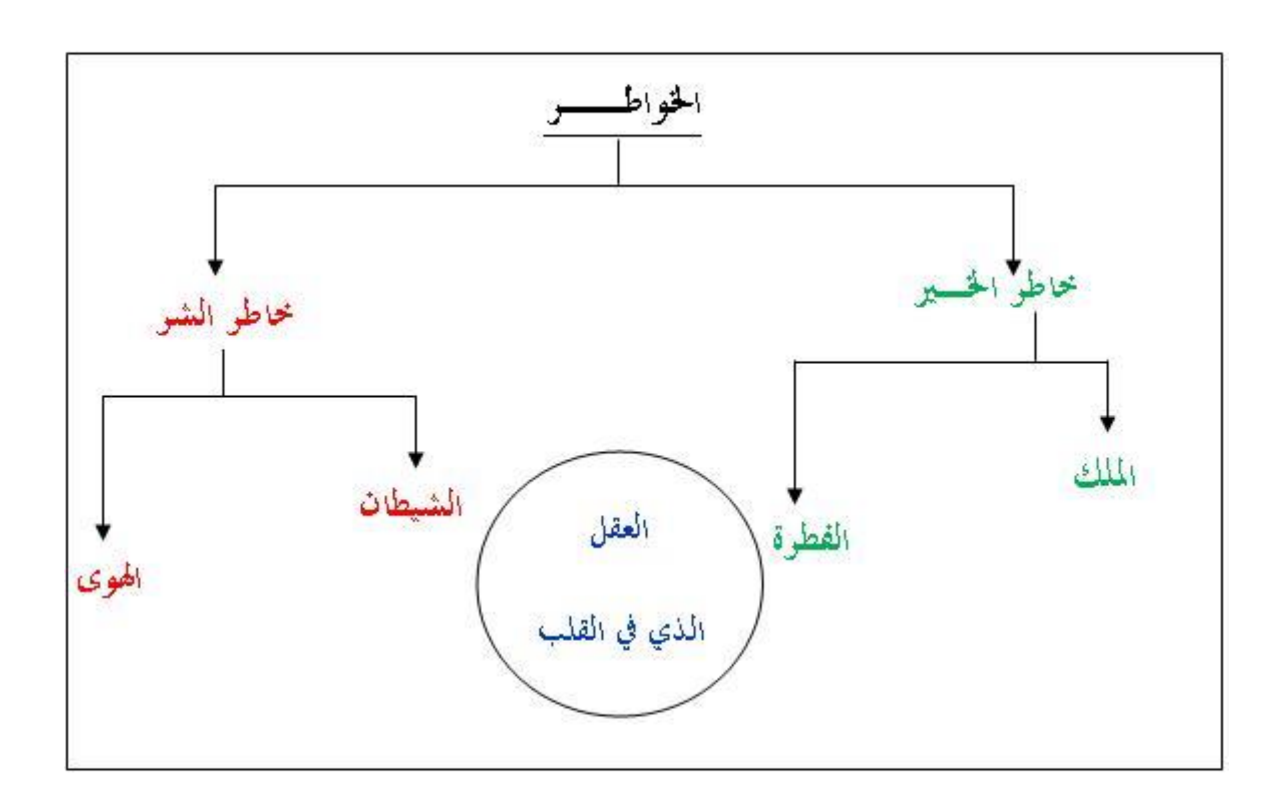
بهـا إلـى البصـيرة التـي تُثْبِـتُ الفراسـةَ النفسـية والآفاقيـة وهـي ماقالـه تعـالى :" إنَّ فـي ذلـك لآيـاتٍ للمُتوسِّـمين " ، وبهـذه البصـيرة الفراسـية يُخَلِّـصُ أعمالَـه مـن الـنّقص والخَلَـل قبْـل أنْ يرْفَعَهـا إلـى ربِّـه تعـالى حسـب خِبرتـه بِطريـقِ السُّـلوك إليـه ، فـإنَّ الطريـق إلـى الله حُـفَّ بالمَكـارِه وإلَّا كـلُّ مَـنْ سـمع بـه وَصَـلَ إليـه ، عَكْـسَ السَّـالِكين الحقيقيـين لا يَغيـبُ عـنهم الهـدفُ لحظـةً واحـدةً فلـوْ غـاب لحظـة واحـدة لمـا اعتَبَـروا أنفسَـهم مِـنَ المسـلمين ، وحـين تُصـبِحُ لا يَغيـبُ عنـك الهـدفُ لحظـةً واحـدةً فقـط تُسـرِع ولا تَتَخلَّـف " سـارعوا إلـى مغفـرة مِـنْ رَبِّكُـمْ وَجَنَّـةٍ " **وهـذا لا يـأتي مـن فـراغٍ وإنمـا بعـد أن تَفْنـى شـهواتُ الأمّـارة واللّوامـة والمطمئنّـة وتَبْقـى شـهوةُ الـذِّكْرِ وَحْـدَهَا** " إنَّمـا تُنْـذِرُ مَـنِ اتَّبَـعَ الـذِّكْرَ وخَشِـيَ الـرَّحْمَنَ بِالْغَيْـبِ فَبَشِّـرْهُ " ، فتـرى صـاحبَها لـيس لـه وقـتَ فَـراغٍ ، فـإنَّ فَـواتَ الوقـت عنـده أشـدُّ مـن المـوت فـإنَّ المـوتَ انقطـاعٌ عـن الخَلْـقِ وفـواتُ الوقـت انقطـاعٌ عـن الحَـقِّ ، فصـاحبُ هـذه البصـيرة الفراسـية يُبصِـرُ فـي كـلِّ شـيءٍ علامـةً لربِّـه فيهـا وفـي نفسِـه المطمئنـة ، فيسـهُل عليـه تَـدَبُّرُ الكتـابَ المَسـطور والكتـابَ المَنظـور معًـا ، فـإنَّ الكفَّـار سـمعوا القـرآن كمـا سـمع المؤمنـون ولكـنْ لفظًـا فقـط ، ورأوْا معجزاتـه عليـه السـلام ولكـنْ بَصَـرًا فقـط لا بصـيرةً ، إذ سَـمِعوا ورَأَوْا كمـا يسـمع ويـرى الحيـوانُ ، انظـرْ فراسـة أبـي بكـر الصـدّيق كيـف لـم يتـردّد لحظـةً فـي تصـديق النبـي عليـه السـلام ، فكـلُّ شـخصٍ دعـاه النبـي عليـه السـلام للإسـلام إلا وتـردَّد ولـوْ شـيئًا يَسـيرًا إلا الصِّـدّيقُ رضـي الله عنـه لـم يتـردَّدْ أبـدًا ، ولاحِـظْ فراسـته فـي قتـالِ مـانِعي الزَّكـاة بعـد وَفـاةِ النَّبِـيِّ عليـه السـلام لـوْ لـم يفعلهـا لَمَـا قامـتْ للإسـلام قائمـةٌ بَعْـدُ ، ثـمَّ لاحِـظْ فراسـةَ البَصـيرة العُمَرِيـة كيـف كـان ينـزل الـوحيُ علـى مُـرادِ عُمـر وعلـى طِبـق مـا ينطـقُ بـه عمـر، وكـذلك فَعَـلَ لَمَّـا آلَـتْ إليـه الخلافـةُ ومـا أكثـر مـآثرَه فيهـا التـي لـم يُسْـبَقْ إليهـا رضـي الله عنـه ، ثـم كـذلك الفراسـة العثمانيـة والفراسـة العلويـة وكثيـر مـن الصـحابة الكـرام ، وقبْـلَ ذلـك مثـالٌ عـن فراسـة بنـت شـعيب عليـه السـلام لمّـا قالـت " إنَّ خيـر مـن اسـتأجرت القـوي الأمـين " وفراسـةَ امـرأة فرعـون لمّـا قالـت عـن موسـى عليـه السـلام : " عسـى أن ينفعنـا " قالتْهـا قبـل وقـوع النُّبُـوَّة المُوسَـوية بـأربعين عامًـا ، وغَيْـرُ ذلـك كثيـرٌ إلـى يومنـا هـذا إلـى يـومِ القيامـة ، فالبصـيرةُ التـي هـي وَحْـيُ النفـوسِ لصـاحبها بـالخير إنْ تَرَقَّـتْ وتَزَكَّـتْ علـى ثَـلاثِ أحـوالٍ شـريفةٍ تدريجيـة كمـا ذَكَـرَه الإمـام #الهَـروي فـي كتابـه " منـازل السـائرين " : بصـيرةٌ تفجّـر المَعـارف وبصـيرةٌ تُثبّـتُ الإشـارة وبصـيرةٌ تُثْبِـتُ الفراسـةَ ، علـى الترتيـب ، فشخصـيةُ الـنفس إذن هـي مـا يُعْـرَفُ بالبصـيرة وعلـى قـدر قوّتهـا وصـفائها يكـونُ اليقـين

الحاصل لها أثناء السلوك إلى ربّها ، لتَصِلَ في الأخير عند عَيْنِ اليقين بعد غَينِ التَّلْقِينِ ، [فإنَّ الأمرَ الوَحيي الرَّبّاني يَتنزَّلُ في غايةِ اللَّطافة والخَفاء ، وحالُ تنزُّلِه درجةً واحدةً وتكاثُفِهِ] وتجلّيهِ على القلب المَبْطون داخلَ حُجُبِ النفس وشهواتها ، وهو تَنَزُّلٌ صعبٌ كأنَّهُ لَظَى نَزَّاعٌ لِلشَّوَى يَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وتَوَلَّى وجَمَعَ فَأَوْعَى ، [سُمِّيَ بالخَفاء ، وحالُ تَنزُّلِه درجةً ثانيةً وتكاثُفِهِ تكاثُفًا أقوى مِنَ الأوَّلِ سُمِّيَ بالأخْفَى ،] وكلَّما تَنَزَّلَ على لَطيفةٍ كلَّما أفْنَى الشَّوائِبَ التي فيها ، حتَّى يُفْنِيها لتَخْرُجَ لطيفةً أخرى ، ولا يزالُ هكذا حتّى تصيرَ النفسُ كاملةً ، وكلَّما تَنَزَّلَ مِنْ مرحلةٍ إلى أخرى كلّما كان التَنَزُّلُ أصْعَبُ وأقْوَى لا يَقدر عليه إلا أقوياءُ الرِّجال [ثمَّ كذلك فيُسَمّى بالسِّرِّ ، ثمَّ كذلك فيُسَمّى بالرُّوح أو الفُؤاد أو الصَّدْر ، ثمَّ كذلك فيُسَمَّى بالقلب وبالنَّفْسِ النَّاطِقة وباللَّطيفة الإنسانية وبالإنسان ، فهي أربعةُ أسماءٍ في هذه الدرجة ، فإنْ تَنَزَّلَ درجةً أخرى سُمِّيَ بالإنسان الحيواني وبالنفس الأمَّارة] لَمَّا قال تعالى :" الرّحمنُ عَلَّمَ القرآن خَلَقَ الإنسان علَّمَهُ البَيَانَ " هذا لعُموم الإنسان لَمّا يستفيدُ بالوحي والقرآن الذي لأجله عُلِّمَ وكُلِّف هذا الإنسان ، عكس الحيوان الذي ليس له وحيٌ أُنزِلَ على حيوانٍ مثله ، أيْ هذا في درجةِ عمومِ سيرِ القلب الإنساني إلى الله ، وفي درجةِ اختصاصِ سير القلبِ مِنْهُ إلى الصَّدْرِ والرُّوح أصبحَ القرآنُ فُرْقَانًا ، وهو يتطلّبُ شُهودًا بمِرْآةِ القلبِ لِرَبِّهِ في كلِّ نَفْسٍ وفي كلِّ كَوْنٍ ، فيَرى الحقَّ حَقًّا ويتبعه ، ويَرى ببصيرته الفراسية الباطلَ باطِلًا ويُلْهَمَ اجتنابَه ، لَمّا يَجْتَنِب سَيْرَ النفوس الأمَّارة بقَوْلِه تعالى : " لكنِ اللهُ يشهد بما أنْزَلَ إليك أنْزَلَه بعِلمه والملائكةُ يشهدون وكفى بالله شهيدًا "و قوله تعالى " شَهِدَ اللهُ أنه لا إله إلاّ هو والملائكةُ وأولو العِلْمِ قَائِمًا بِالقِسْطِ " ، فخُصَّ الفُرقانَ بالتَّنَزُّلِ والقرآنَ بالنُّزول ، وخُصَّ أيضًا بالذَّاتِ العابِدة لا بالذَّاتِ أوالنفس الجاحِدة : " تبارَك الذي نَزَّلَ الفرقانَ على عبده " ، وهذا هو محَكُّ التخلُّق بأخلاق القرآن كما تخَلَّقَ بها النبيُّ العدنان ، فإذا قابَلَكَ أحَدٌ بالنفس فقابِلْهُ أنتَ بالقلب ، وهذا هو اختبارُ أخلاقِ السَّالك في هذه المرحلة هل يُقابِلُ الخَلْقَ بالقلب كما يُقابِلُ به ربَّه أمْ يُقابِلْهُمْ بالنفس لمجرَّد أنَّهم قابلوه بالنفس أيضًا ؟ فانتبه وأقِمْ دليلَ تَخَلُّقِكَ بأخلاق القرآن بهذا القانون في كلِّ مراحلِ السلوك بالنفس ، وعلى العبد أن يعلم أنَّه يبدأ من آخرِ وأَرْذَلِ درجاتِ نفسه الناطقة ومِنْ أَسْوَإِ أخلاقِها ، فلَهَا دَواءٌ وغذاءٌ مِنَ الذكر تُؤَهِّلُ صاحبَها للدَّرَجة المُوالية وهي اللَّوّامة وهكذا حتى يتحقق اليقينَ التام الموصِل لحَضْرَةِ القُدُسِ عند النفس الكاملة وما بعدها " في مقعدِ

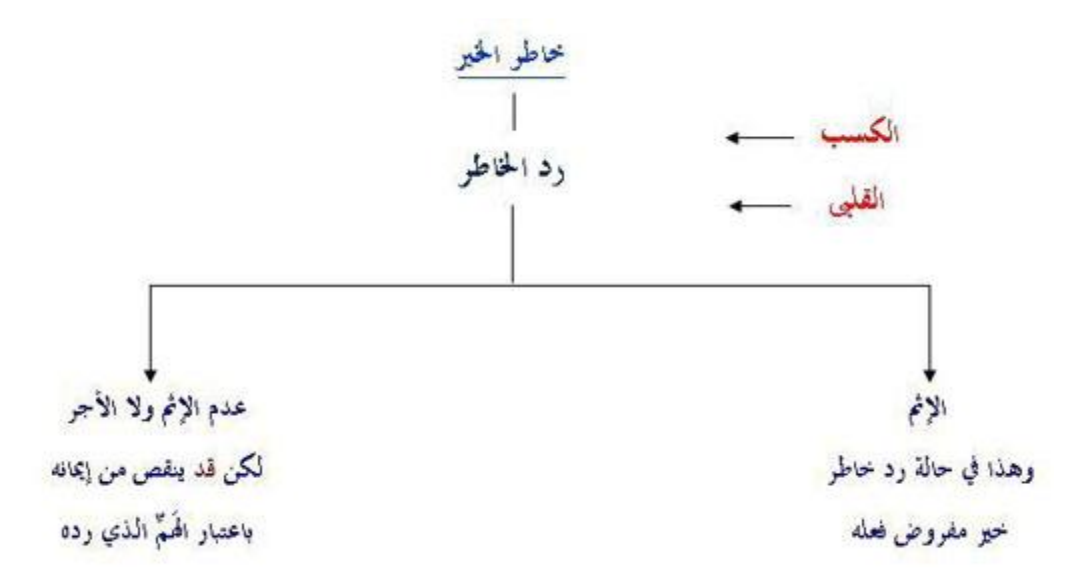
صِـدْقٍ عنـد مليـكٍ مُقْتَـدِرٍ " ، وفـي كـلِّ مرحلـةٍ يُـوقِّرُ المُرَبِّـي والشَّـيْخُ لتلميـذه جميـعَ مـا يحتاجـه إليـه فـي سَـيْرِهِ إلـى ربّـه تعـالى درجـةً درجـةً [إلـى أنْ يصـل إلـى مـا تَنَـزَّلَ منـه وهـو الصُّـورة الآدَمِيـة التـي كانـتْ قِبْلَـةَ الملائكـة الكـرام] لَمّـا سَـجَدوا لآدم عليـه السـلام ، وتلـك حضـرة القـدس المُطهَّـرَة مـن كـل نَفْـسٍ و دَنَـسٍ ، ولـيس بَعْـدَها سِـوى حضْـرةُ الحـق تعـالى التـي تُسَـمَّى بالعِنْدِيَّـةِ فـي " عِنْـدَ مليـكٍ مُقتَـدِرٍ " و " عِنْـدَنَا خزائنـه " و " عنـده مفـاتح الغيـب " و " ومـا عنـد الله بـاقٍ" و " علمهـا عنـد ربّـي " و " عنـد ذي العـرش مَكـينٌ " وغيـر ذلـك كمـا سنشـرحه إن شـاء الله تعـالى ، فهـي عِنْديّـةُ امتـدادٍ لحضْـرةِ عِنديَّـةِ الحـقِّ تعـالى فـي الآخِـرة لَمَّـا يـدخلون الجنـة ، وهـي هُنـا الـنفس الزَّاكِيَـةُ فـي الـدُّنيا ، وهـي جَنّـةُ الصَّـدْرِ فـي الـدُّنيا ، فيكـونُ مِفْتـاحُ حضـرةِ القُـدُسِ التـي ذكرْناهـا مِـنْ تنـزّلات اسـمه تعـالى القـدّوس ، وهـي المفتتحـة لحضـرة الحـقّ التـي تليهـا ، وهـي مِـنْ تَنَـزُّلاتِ اسـمِه تعـالى : الفَـرْدُ الأعظـمُ الحَـقُّ ، والتـي تَحُـفُّ السَّـالكَ لَمَّـا يصـل إلـى نفسـه الكاملـة ويَجِـدُهَا ، ووَجَـدَ الله عنـدها فَوَفَّـاهُ حسـابَه " والله سـريع الحسـاب " مَـنْ جَـدَّ وَجَـدَ ومَـنْ زَرَعَ حَصَـدَ فـافهم والله أعلـم ؛ ثـم قـال الشـيخ رحمـه الله : [ثـمَّ اعلـمْ أنَّ القلـب متـى كـان متوجِّهًـا إلـى البـدن بالتنعُّمـات والَلّـذَّاتِ الدُّنيويـة كـان محجوبًـا بسَـبْعين حِجَابًـا ، ويُسَـمَّى القلـبُ فـي هـذه المرتبـة بـالنفس الأمّـارة] إذْ الـنفسُ ليسـت موجـودة وإنّمـا الوُجـودُ للقلـبِ الـذي هـو بيـتُ الـرَّبِّ ، ولكـنَّ انتكـاسَ القلـب بـأوامرِ الـنفس الناطقـة فيـه بالشَّـهوات مِـنْ دون الله تعـالى جعلـتْ القلـبَ كأنـه غيـرُ موجـودٍ وكأنّـه بـاطِنٌ ، والـنفسُ حَجَبَـتْ البـاطنَ بِظَـاهِرِ اتِباعِهـا لظاهِرِالـدُّنيا مُتناسِـيةً بـاطنَ الـدُّنيا وهـو الآخـرةُ ، وبهـذا لا يَتوجَّـهُ القلـبُ لظـاهِرِ الحَـقِّ لا فـي الـدُّنيا ولا فـي الآخـرة فيخلِّـدُ صـاحبَه فـي جهـنَّمَ الآخـرةِ دون أنْ يشـعر " كـلَّا إنّهـم عـنْ ربِّهـم يومئـذٍ لَمَحْجُوبُـونَ " بَعْـدَ قولـه " كَـلاّ بـلْ رَانَ علـى قلـوبهم مـا كـانوا يَكسـبون " وهـو كَسْـبُ الـنَّفسِ التـي لهـا مـا كسـبتْ وعليهـا مـا اكتسـبت " ثـم إنَّهُـمْ لَصَـالُو الجَحِـيم ثُـمَّ يُقَـالُ هـذا الـذي كُنْـتُمْ بـه تُكَـذِّبُونَ " ، [فيتّصِـفُ بالغضـب المـذموم وبالحقـد والحسـد والتعـاظم والغـرور] ، ومتـى وَجَـدْتَ يـا أخـي مثـل هـذه الصـفات ثابتـةً فيـك دون أن تقـدر علـى إزالتهـا عامًـا بعـد عـامٍ فَقَـدْ حـان الوقـتُ لتسـلُك السُّـلوكَ الصـحيح الـذي يجنِّبـك شـرورَ هـذه الصِّـفات فـي الـدنيا والآخـرة ، لأنَّ الأخـلاق هـي حَـوَاسُّ العقيـدة كمـا ذكرنـا سـابقا ، فـإنْ أخطَـأَتْ الحَـواسُّ أخطَـأَ الإدراكُ وأخطَـأَ الإعتقـادُ الـذي يسـاوي جنّـةً كمـا يسـاوي نـارًا ، فـلا تقنَـعْ بـالقعود مـع مَـنْ كانـتْ فيـه

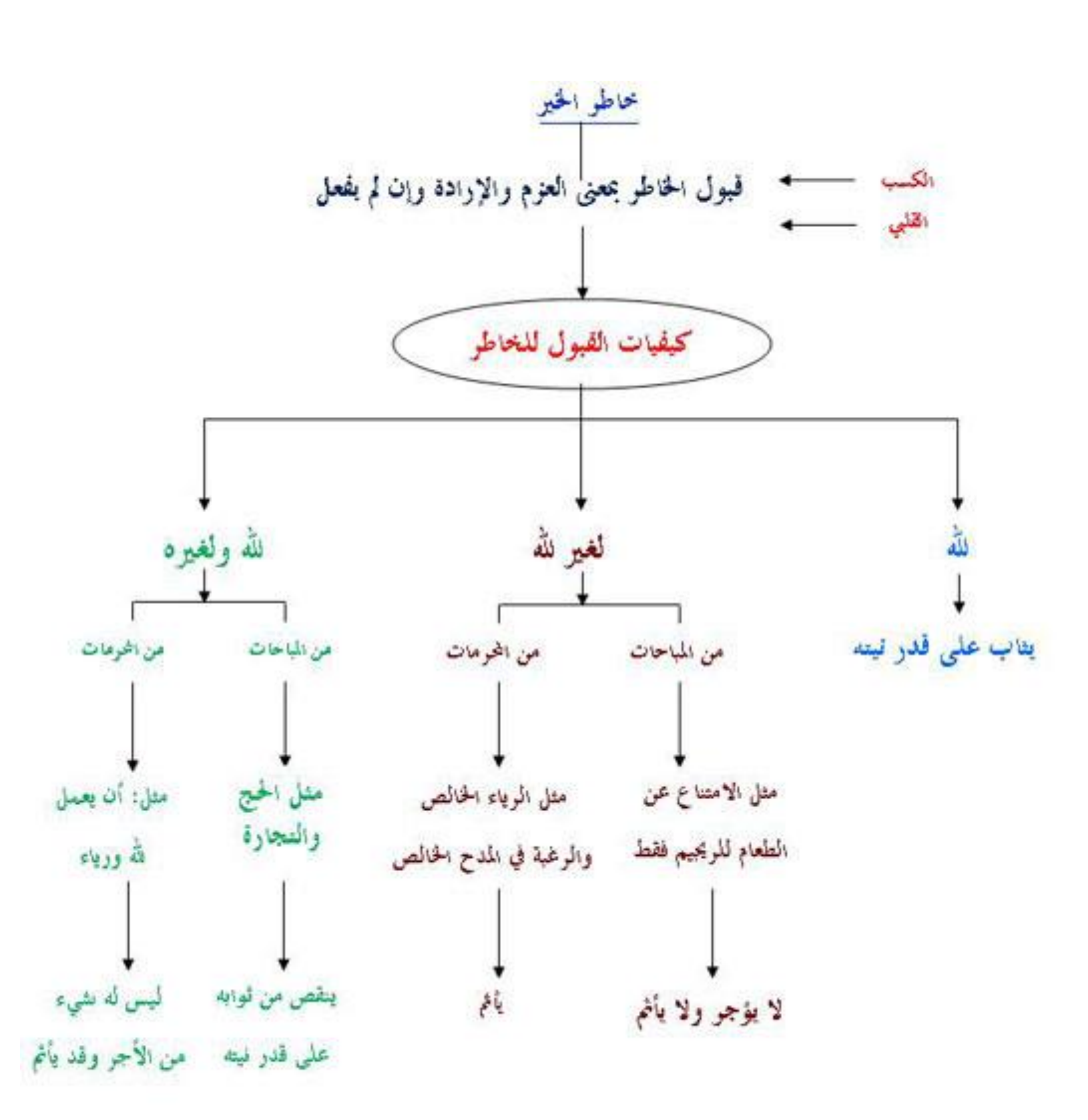
مِثـل هـذه الصـفات ولـو صَـلّى وصـام وقـامَ وقـال أنَّـهُ مـن المسـلمين ، لأنَّ مَحَـلَّ انبعـاثِ ونُبـوعِ العبـادات هـو مِـنْ القلـب الـذي هـو بيـت الـرَّبِّ ، ولـيس أيُّ قلـبٍ وإنَّمـا فـي القلـب السَّـليم الـذي حَقَّـقَ الإخـلاصَ بخلَاصِـهِ مِـنَ الصِّـفاتِ المذمومـة وتَخَلَّـقَ بأحاسِـنِهَا ، فإنّـه عليـه السـلام مـا بُعِـثَ إلَّا ليُـتَمِّمَ مَكـارِمَ الأخـلاق الكامنـة فـي كـلِّ نفـسٍ بـ " فـاتَّبِعُوني " بالسُّـلوكِ والسّـيرإلى الله تعـالى وراءه ، وتخَلُّقًـا بـأخلاقِ الله تعـالى ، فـإنَّ صـفاتِ الـنفس المذمومـة واجـبٌ تطهيرُهـا ليَصِـحَّ القلـبُ فـي توجُّهاتِـهِ إلـى الله تعـالى بالعبـادات والمعـاملات ، وإلّا فـلا يَجِـدُ صـاحبُنا مِـنْ صَـلاتِه سـوى لَهْـوًا أوْعـادةً ولا مِـنْ صـيامه سـوى التقليـدُ و الجـوع والعطـش ، ومـن هنـا أهميَّـةُ وخطـرُ السُّـلوك الشـرعي مـن بـابِ الـنفس ليُصـبِحَ القلـبُ لربّـه بيتًـا ، فيكـونُ لـه سَـهْلًا ويكـونُ لـه أهْـلًا مـع أهـلِ الله الـذين هُـمْ أهلُـه وخاصَّـتُه ، [والحِـرصُ الشَّـهواني فـي الـنفس الأمّـارة صَـيَّرَ المُلـوكَ عبيـدًا ، لأنَّ القلـب حقُّـه أنْ يكـون أميـرًا علـى البـدن فـي كـلِّ أمـرٍ ونهـيٍ] ومِـنْ ذلـك قـولُهم أنَّ مَـنْ لـم يَجِـدْ واعِظًـا مِـنْ نفسـه فهـو خَـرابٌ وأنَّ القلـب الـذي لـيس فـي جوفِـه شـيءٌ مِـنَ القـرآن لهـو كالبيـت الخَـرِب [فـإذا غلبَتْـه الشـهوةُ صـار الأميـرُ مـأمورًا وصـارَ المَلِـكُ أسـيرًا مُسَـخَّرًا فـي يَـدِ كلـبٍ أو عـدوٍّ قـاهِرٍ] فانقلبـتْ القـوى النفسـية وتَعاكَسَـتْ القـوانينُ الإلهيـة فـي الـنفس والكـون ، ومـن هنـا أكّـدْنا علـى ضـرورةِ بـدءِ السُّـلوك بـالنفس كمـا يعرفُهـا صـاحبُها بِنَفْسِـهِ ، فإنّـه تعـالى مـا كَلَّـفَ عبـاده إلا بـالنفس التـي بـين جَنْبَـيْهِمْ ، ففيهـا أُمُّ القـوانين التـي فـي الكـون ، ومنهـا و لأجْلِهـا وُضِـعَتْ هـذه القـوانينُ لتَصِـحَّ الخلافـةُ الأرضـيةُ المُؤَقَّتَـةُ والأُخرويـةُ المُمْتَـدَّةُ ؛ [والقلـبُ إذا نسـي نفسَـه فـي هـذه الحالـة المذمومـة وطـال وقوفُـه فيهـا] كـان شـرًّا مـن البهـائم ومـن الشـياطين لإسـتهزائه ولعبـه بسِـرِّ ربِّـه وهـو نفسُـه ، بـلْ الشـياطينُ أفضـلُ منـه لأنَّ الشـيطانَ لـيس لـه عَقْـلٌ أو بصـيرةٌ فـي شخصـيَّتِه النَّفسـية الشَّـيطانية ، فلـوْ كـان لـه عَقْـلٌ لَمَـا قـال : " أنـا خيـرٌ منـه ..." ، الأنَـا والـنفسُ غلبتـاه لَمَّـا قـالَ : " أنَـا " [وكـان ذلـك سـببًا فـي إبطـالِ خاصـيَّتِهِ] الإنسـانيَّةِ ، كمـا أبطَلَـتْ " أنـا " خاصـيّةَ إبلـيس المَلَكِيَّـة ، [التـي تَفَـرَّدَ بهـا وهـي القُـدْرةُ علـى التَّوَجُّـهِ] والإنطـلاقِ بحرّيّـةٍ [إلـى عـوالِمِ الغيـب] التـي هـي مسـرحُ أحـداثِ قولِـه تعـالى : " **كُـنْ** " ، ليُحِـقَّ الحَـقَّ ويُبْطِـلَ الباطِـلَ فيكـونَ خليفـةَ ربِّـه فـي كَوْنِـهِ ، [وإبطـالُ هـذه الخاصـيَةِ هـي المُعَبَّـرُ عنهـا بِسَـوَادِ القلـب وبِـالرَّانِ وبـالطَّبْعِ] وهنـاك تزدهـرُ الخـواطرُ الشَّـيطانية بـالتَّقَوّي بـالخواطرِ النفسـانية بإلهامـاتِ الفُجـور، إذْ تلـك الخـواطرُ النفسـانية هـي سـببُ ذلـك الطَّبْـعِ وذلـك الـرّانُ للخـواطرِ الشـيطانية عليْهـا ، وباتّحادِهـا تنشـأُ عُقْـدةُ الإصـرار علـى

الـــذَّنْب والباطـــلِ ، فتَحْجِــبُ مِــرْآةَ القلـــوبِ عَــنْ مُشـــاهَدَةِ الغُيــوب التـــي هـــي أقْــوى سَـــبَبٍ لمعرفـــةِ الـــنفس ومعرفـــة عَـــلَّامِ الغُيـــوبِ ، وقَـــرارِ الـــنَّفس بـــذلك ، كمـــا نُوَضِّـــحُ فـــي المخطَّطات التالية :



ومَثَّلْنا بخاطرِ الخير وكَيْفيَّاتِ قبولِه ورَدِّه بين الكَسْبِ والقَلْبِ ، وبيْن " لَهَا مَا كَسَبَتْ " و " عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ " كما يلي :





وفي شرحِ زكريّا الأنصاري على الرّسالة الرَّسلانية : (الخاطرُ الرّبّاني له ثلاثُ حَضرات) أيْ له ثلاثُ مَوارِدَ ربّانية أسمائية وصِفاتية يَرِدُ منها: (مِنْ حضْرةِ الرُّبوبية ، و من حضرة الألوهية ، ومن حضرة الرّحمانية ، والفرقُ بينها أنَّ الرّبّاني منها يَرِدُ بوارداتِ الجَلال ، ويَرِدُ الرَّحمانيُّ بوارِدات

الجَمال ، ويَرِدُ الإلهيُّ بواردات الكَمال : فالأوّلُ يَمْحَقُ ويُفْنِي ، والثَّاني يُثَبِّتُ ويُبْقِي ، والثَّالث يُصْلِحُ ويَهْدِي ، فعلى العبد أنْ يَستعدّ في الجَلال بالصّبر وفي الجَمال بالشُّكر وفي الكَمال بالسَّكينة والوَقار والخشية والإفْتِقار ، وهذه كلُّها خواطرُ أهلِ المعرفة) بَعْدَ تَتْميمِ السُّلوك النَّفْسي إلى النفس المطمئنة والرّاضية والمَرضيّة وحتّى الكاملة ، فلا يَرِدُ على صاحبها بَعْدُ سوى هذه الخواطر الرَّبَّانية بأنواعها الثَّلاث كما ذَكَرَها ، (وبقيتْ الخواطرُ المَلَكِيَة والعَقْلية لأهل البِداية) مِنْ أصحاب النفس اللّوّامة وبقايا النفس الأمّارة ولكنْ هُمْ على خيرٍ لأنهم انْبَعَثوا للسُّلوك المَخصوص إلى الله تعالى إنْ التزموا ببرنامج التَّسْليك والتَّدريب على يدِ مُرْشِدِهِمْ ، (وأمّا الخواطرُ النفسانية والشيطانية فلأهل الغفلة) مِنْ أصحاب النفس الأمّارة فقط ، مِمَّنْ بَقِي طول حياته في هذه المرحلة الأولى مِنْ نفسه و لم يُبارحها شِبْرًا واحدًا ؛ (واعلمْ أنه إنْ اجتنَبتَ هَواك وحظّك قَوِي إيمانُك : فينكشف لك سرُّ الحكمة الرّبّانية والقدرة الإلهية) بفضل مُكاشفة نفسك بحقائق مقام الإحسان في نفسك كما مَرَّ ، وفي الآفاق كما سيأتي ، (وإنْ اجتنبتَ ذَاتَكَ ونَفْسَكَ والخَلْقَ) حتى تَستخلِص قلبَك مِنْ أَمَارَةِ نفسِك ولَوَامَتِهَا ليصبحَ هو البارزُ لِعَرْشِ الأحدية ، لا لِدُنْيَا يُصيبُها أوْ نحو ذلك كما مَرَّ (وتحَقَّقْتَ بمقام الإخلاص بأنْ ترى ربّك تعالى مُحيطًا بكلِّ شيءٍ فقَوِي تَوْحيدُكَ : فوُقوفُكَ مع الخَلْقِ حِجَابٌ عن رؤيته تعالى) في – كأنك تراه – وهو قِسْمُ المُشاهَدَةِ مِنْ مقام الإحسان ، (وأنْتَ مع ذلك حِجَابٌ عَنْ نفسِك أيضًا) في – فإنْ لم تَكُنْ تراه فإنّه يراك – وهو قسم المُرَاقَبَةِ مِنْ مَقام الإحسان ، (فالحقُّ تعالى ليس بِمحجوبٍ عنك ، إذْ لا قُدْرَةَ لِأَحَدٍ على حَجْبِهِ ، وأنْتَ مَحْجوبٌ عنكَ بِهِ تعالى ، لأنّكَ إذا نَظَرْتَ إِلَى وُجودِهِ تعالى حُجِبْتَ بِهِ) أَيْ بِالْوُجُودِ (عَنْكَ) اهـ بتصرّف ،

ويقول الشيخ #عبد الحفيظ الخَنْقي البسكري رحمه الله في هذا الصَّدَد : { والقلبُ له جهتان : جهةٌ مفتوحةٌ إلى عالَم الشَّهادة ، وجِهَةٌ مفتوحةٌ إلى عالَمِ الغَيْبِ ، إنْ سُدَّتْ إحداهما انْفَتَحَتْ الأخرى وبَانَ الحَسَنُ مِنَ القبيح ، } فإنْ سَددتَ مَنافِذَ خواطِرِ الشَّيطان لمْ تَجدْ النفسُ ما تُوسوِسُ به كما ذكرناه عند حديثنا سابقًا عن الثَّغْرة التي في القلب ومنها يتسلَّلُ الشيطانُ وأعوانُه ، ولكنَّ الثُّبوتَ على هذا الأمر لا يَسْهُلُ إلّا بعد السُّلوك فتَنْفَتِحُ النفسُ من الأمّارةِ إلى اللّوّامةِ والمطمئنّةِ تدريجيًّا ، وهذا بصحبةِ مَنْ حققوا هذا الفَتْحَ مِنْ مَشَايِخ ، تَتَّخِذُه قدوةً إنْ كانوا على قَدَمِ نَبِيِّكَ محمّدٍ عليه السلام ، وهناك تنقلب خواطرُ النفس الشيطانية إلى خواطرَ مَلَكِية ورَبَّانية ، وإلا عَلِقْتَ مع أصحابِ الخواطرِ التي تَضُرُّكَ في الدُّنيا والآخرة ولا تَلومَنَّ إلا نفسَك ، { وإنْ فُتِحَتَا معًا لم يَرَ فيها شيئًا } فتُصبِحُ نفسُه قلبًا يعبدُ اللهَ كأنه يراه ، ولم يَرَ شيئًا سواهُ لأنَّ قلبه مَسْكَنُ للرَّبِّ يُريهِ ربُّهُ الحَقَّ كما يَراه ويُريه الباطلَ ليَجتنِبَه بلا فَتْوَى يَنتظِرُها مِنَ النَّفس لَمّا كانتْ أَمّارةً ، وعَيْنُهُ هنا على رَبِّهِ بلا نَفْسِهِ ، { فإنَّ صاحبَ القلب المُنيب إذا سَلَكَ المَقاماتِ بشروطها يَصيرُ مقامُهُ قَهْرِيًّا فيَقْهَرُ كلَّ مَنْ يراه بِبِدْعَةٍ ، وبتِلْكَ القَهْرِيَّةِ تُمْتَدُّ له الإمداداتُ } والوارداتُ والخواطرُ الرَّبَّانيَّةُ { فيَلْحَقُ بالمقام القِسْطِ الذي يَبْرُزُ منه المُريدون } للسُّلوكِ إلى الله تعالى على بِسَاطِ النفس المَطْوِيَّةِ داخلَ القلب الذي هو بَيْتُ الرَّبِّ { على يديْهِ تَزْكيةً وسَيْرًا إلى مَلِكِ المُلوكِ ، فتصيرُ حركاتُه نَتَائج ، وسَكَنَاتُهُ مَفَارِج ، وأنْفَاسُهُ مَخَارِج ، أيْ شُهُبٌ تَحْرِقُ الشَّياطين والهَوى والهَواجِس } ، فَنَظْرَتُه تُغْني عنْ أَلْفِ كلمةٍ كما كان يفعلُ سَيِّدُنا رسول الله عليه السلام في جهادِ الكفار لما يُسَوّي الصُّفوفَ ويُلْهِمَهُم بالتَّنَقُّل بيْن هذه الصُّفوف وبتعليماته لهم ، فنَظْرَةٌ مِنْهُ عليه السلام وهِمَّتُهُ كانتْ تجعلُهم ينتبِهون للخَلَلِ بلا كثيرِ كَلامٍ ، وما زالتْ هِمّتُه وحِكمتُه سارِيَةً وراثةً في هذه الأُمّة إلى يومِ الدِّينِ ، وهذا الجهادُ جِهادُ النَّفْسِ وهو الجِهادُ الأكبرُ هو مِنْ مِثْلِ ذلك الجِهاد فافهم ، فكان عليه السلام يُسَوّي القلوبَ قَبْلَ الصُّفوفِ في أعظم عبادتيْن في الإسلام وهما الصَّلاةُ والجِهادُ بنوعيْهِ : جهادُ النفس وجهادُ الكُفّار ، { ومِنْ هذا المَقام القَهْرِيِّ يَنْتَقِلُ إلى الإسم

العظيمِ الأعْظَمِ وهو " الله " الأحَد ، فيصيرُ بالمَقَامِ المُفْرَدِ } كما ذكرْناه لمّا تكلَّمْنا عن المُضَلَّعِ الثَّالث للسُّلوك في مَقامِ الفَرْدانية وعلومها { وهو ثمرةُ التَّرَقِّي في الإسمِ الأعظمِ ، إذْ هُو ليس مُقتضى تَلَفُّظُ حُروفه فقط } ، ولذلك ذكرنا في برنامج الإلتزام الخاص بسلوك النفس لتصيرَ كاملةً : ذِكْرًا بإجْتِمَاع وثَنْيَنَاهُ بالخُشُوعِ بإسْتِمَاعٍ ، وليس فقط ذِكْرٌ كما يَذْكُرُ بعضُ أهْلِ الغَفلة ، { بلْ الحروفُ تَبْلُغُ إلى مَعْنَاه ، ومَعْنَاهُ يَبْلُغُ إلى سِرِّهِ ، وسِرُّهُ يَبْلُغُ إلى تَجَلّي الإسمِ ، وتَجَلِي الإسمِ يَبْلُغُ إلى تَجَلّي الصِّفَاتِ ، وهُوَ إلى تَجَلّي الذَّاتِ ، ثمَّ إلى تَجَلِّي الذَّاتِ بنَفْسِهَا لِنَفْسِهَا ، فمَنْ صَادَفَ هذا التَّدْرِيجَ بالفعل أو القَوْلِ قَالَ مِنْ بَرَكَاتِهِ مَا يُناسِبُ استِعْدَادَهُ في الدُّعاء أو السَّيْرِ إلى الله } إلهامًا ربَّانِيًّا وَهْبِيًّا ، لا كَسْبِيًّا كما تُكْسَبُ الخواطرُ الشيطانية ، أوْ كما يَدْعُوا أهلُ الغفلة إخوانَهم مِنَ الشَّياطين كَمَا قال تعالى : " كالّذي استَهْوَتْهُ الشياطينُ في الأرض حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى إيتِنَا " ، { أوْ غير ذلك مِمَّا يُوافِقُهُ في قدر الله تعالى } اهـ ؛ ثمَّ قَسَّمَ الشَّيخ **الشَّبْرَاوِي** السُّلوكَ إلى الله تعالى بالنفس إلى مراحلَ تُشْبِهُ ما ذكرْناه سابقًا وتشبه ما ذَكَرَهُ جمهورُعلماءِ السُّلوك ، وذَكَرَ تحوُّلاتِ كلِّ طَوْرٍ، وجعل لكلِّ طَوْرٍ مِنْ أطوار السلوك النفسي مَحَلاً و حَالًا وأخلاقًا ووَارِدًا وذِكْرًا وهُوَ الدَّواءُ إنْ الْتَزَمَ به بتوجيهاتِ شَيْخِه استطاع أنْ يَرتقي للمرحلة المُوالية ؛ ويختلف باختلاف السَّالِك وأهدافه ، ويختلف باختلاف المشائخِ أيضًا ، أجْمَلَهَا كما يلي وهو تفصيلٌ لِمَا ذَكَرْنَاهُ سابقًا :

1- الـنفس الأمّـارة / سَـيْرُها إلـى الله تعـالي / عالَمُهـا الشّـهادة / مَحَلُّهـا الصَّـدر / حالُهـا المَيْـلُ / وارِدُهـا الشَّـريعة أوْ مقـامُ الإسـلام : هـذه الـنفسُ هـي النَّاطقـةُ فـي الإنسـان وظاهِرُهـا فيـه ، وهـي القلـب فـي باطِنِـه ، كانـتْ أوصـافُها محمـودةً فـي الفِطْـرةِ ثـم تَبَـدَّلت إلـى مذمومـةٍ لَمَّـا أُهْـبِطَ الإنسـانُ لأرْضِ الخِلافـةِ ورُدَّ إلـى أسـفلِ سـافلينَ ابـتلاءً واختبـارًا ، فصـارتْ لا تَتَمَيَّـزُ عـن الحيوانـات إلا بالصُّـورة ، وصـارَ الشّـيطانُ جُنـدُها فـلا يقـدِر الـدّخولَ لقلـبِ الإنسـانِ إلا بواسـطتها ، لأنَّهـا لا تُمَيِّـزُ بـين الشّـرّ والخيـر وبـين واردِ الحـق ووارِدِ الباطـل ، فـإنَّ الشّـياطينَ يُوحـون إلـى أوليـائهم وعلـى رأسِ أوليـائهم هـذه الـنفسُ الأمّـارة ، ومادامـتْ لـم يَكُـنْ وحيُهـا كتـابٌ وسُـنَّةٌ كـان وحيُهـا شـيطانٌ وخـذلانٌ ، فهـي أَعْـدَى أعـداءِ الإنسـان وأحبُّهـا إلـى قلبـه الغافـلِ ، ودائمًـا تُـردِّدُ عليـه شـعارها الشـهير : أرحـامٌ تَـدْفَعُ وأرْضٌ تَبْلَـعُ ، حتـى توقِعَـه فـي فَـخِّ التَّسَلْسُـلِ ولا يُبـارِحُ مكانَـه لـئلاّ يَنْطَلِـقَ إلـى الله ، وفـي هـذا المَقـام علـى العبـد ألَّا يشْـتَغِلَ بـالعلوم مِـنْ غيـر علـومِ الشَّـريعةِ إلَّا بعد تَرَقِّـي الـنفسِ عَـنْ مَحَـلِّ الأمّـارة ، بالسُّـلوك علـى يـدِ شـيخٍ مـاهِرٍ ، وفـي هـذا المقـام أيضًـا تَتَـرادَفُ علـى العبـدِ حالتـان : الخـوف والرَّجـاء ، ثـمّ فـي المقـام المُـوالي يُصْـبِحُ الخـوفُ قَبْضًـا والرَّجَـاءُ بَسْـطًا ، ثـمَّ فـي المُـوالي يُصبِح القَـبْضُ جَـلَالًا والبَسْـطُ جَمَـالًا ، وفـي الـنَّفس الكاملـة تُصبحُ الوَسَـطِيَّةُ سَـيِّدَةُ المَوْقِفِ تَزِنُ الجَلالَ والجَمَالَ بِمَوَازِينِ الكَمَالِ .

2- النفس اللّوّامة / سيرُها لله تعالي / عالَمُها البَرْزَخُ / مَحَلُّهَا القلب / حالُها المَحَبَّة / وارِدُها الطَّريقة أو مقام الإيمان : قد يبقى معها بعضُ أوصاف الأمّارة ولكنَّها مع هذه الأوصاف ترى الحقَّ حقًّا والباطلَ باطلًا غالبًا ، وتُمَيِّزُ بين المذموم والمحمود ، ولَها أعمالٌ صالحةٌ مِنْ قيامٍ وصيامٍ وصدقةٍ ولكنْ مع وجود العجب والرياء الخفِيّ ، فإنَّ العمّال كثيرٌ والمخلصون قليلٌ ، والمخلصون على خطرٍ عظيمٍ ، فغالِب العابدين والسَّالِكين يَغْلِقُون ويَقِفون في هذه المرحلة مِنَ النفس وينقطعون ، فصنعةُ اللّوامة أنّها تُشهِد صاحبَها معتزليًا تُريه أنَّه هو صانعُ وخالقُ أفعاله وإنجازاته حتى الدِّينيَّة منها ، فإنْ شَهِدوا أنَّ الله تعالى هو الفاعلُ ، شَهِدوا ذلك مِنْ غيرِ وَجْهِ الإخلاص كما يَجِبُ ويَليقُ به تعالى ، ومِنْ هنا ضرورةُ المُسارعة في السُّلوك العمَلي التَّطبيقي عوض الإكتفاء بالكتب والمحاضرات التي تُلقَى هنا وهناك عن النفس دون أن يجد صاحبُها أيَّ تغييرٍ ، فإنْ تخلَّصوا مِنْ صفةٍ مذمومة في يومٍ اتَّصَفوا بها غَدًا، ولا يَزالون كذلك ماداموا لم يَتَطَرَّقوا للسُّلوك مع أهله عملًا وحالًا ، حتّى يُفاجأهم الأجَلُ وهُمْ لم يُحَقِّقوا حتَّى عُشُرَ الطَّريق إلى الله تعالى بالإخلاص إليه ، وأغلبُهم يَملأ بطنَه وتَتقوّى بَشَرِيَّتُهُ ويُمَكِّنُ الشيطانَ مِنْ دَمِهِ المَليء بالطَّعام فيَجْري مَجْراهُ ، ثمَّ إنْ جاء وقت العبادة قام لها مُتثاقلًا ، ويَنطبِقُ عليهم لسانُ الشّاعر :

اَتَّفْقوا عْلَى الدِّينْ تَرْكُوهْ *** تْعَاتْدُوا فَ الْمَالْ وَالْكَسَاوِي

اَلثُّوبْ مَنْ الْفُوقْ غَسْلُوهْ *** وْخَلّآوْ الْقَلْبْ خَاوِي

و لاشكّ أنَّ من تَمَكَّنَ منه الشيطانُ وجَرَى مَجْرى دَمِهِ كَما يَجْري الطعامُ فيه تَلَبَّسَ بالصِّفات التي يُصْعِدُها البُخارُ الفاسدُ للمِزاج والطَّبْع فيَنْطَبِعُ القلبُ به ، وعليْهِ تتْبَعُهُ الجوارحُ فلا يقدر على دفعه بعد استِحْكامه إلَّا أنْ ينتقل للسُّلوك إلى الله مِنْ بدايته وبمراحله مع أهل التَّسليك الذين هم أهلُ الذِّكر ، وإلَّا حتّى وإنْ زالتْ تلك الصِّفةُ المذمومة مُؤَقَّتًا بسبب خوفٍ أو شَوْقٍ لحقَهُ مِنْ سماع خطبةٍ بليغةٍ أو درسٍ مؤثِّرٍ أو سماعِ أهوالِ القبر والقيامة أو سماع جمالِ الجنَّة لكنَّه خوفٌ وشوقٌ عارِضٌ لأنه لم يتَكَمَّلْ بالشَّرط الثَّالث للسُّلوك بالنفس كما ذكرناه في المقدمة وهو الصُّحبةُ الصَّالحةُ المُصلِحةُ ، ومَنْ لم ينفعْكَ لَحْظُهُ لمْ يَنْفَعْكَ لَفْظُهُ ، فإنَّ الوصفة الناجحة التي تُوازِن بين جناحيْ الخوف والشَّوق اللّازمان للعبودية والسَّير بهما إلى الله تعالى هي صُحبةُ شيخٍ يُعينُك على صَرْفِ هاتين الطاقتين في مَسْلَكِها الصَّحيح ، إذْ لا يكفي الوحْيانِ حتى يُعْمَلَ

بهما مَطِيَّةً لله تعالى كمجرَّدِ تطبيقٍ ظاهِريٍ أوْ لِساني فقط ، فإنْ لم يكن ثَمَّ شخصٌ سار وطَارَ بجناحي الخوف والشوق تَدرَّب على يديه وهو الذي تدرّبَ على يد شيخٍ سابقٍ له إلى أنْ تصل سلسلةُ التَّدريب إلى تدريبِ الرسول عليه السلام لأصحابه زَمَنَ النُّبُوَّةِ ، فهذا هو الميراثُ النبويُّ الذي سَرَى في سِرِّ هذه الأمَّة وأئمّتِها لم يسمعْ به نجومُ الفضائيات والمُحلّلين في وسائلِ الإعلام العربية والأجنبية لمَّا يُريدون الكلامَ عن الإسلام ، فالأمم السَّابقة ما إنْ ينتهي تدريبُ نبيّها لها بموته حتى يَنْفَرِطَ عَقْدُ تلك السِّلسلة ثمّ يأتي نبيٌّ آخر يُجَدِّدُهَا ، حتّى خُتِمَتْ الحَلقة بسيّدنا رسولِ الله عليه السلام في أُمّته ، وهو أركانُ مقام الإحسان الذي لم يَكُنْ سوى لهذه الأُمَّة ، أيْ أركانُ مقامِ الإحسان التي ذكرناها سابقًا لَمّا حَدّدْنا برنامجَ مادَّتِه : التَّرقِّي بين الواحدية والأحدية والفردانية وعُلومِها ، وتُطَبَّقُ ببرنامجِ التزامٍ قُلْنَا أنَّ مادَّتَه : ذِكْرٌ باجتماعٍ وخُشوعٌ باستماعٍ وتَحَمُّلٌ باتِّباعٍ ، مَنْ حَقَّقَهَا حَقَّقَ مَقامَ الإحسان بإذنه تعالى ، ولكنْ نَذكرُ بعضَ وظائفها التي قَرَّرَها علماءُ السُّلوك واخترْنا لك أيُّها القارئُ الكريم هذا التَّدريبَ ، ولكنْ اعلمْ أنّه لا يَصِحُّ منك حتى تتَّصِلَ بمن ذَكَرْنا مِنْ شيخٍ أو عالِمٍ مِنْ أهلِ الله تعالى مُتَخَصِّصٍ يُريكَ مِصْداقَ ما ذكرناه ، وهذا التَّدريبُ سَمَّوْهُ بحِلْيَةِ الأَبْدالِ الّتي مَنْ حَقَّقَها تَنْشأُ عنه صالحُ الأحوال في العادات والعبادات على الوَسَطِيَّةِ والإعْتِدال ؛ فالأمرُ يتعلّقُ بالمُجاهَدةِ التي قال فيها تعالى " والَّذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنَا وإن الله لَمَعَ المُحسِنين " وهو الجهادُ الأكبر الذي ذكرنا أنَّ النبي عليه السلام كان يُسوّي فيه القلوبَ قبل الصُّفوفِ كما في جهادِ الكفّار، مَنْ حَقَقَه على يدِ أهله مِنْ أهلِ القرآن الذين هُمْ أهلُ الله وخاصَّتُه ، استطاع أنْ يَترَقَّى مِنْ أَمَارَةِ النّفس ولوَامَتِهَا إلى نفْسٍ مُطمئنَّةٍ ، ورَجَعَ مِنَ الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، فجَعلوا لذلك إذن سِتة أصولٍ : تقليلُ الطعام وتقليلُ المنام وتقليلُ الكلام والعُزْلة عن الأَنام والذِّكْرُ على الدَّوام والفِكْرُ على التَّمامِ ، وموجِبُها كما ذكرنا وجودُ الصُّحبة ، وإلاّ لمْ تَصِحّ ولم تَرْتَقِ عنْ لوَامَةِ وأَمَارَةِ النفس ، كما يلي :

تدريب : <u>حِلْيَةُ الأبْدال التي يَنشأُ عنها صالِحُ الأحوال</u> :

	العزلة	الجوع	الصّمت	السّهَر
حالُه	وحشة القلب عن الخلق	الخشوع	النّطق بالصواب	تعميرالأوقات ، فإنّ الوقت مَقْتٌ
مَقامُه	الأُنس بالله تعالى	المقام الصَّمداني	الوحيُ الرباني بأنواعه	مقام القيّومية ، فيُصبح بالتوحيد قائمًا بين التجريد والتفريد ، قال تعالى : " والّذين هم بشهادتهم قائمون "

والشَّـرطُ أنْ يكـون فـي عزلتـه وصـمته وجوعـه وسـهره مُختـارًا ولـيس مُضـطرّا ، وإلا فهـو مجرّد عـادةٍ لا تصحّ في شرائعِ الإسـلام وهـو أيضـا مجـرّد عيشُ نفسٍ ، ولكـلٍّ مِـنْ هـذه الأركـان الأربعـة فوائـد يَرثـهـا مَـنْ حققهـا لـذلك لـن نُفَصِّـلَ فـي ذلـك ، وإنمـا نُشـير إلـى واحـدةٍ رئيسـية فـي كـلّ منهـا :، فأمّـا العزلـةُ فتـورث لِمَـنْ حقَّقهـا بتوجيهـاتِ شـيخِه معرفـة حقيقـةِ الـدنيا ، وأمَّـا الجـوعُ فيـورِث معرفـةَ الشـيطان ، وأمَّـا الصَّـمتُ فيـورِثُ معرفـةَ الله تعـالى ، وأمَّـا السَّـهَرُ فيـورِثُ معرفـةَ الـنفس فـي آخِـرِ الأمـر لَمَّـا يكـون مُتَحققـا بمقـامِ القيُّوميـة الـذي يَجِدُه صـاحبُ الـنفس الكاملـة فيقـوم بالخِلافـة الإنسـانية فـي أحسـن صُـوَرِها بمقـامِ الإحسـان القـائمِ فـي قلـبِ الإنسـان ، مُصَـدِّقًا قـولَ ربّـه تعـالى : " والـذين هـم بشـهادتهم قـائمون " وهـي غيـرُ المعرفـةِ الموروثـة فـي مقـام الصَّـمت قَبْلَـهُ كمـا وَجَـدَهَا مَـنْ حَقَّقَهَـا ، وإنَّمـا هـي سَـبْقُ معرفـةِ الله تـورِثُ معرفـةَ الـنفس ، ومعرفـةُ الـنفس تـورِثُ معرفـةَ اللهِ مَـرَّةً أخـرى غَيْـرَ الأُولـى ، فـلا يَـزالُ بـين معرفـةِ نَفْـسٍ ومعرفـةِ رَبٍّ ثُـمَّ معرفـةُ نَفْسٍ وهكذا دُنْيَا وأُخْرَى دون وقوعٍ في الدَّوْرِ والتَّسَلْسُلِ ؛

واعلـمْ أنـك فـي هـذا المقـام مـن الـنفس اللوامـة تكـونُ كثيـرَ الخـواطر كـأكثر مـا تكـون مُتشَـعِّبَة ووسوسـة خصوصًـا عنـد الـذِّكْرِ بـين الجَهْـرِ والخَفـاء ، أمّـا بـذِكْرِ الجَهْـرِ فتَقِـلُّ الخـواطر عـادةً ، كلّمـا قَلَّـتْ كلّمـا انْكَشَـفَتْ عجائـبُ القلـب وأسـرارُه ، وذلـك هـو بوّابـةُ عـالَمِ المِثـال وهـو عـالَمٌ غيـر الـذي كنـت فيـه مِـنِ نَفْسِكَ الأمّـارة ، فهـو أوَّلُ مقامـات المّقـرَّبين حسـب درجـة انْكشـاف القلـب بـين

حُجُبِ النفس ، وفيه يَرى العابد حسب درجة تَحَلّيه بحِلْيةِ الأبدال التي ذَكرْناها ، الأمورَ التي لا تُدْرَكُ بالحَواسِّ الخمس ولا بالتَّعليم ،

ثمّ اعلمْ أنَّ قانون التَرَقّي مِنْ هذه النفس اللوامةِ إلى المطمئنةِ لا يَكونُ إلاّ على يدِ شيخٍ مُدَرَّبٍ مُؤَهَّلٍ مِنْ أهْلِ الذِّكْرِ خبيرٍ بأحوال هذا الشَّأْنِ ، وكذلك التَّرقّي مِنَ المطمئنة إلى الرَّاضية يَحتاجُ لأستاذٍ أكمل مِنَ الأوّل وأعْلى منه ، أمَّا التَّرَقّي مِنَ النفس الرَّاضية ثمَّ المَرْضِيَّة إلى الكاملة فلا يَحتاجُ فيه إلى شيخٍ سوى القليلُ من السّالِكين كما سنذكُره إن شاء الله ،

وقد أقسم الله تعالى بهذه النفس في كتابه بعد أنْ أقْسَمَ بيوم القيامة فقال تعالى : " لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة " ، فَسَّرَ الشيخُ #علاء الدّولة السّمناني في تفسيره [عين الحياة] السِّرَّ الذي قَرَنَ يومَ القيامة بالنفس اللَّوَّامة هو أنَّ كُلَّ مَنْ وَصَلَ إلى قِيامَتِه اليَوْمَ في الدنيا فإنَّ نفسَه الأمَّارة تصيرُ لَوّامةً ، بحيث تَلوم صاحبَها في كلِّ حركةٍ وسكونٍ يَصْدُر منه على خلافِ الحقّ ، ولا تحسبن أنَّ القيامة بعيدةً عنك ، بل لو كُشِفَ عنك غطاؤُك الذي في نفسك الأمّارة _ وهو ما ستكتشفه فعلًا بإذنه تعالى عند سَيْرِكَ بهذه المرحلة من النفس ، وفيها ينكشف حاجِزُ الخوف الذي يسجن النموذج الباطل في عقلك الباطن ، والذي جعلكَ عالِقًا في دائرة الرَّاحة _ لشَاهَدْتَ القيامةَ أقربَ إليك مِنْ شِراكِ نَعْلِكَ { ولذلك ذكرنا في التدريب على حلية الأبدال الذي قدَّمْناه كيف أنَّ العزلة تورِث معرفةَ الدنيا ..} قال تعالى : " اقترب للنّاس حسابهم وهم في غفلة مُعرضون " وقال أيضا : " اقتربت الساعة وانشقّ القمر وإن يروا آية يُعرضوا ويقولوا سِحْرٌ مُستمِرٌّ " ، فلوامتها دليلٌ على ظهور نورِ تَذَكُّرِ الآخرة في نفسِ العابد ، وأيضًا علامة على قِيام نفسه عَنِ العَوائِدِ والضَّلالات في العقائد والعبادات ، واستعداده لِصِراط قيامةِ النفس وتَسْوِيَتِهِ وهو في الدنيا ، وبقدر ذلك يكون سهولةُ المُرور على صراطِ قيامةِ الآخِرةِ ، وهذه العَلامة اللَّوّامة تنفع صاحبَها ما دامت معه آلاتُ الكَسْبِ مِنْ جَوارِح وأعضاء ظاهِرة لتَعتَذِرَ وتَتُوبَ ، وأمَّا بعد نَزْعِ الأَلَة عنها بالموت فلا تنفع مَلامَتُها إلا ندامةً وحَسْرَةً وحَيْرَةً وعذابًا ، ولذلك سيقولُ الشيطانُ في الآخرة لمن لم يُحَقِّقْ هذا المقام في الدنيا : " فلا تلوموني ولوموا أنفسكم "، إذْ ذلك الَّلوْمُ هو وقود عذابِ الآخرة ، فالمُؤمِنُ نَفْسُهُ تَلومُه في الدنيا ليَرتقي بها درجاتٍ ، والكافرُ أو مَنْ تَخَلَّفَ عنْ سُلوكِ النفسِ فنَفْسُهُ تلومُه في الآخرة لينحطَّ في النار دَرَكاتٍ ، ولذلك قالوا يوم القيامة : " لمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ ولَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين وكُنَّا نخوض مع الخائِضين وكنا نكذِّب بيوم الدِّين حتى أتانا اليقينُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ " : لم يأتهم اليقين في الدُّنيا لِتَلاعُبِهِمْ وتَسَاهُلِهِمْ في تَكْميلِ النفس بِحَقِّ اليقين وهو حَقُّ السُّلوك بها على يدِ أهلِ اليقين إلى رَبِّ العالمين . فمَنْ حَاسَبَ

نفسه في مرحلتها اللّوّامة مادام في الدُّنيا لم يُحاسِبْهُ ربُّه تعالى في الآخرة ، فإنَّ الكريمَ لا يُكَرِّرُ الحِساب على شيءٍ مَرَّتَيْنِ كما قال تعالى : " وسنقول له مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا " .

3 – النفس المطمئنة أو الملهمة : سَيْرُها على الله ومَعَ الله تعالى / عالَمُها الأرواح / مَحَلُّها الرُّوح والسِّرُّ الذي هو باطِنُ الرُّوح / حالُهَا الطمأنينة في العبادات والعادات / وَارِدُهَا أسرارُ أركانِ الإسلام الخمس خاصّة أسرارُ الصّلاة والزّكاة والصّوم : إنَّ سلوك النفس هو الإحْصاءُ المقصود بقوله عليه السلام : " إن لله تسع وتسعون إسمًا مَنْ أحصاها دَخَلَ الجنة " ، ونحن هنا في مقام النفس المطمئنة تكون النفس قد قطعت نِصف عمليَّة الإحصاء لهذه الأسماء الإلهية ، وهنا تُصبح النفسُ تَسمعُ بغيرِ آلةٍ لَمَّةَ وأخبارَ الشيطان ، ولَمَّةَ وأخبارَ المَلَكِ بعد أن كانت في المقام الذي قبل هذا لا تَسمعُ ولا تُبصِرُ شيئًا لأنها كانت قريبةً مِنْ مقام الأنْعام والحيوانات ، فهي هنا أقْربُ ما تكون على نَفْسِ صاحبِها بصيرةٌ ، وهو مقامٌ صعبٌ يَحتاجُ السَّالِكُ فيه إلى مُوَجِّهٍ خَبيرٍ يُخْرِجُهُ بهِمَّتِهِ وإلْهامِهِ مِنْ ظلماتِ الشُّبهاتِ { بعد تَحَلُّلِهِ مِنْ ظُلماتِ الشَّهوات في النفس اللّوّامة و الأمّارة } إلى نورِ التَّجَلِّياتِ الأسمائية الحُسنى المُناسِبَةِ لهذا المقام ، فيَتَحَرّى بتوجيهِ شيخِه التَّجَلِّياتِ التي تُناسِبُ استعدادَه ، ويَتعرَّضُ للنَّفَحات المُناسِبة لطبيعةِ مقامِ النفس المطمئنة ، فإنَّ العبد وهو في هذا المقام ما زال في لَوْمٍ وشَكٍّ وحيْرةٍ وعَدَمِ يَقينٍ وقِلَّةِ رُسوخٍ ، لا يُفَرِّق بين الجَلال والجَمال الذي كان مِنْ قبلُ خوفًا وقَبْضًا ، ورَجاءً وبَسْطًا في المَراحِل السَّابِقَةِ ، ومازال لا يَتَبَيَّنُ ما ألْقاهُ المَلَكُ وما أَلْقَاهُ الشيطانُ ، أيْ هو في الدَّرجة الثانية مِنَ البصيرة التي ذكرناها سابقًا وهي * بصيرةٌ تُثَبِّتُ الإشارةَ * مادام لم يَتَخَلَّصْ مِنْ بَقايا الطِّينِ والطَّبْعِ الأرْضِيِّ ، فيُخْشَى عليه إنْ غفل في هذا المَقام الصَّعب أنْ يَهْوَى إلى أسْفلِ سافِلِينَ الذي جاءَ منه أوَّلَ مَرَّةٍ لَمَّا كانت نَفْسُه أمّارةً بالسُّوء فيَرْجِعُ إلى ما كان عليه مِنَ الأكل الكثير والشُّرب الكثير والنَّوم الكثير ومُخالَطةِ صُحبة السُّوء والغِناء والمَعازِف وترك الصلاة ونحو ذلك ، خاصَّةً إذا لم يُحَقِّقْ شروط التَّوبة في المَقامَيْن السَّابِقَيْنِ ، وربَّما يَزعُم أنَّه مُوَحِّدٌ مُوقِنٌ مُكَاشَفٌ بحقائق الأمور والأشياء ، ويَظُنُّ غيرَه ضَالِّين وهالِكين ، وأُطْلِقَتْ نارُ الطَّبْعِ الأوَّلِ على فُؤادِه فأحْرَقَتْ ما كان في قلبه مِنْ شَوْقٍ وسُلوكٍ وخَوْفٍ مِنْ رَبِّه تعالى ، وربَّما صار شيطانًا مُضِلاً لاحَتْ له خيالاتٌ شيطانيةٌ ظَنَّها تَجَلِّياتٍ رَحمانيَةٍ ، وهذا بَعْدَ أنْ كانت بَشَرِيَّتُهُ قَدْ رَقَّتْ ورُوحانِيَّتُهُ قَدْ تَرَقَّتْ ، وزَالَ عَنْ قَلْبِهِ صَمَمُهُ وعَمَاهُ ، وقَرُبَ فَرَجُهُ وفَتْحُهُ ولَمْ يَتَبَقَّ له إلّا القليل حتَّى يَدْخُلَ حَضْرَةَ المَلِكِ الجَليلِ ، ولاحَتْ له بَشائِرُ التَّوْحِيدِ بِقُوَّةٍ

المُجاهَـداتِ والتَّجْريـدِ ، وسـببُ هـذه المصـيبة التـي أُصـيب بهـا هـذا السَّـالِك بعـد اقترابـه مِـنْ مقامـاتِ القُـربِ الإنسـاني أنَّـه كـان قريـبَ العَهْـدِ مِـنْ مَقامِـه الأول وهـو مقـام الـنفس الأمّـارة ، وبسـبب تواصُـلِ المُجاهَـدات التـي ذكرْناهـا فـي تـدريبِ الـنفس اللوامـة وأعطينـاه مثـالًا بالعزلـة والجـوع والصـمت والسـهر أوْ حليـةُ الأبـدال التـي يَظْهَـرُ عنهـا صـالحُ الأحـوال ، انْكَشَـفَتْ عنـه بعـضُ الحُجُـب عَـنْ مِـرْآةِ قلبِـه وبَيْـتِ رَبّـِهِ ، وزَالَ بعـضُ الحَـرَجِ والخـوفِ الـذي كـان يَمنعُـه مِـنَ المعاصـي ويَبْعثُـهُ علـى الطَّاعـات ، وقَـلَّ مَـنْ إذا زَالَ خَوْفُـهُ أَنْ يَثْبُـتَ فـي اتّباعِـهِ للشَّـريعةِ ، صَـالِحًا كـان أوْ طَالِحًـا ، فالواجـبُ عليـك فـي هـذا المَقـامِ كمـا فـي الـذي قَبْلَـهُ مُتابَعَـةُ تَوجيهـاتِ شيخِك ومُدَرِّبِكَ المُشْرِف عَلَيْكَ ولا تُخَالِفَه أبدًا ، فإنَّ صوابَ التِّلميذ خَطَأٌ فَكَيْفَ بِخَطَئِه ،

إذْ فـي هـذا المقـام عـادةً مـا تكـونُ الـنفسُ مائلـةً للإنطـلاق وعَـدَمِ المُبـالاةِ وتُصَـوِّرُ لصـاحبِها أنَّ ذلـك حُرِّيَّـةً ونحـو ذلـك ، والمطلـوبُ مُخالفتُهـا إلـى أنْ تَصـيرَ مُطمئنـةً بـذِكْرِ الله تعـالى مـع جَماعـةِ الـذِّكْرِ برئاسـةِ شـيخك وشَـيْخِهِمْ ، وهـذا حتَّـى يَـذْكُرَهَا رَبُّهَـا إذا تَرَقَّـتْ بعـد فـي المَقامـات الموالِيـة كمـا قـال تعـالى " فـاذْكُروني أَذْكُـرْكُمْ " ، فـذِكْرُ رَبِّهـا لصـاحبِها هـو الـذِّكْرُ الأكبـر الـذي يَحْجِزُهـا عـن الشِّـرْكِ بسـواه أوْ العـودةِ إلـى مَعاصـيه ، فعلـى السَّـالِك ألَّا يَغْتَـرَّ أبـدًا بمـا لَاحَ لـه مِـنْ أنـوارِ وبَشـائرِ التَّوحيـدِ ، ولا تجعلهـا سـببًا لإرتِـدادِك وانْقطاعِـك ، بـل كُـنْ مُسـتخدِمًا لـه لتمزيـقِ مـا تَبَقَّـى مِـنَ الْحُجُـبِ بـلا التفـاتٍ لِمـا يَلـوحُ لـك مِـنَ البَـوارِقِ النُّورانيَّـةِ لأنَّهـا هِـيَ نَفْسُ مـا كُنْـتَ تسـتخدمه مِنَ القَواطِعِ التي وَرَّطَتْكَ في المعاصي قبل بدايةِ سُلوكك فاحذرْ ،

والحاصـلُ أنَّ هـذه المرحلـة مِـنْ مراحـلِ سُـلوكِ الـنّفس مقـامٌ جـامِعٌ للخيـر والشـر معًـا ، بَرْزَخُـهُ امتِحـانٌ للقلـب أيْـنَ يَتَقَلَّـبُ ، فـإنْ اسـتطاع تَخْلـيصَ الخيـر مِـنَ الشَّـرِّ وغَلَّبَـهُ عليـه وَاصَـلَتْ الـنفسُ التَّرَقِّـي والنُّمُـوَّ، وإنْ كـان العكـسُ تَقَهقـرَتْ بصـاحبِها وربَّمـا رَجَعَـتْ عـن قريـبٍ إلـى أسـوأ مِـنَ الحـالِ الـذي بَـدَأَ بـه صـاحبُها السُّـلوكَ فـي مَقـامِ الـنفس الأمّـارة : " يُضِـلُّ بِـهِ كَثِيـرًا وَيَهْـدِي بِـهِ كَثِيرًا " ،

فمِـنْ علامـاتِ النَّجـاح هنـا أنْ تَـرى باطنَـك مَعمـورًا بالحقيقـةِ الإيمانيـة ، وظـاهرَك مَعمـورًا بالشَّـريعة الإسـلامية ذاتًـا وصـفاتًا وأفعـالًا ، وبَشَـرِيَّتُكَ مُشْـرَبَةٌ بـأخلاقِ النبـيّ عليـه السـلام شِـبْرًا بِشِـبْرٍ بَـلْ نَفَسًـا بِـنَفَسٍ ، فيكـونُ ظـاهرُك مُحَقَّقًـا مُتَلَبّسًـا بالطَّاعـاتِ ومُتَجَنِّبًـا الكَبـائرَ بعـد الصَّـغائرِ واحِـدةً واحِـدَةً فـي كُـلِ خلـوةٍ وجلـوةٍ ، بحيـث لَـوْ تَكَلَّفْـتَ تَذَكُّرُهـذه الكَبـائر والصَّـغائر لَمَـا خَطـرتْ أصـلًا ، وأيضًـا أنْ تـرى باطنَـك مُتَلَبّسًـا بسِـرّ الإسـلام الصَّـحيح الـذي أُنْـزِلَ علـى محمّـدٍ سِـرًّا بِسِـرٍّ ورُكْنًـا رُكْنًـا ، بحيـث لـو تَكَلَّفْـتَ الإنْفِكـاك عـن هـذه الحَقـائق والأسـرار والأركـان لَمَـا اسْـتطعتَ إلـى ذلك سبيلًا ، و إنْ شاءَ ربُّك وَفَّقَكَ لتَهْدي خَلْقَه بتلك الأسرار ، وإنْ شاءَ سَتَرَكَ وطَوَاكَ ،

وعلامـةُ الفشـل فـي هـذا المقـام أنْ تَغلـبَ الحقيقـةُ الإيمانيـة دون الإسـلامية ، فربَّمـا لأجـل ذلـك تَـرَكَ بعـضَ الطَّاعـات ولا عجـب أنْ يَرتكـبَ بعـضَ المعاصـي أيضًـا ، وذلـك لأنَّـه لَمَّـا قَـوِيَ عليـه شـهودُ الحقيقـة ورَأى أنَّ أفعالَـه جاريـةٌ علـى وفـق إرادةِ الله وكأنَّـها مكتوبـةٌ عليـه انْحَجَـبَ بـأنوار الحقيقـة عـنْ أسـرارِ الشَّـريعةِ والطَّبيعـةِ ، فتَوقَّـفَ عنـد البَـوارِقِ التـي وافَقَـتْ طَبْعَـهُ كمـا فـي الـنفس الأمّـارة تمامًـا ، فخسِـر دنيـاه وآخرتَـه بدِينِـهِ ، وتَجاهَـلَ البَـوارِقَ التـي هـي مُـرادُ الحـقّ تعـالى ، وصَـدَقَ عليـه إبلـيسُ ظَنَّـهُ ، تمامًـا كمـا صَـدَقَ هـذا الظَّـنُّ فـي حالـةِ مَـنْ تَقـاعَسَ عَـنْ تَطريـقِ وتَسليكِ نفسِه ،

لـذلك اعلـمْ أنَّ رِضَـى الله تعـالى وتَجَلّياتِـه لا تصـل إلـى العبـد إلا مِـنْ بـابِ الطاعـات ، وأنَّ سـخطه وطَـرْدَهُ لا يصلـه إلَّا مِـنْ بـابِ المعصيات مِـنْ غيـر مُحابـاةٍ بـين هـذا وذاك ، لأنَّ الأمـر الإلـهي ينـزل بالتسـاوي علـى كـلِّ نفسٍ ، فبقيَـتْ الكـرةُ فـي مرمـى المُتَنـزَّلِ عليـه ونَوعيـةِ نفسِـه هَـلْ هـي أمّـارةٌ أمْ مطمئنـة أمْ كاملـة ، وهـي مَـنْ تقـومُ ببـاقي العمـل كمـا أراد لهـا ربهـا ، يَـرى ذلـك مَـنْ حَقَّـقَ مقـام النفس المطمئنة جهارًا بعد أنْ رآه سِرًّا وحِجَابًا ،

والنفسُ في هذا المقام لا يَنقطعُ التفاتُها عن المَقاميْن السَّابقين لأنَّ الطَّبعَ يَغلبُ التَّطَبُّع ، فهي تَترقّبُ غفلتك ، فإنْ غفِلتَ عن سِياستها بسياسةِ شيخِك لها و إشاراتِه عليك فيها عَادَتْ إلى عاداتها الأولى ، ولذلك عادةً ما تُساقُ وهِيَ في هذا المقام بالشَّوق إلى لقاءِ الله تعالى وشِدَّةِ محبَّته والإجتماعِ مع الأحِبَّةِ مِنْ أنبياء ومرسلين وشهداء وصالحين والتَمتع بجَمال وجهِ الله تعالى يوم تلقاه ليَفْنى كلُّ جميلٍ أحَبَّتْهُ في الدُّنيا ، ومتى ظَنَّتْ النفسُ أنها وَصَلَتْ لمحبوبها الحقيقي بلا دليلٍ أو شاهِدٍ كان ذلك قاطِعًا لها عن التَّرَقِّي كما ذكرْنا ، وفي هذا المقام أيضًا يتبين صدقُ العابِدِ في اتباعه للنبي عليه السلام في أحواله وأفعاله ، فإنْ اتَّبَعَ إشاراتِ نبيِّهِ وشيخِهِ المُقتدي بنبيِّه انْمزج بإذن الله تعالى وحيُ الكتاب ووحيُ السُّنَّة بلَحْمِهِ ودَمِهِ وخلايا جِسْمِهِ ، فيَذْكُر الله كثيرًا ويُسبّحَه كثيرًا ، لأنّ كلَّ كيانه يُشارِك في هذا التَّكثيرِ للذِّكْرِ والتَّسبيحِ بعد أنْ كان يَذكرُ أوْ يُسَبِّحُ بلسانه فقط مِنْ قَبْلُ أو بِقَلْبٍ لَاهٍ سَاهٍ ، وهذا هو انمزاجُ عالَمِ خَلقِك بعالَمِ أمْرِكَ ، واتحاد الوعي باللّاوعي ، وحينها فقط تَجْذِبُه جذبةٌ إلهيةٌ ربانيةٌ أخرى غير الجَذبةِ الأولى التي نَبَّهَتْهُ للسُّلوك إلى الله تعالى في بدايةِ النفس الأمّارة ، وهذه الجَذْبَةُ هي التي تَفْتَتِحُ سلوكَ النفس المطمئنة إلى النفس الرَّاضِية وتجعلُ العبدَ يَعجل إلى ربّه ليَرْضَى ، أيْ رِضَى رَبّه عَنْهُ بعد رِضَاهُ هو عَنْ رَبِّهِ ، كما قال موسى عليه السلام : " وعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّي لِتَرْضَى " .

4- الـنفس الرَّاضِـيَةُ : سَـيْرُها فــي الله تعــالي / عالَمُهَــا الَّلاهــوت / مَحَلُّهَــا الُّلــبُّ / حالُهــا : مَحْوُ الصّفات البَشرية حتّى تَنتهي إلى البقاء بالله تعالي / ليس لها وَارِدٌ :

هـذه المرحلـة مـن الـنفس لـيس لهـا وارِدٌ لأنّ الـوارِدَ لا يكـون إلا مـع بَقـاء الصِّـفات ، وقـدْ زالـتْ فـي هـذا المقـام حتّـى لَـمْ يَبْـقَ لهـا أثَـرٌ ، فصـاحبُها هنـا فَـانٍ بـالإخلاص التَّـامّ الـذي قالَـه ربُّنـا تعـالى " ألا لله الـدِّينُ الخَـالِصُ " ، فلـيس لـه بَقـاءٌ معـروفٌ بنَفْسِـهِ كمـا كـان قَبْـلَ هـذا المَقـام ، ولَا هُـوَ أيضًـا بَـاقٍ بِرَبِّـهِ بَقَـاءً مَعْروفًـا كمـا فـي المَقـام المُـوالي ، فهـي مرحلـةٌ ذوقيـة لا تُفهَـم إلا لِمَـنْ حَقَّقَهَا على يدِ مُرْشِدٍ عارفٍ بالله تعالى ،

وفـي هـذا المَقـام يَتَحَقَّقُ العبدُ بإسْـمِهِ تعـالى " الحَـيّ " ، فيعـيشُ الحيـاةَ الطَّيِّبَـةَ التـي ذَكَرَهـا اللهُ تعـالى : " فَلَنُحْيِيَنَّـهُ حَيَـاةً طَيِّبَـةً " ، وهـي حيـاةٌ وعُمـرٌ ثـانٍ سيعيشـه صـاحبُ الـنفس الراضـية ابتـداءً مِـنَ الآن و إلـى الأبَـدِ فـي جَنّـةِ الآخِـرة بعد عودتـه مِـنْ مـوت الـنفس عَـنْ صِـفاتها المذمومـة والمعاصـي المشـؤومة ، فبَقِـيَ حَيًّـا بصِـفاتِ رَبِّـهِ وعلـى رأسـها صِـفَةُ الحَيـاة ، فهـو مُتَحَقِّـقٌ بـالحَيّ لا بالحيـاة ، وهـذه الحَيـاة المرْضِـيَّةُ لـيس لهـا مِثَـالٌ مِـنْ عـالَم الخَلْـقِ والـدُّنيا رغـم وُجـودِ صـاحبِها فـي الـدُّنيا وبـين الخَلْـقِ ، إذْ صـاحبُها انتقـلَ مِـنْ مَعِيَّتِـهِ تعـالى إلـى مَرْضِـيَّتِهِ بقولـه تعـالى : " ورَضُوا عَنْهُ " ، وبَعْدُ في المقام المُوالي سينتقلُ مِنَ المَرْضِيَّةِ إلى العِنْدِيَّةِ .

5- الـنفس المَرْضِـيَّةُ : سَـيْرُها علـى الله تعـالى / عالَمُهـا الجَبَـروت / مَحَلُّهـا الخَفِـيُّ مِـن عـالم الأمـر الإنسـانيّ / حالُهـا الجَمْـعُ بـين الحَـقّ والخَلْـق / وَارِدُهَـا التَّنْزِيـهُ :

هـذا المقـامُ هـو مَنْبَـعُ الـتَّمَكُّن مِـنَ الإقتـداء النبـوي أثنـاء مُعاملاتـه وعباداتـه فـي الحـقّ تعـالى وفي الخَلْقِ ، إلى أنْ يُصبِحَ صاحبُها قُدوَةً على قدر ذلك التَّمَكُّنِ ،

ثـمّ فـي هـذا المقـام تَعـرِضُ للعبـد حَيْـرةٌ غيـر الحيـرةِ الأولـى قَبْـلَ مَقـام الـنفس الأمّـارة حيـث كانــت الحيــرةُ آنــذاك حيــرةَ إشــباعِ الجَمْــعِ بــين اللَّــذَّاتِ والشَّــهوات مــع سُــرْعَةِ زَوالِهــا وخساسـتها ، وهـي حيـرةٌ توقِـعُ صـاحبَها فـي التَّسَلْسُلِ بـلا هـدفٍ يُفيـدُه فـي خياتـه ، وتُنْـتِجُ لـه الإصـرارَ علـى الأخطـاء والمعاصـي ، لكنّهـا هنـا هـي حيـرةٌ ناتجـةٌ عـن الرُّسـوخ فـي العلـوم والمعـارف الإلهيـة عكـس الحيـرة الأولـى التـي كانـت نتيجـةَ الرُّسـوخِ فـي الجهـل والمعاصـي ، وفـي هـذا المَقـام يُصـبِحُ العبـدُ سَـمْعَ رَبِّـهِ تعـالى وبَصَـرَهُ ويَـدَهُ ورِجْلَـهُ ، وهـذا بعـد انْمِحَـاقِ الصِّـفاتِ المَألوفـة والمذمومـة تمامًـا ، فـإنَّ الله تعـالى لا يَجعـلُ أحـدًا لـه سَـمْعًا وبَصَـرًا وهـو مـازال فيـه بَقِيَّـةٌ مِـنْ حُـروفِ" أنَـا " المذمومـة ، وهـي الشّـوائب المانِعـة للسَّـمع الرَّبَّـاني الحقيقـي ، وهـي نَـواقِضُ الإسـلام والإيمـان قبـل هـذا المَقـام ، لكـنْ هنـا يَنْضـافُ إليهـا أيضًـا انْمِحَـاقُ آخِـرِ الأوصـاف البشـرية التـي تُحْتَجَـزُ تَحْـتَ سِـتْرِهَا النَّفْخَـةُ الرَّبَّانِيَّـةُ ، حسـب مـا تُنتِجُـه تَـدريبات حِلْيَـةُ الأَبْـدَالِ ابتـداءً مِـنَ الـنفس اللَّوَّامـة كمـا ذكرنـاه ، وذلـك هـو الجهـاد الأكبـر الـذي يَمْحَـقُ ويَهُـدُّ بَقايَـا البشـرية المانِعـة مِـنْ كَـوْنِ رَبِّنَـا سَـمْعًا للعبـد وبَصَـرًا ويَـدًا ورِجْـلًا ،

وهذا الإنْمِحاقُ لا تُدْرِكُه العقولُ بمجرد تَسطيرِه في الكتب ، فإنَّ هذه الأمور تُنْقَشُ في الأرواح مباشرةً لا في الألواح ، وهو وَهْبٌ لا كَسْبٌ ، لأنه تأييدٌ إلهي مَحضٌ ليس له مُقابِلٌ مادِّيٌّ فيُفْهَم به . وصاحبُها إنْ خَرَجَ مِنَ الرِّضَى إلى العِنْدِيَّةِ و مِنَ المَعْنَى إلى المَعْنِيِّ فهو مَعْنِيٌّ بقوله تعالى : " رَضِيَ اللهُ عنهم " وقوله : " وكان عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا " و " ارجعي إلى ربِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً " ، بَعْدَ أنْ عَنَاهُ تعالى بقوله : " ورَضُوا عَنْهُ " الذي ذَكَرْنَاهُ في مقام النفس الرَّاضِيَةِ .

6- النفس الكاملة : سَيْرُها بالله تعالى / عالَمُها الوحدةُ بلا كثرةٍ / مَحَلُّها الأَخْفَى كما قال تعالى : [فإنَّه يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفَى] / حالُها البَقَاءُ بِبَقَاءِ الله تعالى في كلِّ شُؤونِ صاحِبِها / وَارِداتُها هي جميعُ وارِداتِ النُّفوسِ السَّابقة مع التحقيق بينها حسب حاجتها للكمال ، وذلك هو الكَمالُ الذي إذا تَخلَّقَتْ به تَحَقَّقَتْ بقوله تعالى : " اليومَ أكملتُ لكم دِينَكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورَضيتُ لكم الإسلامَ دِينًا " : نختصرُ فنقولُ أنَّ صاحبَ هذا المَقامِ تُصبحُ حركاتُه حَسَنَاتٍ وأنفاسُه عبادةً ، مَنْ رآه يُذكِّرُه بالله ولا يَفْتُرُ عن العبادة بجميعِ بَدَنِه ولسانه وقلبه كُلٌّ في مَحَلِّهِ وفي نَفَسٍ واحدٍ لا يَخْتلط ، وهو مُؤَهَّلٌ لتَوصيلِ الخلقِ إلى الحَقِّ تعالى وراثةً نبويةً وسيرةً أحمديةً ، لَمّا يُرشِدهم لطريقِ الله تعالى ويقولُ لهم : ها أنتمْ وربُّكم ، جَعَلَهُ رَبُّهُ دَعْوَةً له تامَّةً ، به يُرْقَى ويُتَرَقَّى لتوحيدِ القلوب على التوحيد الذي هو حَقُّ الله على العَبيدِ ...]

اهـ كلام الشيخ الشبراوي رحمه الله تعالى مع التغطية عليه بشيءٍ من فَهْمِنا القاصِر ؛ وهو كلامٌ مُحَقَّقٌ مِنْ شيخٍ يَعْرِفُ عمّا يَتكلَّم ، وما قاله لا يُساوي تطبيقَ ما قاله ، لذلك السلوك في مراحل النفس لا يتحقق إلا بما بَثَّتْهُ صُدورُ المشائخ لا بما كتَبوه ،

وكذلك لم نذكرْ أذْكارَ كلّ مرحلةٍ ، و التي هي دواءُ كلِّ نفسٍ لتَتَرَقَّى على مَعارِجِ ومَدارِجِ الأسماء الحسنى والصِّفات العُلى ، وبدونه لا يَصِحّ لها سلوكٌ أبدًا ، وأيضًا لأنّ هذا لا يكون بمجرد تسطيرها في الكتب أو الإكتفاءِ بِسَطْحِ الدِّين دون جوهره وعمقه ، فمَنِ أراد ذلك فعليه بأُسِّها وأصْلِها وهو وجودُ مُعلِّمٍ ماهِرٍ وارِثٍ واصِلٍ موصِلٍ ، فهو الذي يُشيرُ للنفوسِ بما تحتاجُه لتَصِلَ لربِّها تعالى حسب كلِّ مزاجٍ وحسب كلِّ طَبْعٍ وهَوًى ، وراثةً ومَهَارَةً عن النبي عليه السلام الذي كان يُسَوّي القلوبَ على اختلاف أمْزِجتها وأهْوائِها فتتَداوى بأقرب طريقٍ وفي أسهلِ فرصةٍ ، فمَنْ وَجَدَ مِثْلَ ما ذكَرْنا فتلك الغنيمةُ الباردة ، ومن لم يَجِدْ فلْيَجُدَّ

، فـإنّ المشـائخ دُعـاةُ التّوحيـد مَبثوثـون فـي كـلِّ مكـانٍ مـن القـارّات الخمـس ، فـي السـواحل والجبـال والصّحاري والوديـان ، و فـي القُـرى والمـدن والأمصـار، لكـنْ اختفـى أغلـبُهم عـن عيـونِ القلـوب لا عن عيـونِ الأبصـار ، ومـن اطلَـعَ اللهُ تعـالى علـى صِـدْقِهِ فـي الطَّلَـبِ أوْصَلَـهُ إليـه بِسَـبَبٍ وبِغَيْـرِ سَـبَبٍ ، فـافهم واحـذر ؛ إذْ الشَّـرطُ الرَّئيسـي لِمَـنْ أراد طريـقَ الوصـول إلـى الله تعـالى وتَطْريـقِ نَفْسِـهِ الأمّـارة التـي غَلَبَتْـهُ علـى أمْـرِهِ أنْ يَجِـدَ الرَّفيـقَ قبـل الطَّريـقِ ، فلـم يهـاجر نبينـا عليـه السـلام إلـى المدينـة إلّا بعـد اتّخـاذِ أبـي بكـر الصّـدّيق صـاحِبًا فنجحـت تلـك الهجـرة المباركـة ؛ وكـذا ضـرورة تقـديمِ الْجَـارِ قبـل الـدَّارِ ، فـإنَّ مَـنْ لَـمْ يَنْفعـك لَحْظُـهُ لَـمْ يَنْفَعْـكَ لَفْظُـهُ ، ومَنْ جَالَسَ جَانَسَ ، هذه أوامرُ الطَّبيب فافهم .

<u>تنبيهاتٌ</u> :

* عِلْـمُ الإحسـان كُلُّـه إشـارَةٌ ، فـإنْ صـارَ عِبَـارَةً خَفِـي . وقـال العلاّمـةُ الطّيبـي فـي حاشـيته علـى الكَشّـاف : (لا ينبغـي للعـالِمِ ولـوْ تَبحّـر فـي العلـم حتـى صـار واحِـدَ أهـلِ زمانـه أنْ يقتـع بمـا عَلِمَـه ، وإنمـا الواجـب عليـه الإجتمـاع بأهـل الله) أيْ أهـل مقـام الإحسـان خاصّـةً (ليـدُلّوه علـى الصّـراط المسـتقيم حتـى يكـون ممّـنْ يَـرَوْن ربّهـم فـي سـرائرهم مِـنْ شـدّةِ صـفاء بـاطنِهم ، وليُخَلِّصـوه مِـنَ الأدْنـاس وليجتَنِـبَ مـا شـابَ عملَـه مِـنْ كـدوراتِ الهَـوى وحظـوظ نفسِـه الأمّـارة بالسّـوء ، وليَسْـتَعِدَّ لفَيضـان العلـوم اللَّدُنِيَـة علـى قلبـه) بعـد تتمـيمِ مراحـلِ سُـلوك الـنفس إلـى مـا شـاء الله (والإقتبـاس مِـنْ مِشـكاةِ أنـوارِ النُّبُـوَّةِ) اهــ بتصـرّف ، فـإنَّ لُبـاب العلـوم كلّهـا مخزونـةٌ فـي مقـامِ الإحسـان ، وكانـت مخزونـةً مـن قَبْـلُ فـي الـنفس قبـل أنْ تُـرَدَّ إلـى أسـفلِ سـافلينَ الإمتحـانِ ، فـالعُلومُ مَكاسِـبٌ ، لكـنّ لُبابَهـا وغاياتهـا فـي الـنّفس والكـونِ مَواهِـبٌ لا دَخْـلَ فيهـا للْجِـدِّ ولا للْكَسْـبِ ، ولا تُنـالُ بقُـوةِ السَّـعْيِ والـذَّكاء والحِيلـة والتّخطيط ، ومـا مِـنْ بـابٍ فـي الـدّنيا مُغْلَـقٌ إلاّ ولـه مفتـاحٌ ، وكـذلك بـابُ مقـامِ الإسـلام لا يفـتح إلا بالإحسـان المُحَقَّـق داخـلَ نفـسِ كـلِّ إنسـانٍ ، وقـالوا أنَّ كـلَّ العلـومِ يُسْـتَغْنى عنهـا إلا علـومُ مقـامِ الإحسـان فـلا يَسـتَغْني عنـه أحـدٌ فـي وقـتٍ مـن الأوقـات ، لأنَّـه مـربطُ فَـرَسِ المُوَحِّـدِين وحِـرْفَتُهُمْ التـي يَعيشـون بهـا ، وبـه تَصِـحُّ وتُصَـحَّحُ عبـاداتُهم ومعـاملاتُهم وأخلاقُهـم ، وعليهـا مَـدارُ حُسْـنِ خـاتِمتِهم ، فـلا يَقْبَـلُ ربُّنـا عبـادةَ جاهـلٍ بـرُكْنِ التَّوحيـدِ الـذي يُعْـرَفُ إجمـالًا عنـد بدايـةِ مقـامِ الإسـلام ، ولا يُعـاشُ ويُعْـرَفُ تفصـيلًا إلا بعـد التأهُّـل لمقـامِ الإحسـان بالسُّـلوك النَّفسـي ، حيـثُ جُـلُّ مباحِـث مقـام الإحسـان هـي مِـنْ قِسْـمِ التوحيـد المُسَـمّى بتوحيـدِ الأسـماءِ والصِّفات وهو أَعَزُّ وأهَمُّ أركانِ التَّوحيدِ ،

واعلـمْ أيضًـا أنَّ أشـرفَ العُلـومِ و أعْلاهـا وأغْلاهـا مـا كانـتْ عبـارة عَـنْ فَهْـمٍ يُقرّبُـك إلـى الله تعـالى بأسـهلِ الوسـائل دون أن يحوجـك فـي معرفتـه إلـى الـدلائل بالضـرورة ، فبـابُ الله تعـالى لا يطرق بالأيـدي والأدِلَّـة وإنَّمـا يُطْـرَقُ بـأعَزِّ شـيءٍ فـي كـلِّ إنسـانٍ هـي نفسُـه وقلبُـه بـلا حاجـةٍ لـدليلٍ بالضَّـرورة إلا دليـل الشَّـرْعِ ، بـلْ دليـلُ الشَّـريعة هـي مـدلولُ الحَقيقـةِ ، وأغلـبُ النَّـاس اليـوم يطلبُـون الـدَّليلَ ولكـنْ بـلا مَـدْلولٍ ، فكـانوا فـي سِجْنِ الأكْـوانِ يَسْـتَدِلُّون بهـا علـى المُكَـوّنِ : فتـارةً يَقْـوَى يَقيـنُهم ويَتَنَـوَّرُ دلـيلُهم وتـارةً يَضـعف يقيـنُهم فتتَكَـرَّرُ علـيهم الخـواطرُ الرَّديئـة والوسـاوِسُ الشَّـيطانية فيَحصـلون علـى الظَّـنِّ القَـوِيِّ ، سـواءً كـان هـذا حـالُ عـالِمٍ أو زاهِـدٍ أوعابِدٍ كُلُّهُم في هذا سَواءُ ،

وهـاهو الإمـامُ الشـيخُ عبـدُ الوهّـاب الشّـعراني رحمـه الله وكـان إمامًـا فـي المـذهب الشـافعي فـي مصـر ، وبحـرًا فـي جميـع العلـوم والفنـون لَمّـا التقـى بشـيخِه الإمـام علـيّ الخـوّاص رحمـه الله تعـالى وكـان أُمِّيًـا ، أمَـرَهُ شـيخُه الخـوّاص الأُمِّـي بِمَحْـوِ كـلَّ مـا كَتَبَـهُ مِـنْ علـومٍ وتعليقـاتٍ علـى الكُتُب وكانـتْ كثيـرةٌ ، وأمَـرَه أنْ يَبيعهـا ويتصـدَّق بثَمَنِهَـا ، فمـا خَلَـصَ لـه السُّـلوكُ بمَقـامِ الإحسـان الحقيقـي علـى يـدِ هـذا الشـيخ إلا بعـد أنْ بـاعَ تلـك الكتـب وبَعْدَ أنْ مَحَـى مؤلّفاتـه التـي صَـنَعَها كمـا ذَكَـرَ المُؤرّخـون لسـيرةِ الإمـام الشّـعراني ، فـانْظر يـا أخـي لقـاءَ عـالِمٍ مُتبحّـرٍ بشـيخٍ أُمّـيٍ ، ولكنـه لـم يكـن أُمِّيًـا فـي العلـم الـذي لا جهـل فيـه وهـو علـوم مقـامِ الإحسـان ، وكيـف أنَّ الشّـعراني لـم يُفـتَح عليـه الفـتح الأكبـر إلا بعـد إلقائـه لتلـك العلـوم التـي كـان يفتخـر بهـا دون تحصـيلِ لُبِّهـا ، وإلاّ بعـد أنْ ألْقـى نفسـه علـى يـدِ شـيخ يَدُلُّـه علـى الطَّريـق الحقيقـي الـذي لا أُمِّيَّـةَ فيـه إلـى الله تعـالى مِـنْ بَوَّابـةِ مقـامِ الإحسـان ولـوْ كـان هـذا الشـيخُ أُمِّيًـا ، والشَّـواهِدُ لا تَنْقُصُـنا لنُـدلِّل علـى ذلـك إلـى يـومِ النَّـاس هـذا ، إذْ العلـوم لا تُؤْخَـذُ إلا لنِيَّـةِ التَعبُّـد لله تعـالى بهـا علـى علـمٍ ويقـينٍ ، فنـرى مـثلًا جامعـات ومـدارس العلـوم الشـرعية غالبًـا تُعطـي لطلَبتهـا العلـومَ المتنوّعـة مـع فرصـةِ التبحُّـر الأكـاديمي فيهـا ، ولكـنْ يبقـى النيّـةُ والتّعبّـدُ علـى ذِمَّـةِ الطَّالِـب ، عكـس جامعـات وأقسـام وحَضـرات مـدارسِ مقـامِ الإحسـان بمختلـف تسـمياتها وأشـكالها تُعطـي لطلَبَتِهـا العلـمَ الواسـع مـع إعـانتهم وإلهـامهم علـى النيّـة والتعبّـد والعمـل الصّـالح أيضًـا ، ببرنـامجٍ آخـر لـيس فـي منـاهجِ الجامعـات والمـدارس العامّـة ، ولا يؤخـذ إلا بـالتَّلَقِّي والصُّـحبة لا بالـدّبلومات والليسـانس والـدكتوراه ومـا شـابه ، بـل خُـذْها عنّـي : لـيس هنـاك جامعـةٌ أو محفـل لطلبـة العلـم أو دورة تدريبيـة لـديها منهـاجُ مقـام الإحسـان ، ولـيس هنـاك كتـابٌ بعيْنـه يُدرّسـك مقـامَ الإحسـان ، فـإنّ طالِـبَ العلـم مهمـا كانـتْ رُتبتُـه عالِمًـا أو مُتَعَلِّمًـا ربّمـا يسـتطيع أنْ يُفتـي ويَتـدخّلُ فـي علـوم مقـام الإسـلام بمـا لـيس بعـده مزيـدٌ لأن أركـان الصّـلاة والزّكـاة والبُيـوع والحـيض وأحكامهـا معلومـةٌ مـن النبـيّ عليـه السّـلام بـلا

زيـادةٍ أو نقصـانٍ مـع اجتهـادِ أئمّـةِ الأمّـة شَـكَرَ اللهُ سـعيَهم ، وكـذلك علـومُ العقيـدة و مقـامِ الإيمـان وشُـعَبه معلومـةٌ مفهومـةٌ ولـوْ علـى الإجمـال ، ولكـنْ مَـنْ ذا الـذي يُفْتِـي النّـاسَ فـي مقـامِ الإحسـان وأخـلاقِ وسـيرةِ النبـيِّ العـدنان لمجـرّد حُصـوله علـى إجـازةٍ أو دكتـوراه أو تزكيةٍ من الشيخ الفُلاني أوالعَلاّمة العَلاّني ؟ ، وبالله التوفيق .

واعلـمْ أنَّ إنكـارَ وتَجاهُـلَ مقـامِ الإحسـان هـو إنكـارٌ وتَجاهُـلٌ لمقـام الإسـلام أيضًـا ، وإنكـارٌ لرؤيـةِ الحـقّ تعـالى ، ودليـلٌ علـى سـوءِ الخاتمـة ، ودليـلٌ علـى أنَّ العبـدَ كـارهٌ لِلقـاءِ رَبِّـهِ الـذي يَصـومُ لـه ويُصـلّي كمـا قـال سـبحانه : " وقـال الّـذين لا يَرْجـون لقاءَنـا لـولا أُنْـزِلَ علينـا الملائكـة أو نَـرى ربَّنـا " إذْ رؤيـةُ الحـقّ تعـالى التـي هـي لُـبُّ مقامـاتِ الـدِّين الـثَّلاث واختُتِمَـتْ فـي مقـامِ الإحسـان مفقـودةٌ لِمَـنْ كـان هـذا حَالُـهُ ، ولا تُنـالُ بـالتَّمَنّي ، ثُـمّ ذَكَـرَ سـبحانه عِلَّـةَ ذلـك الإنكـار والتَمَنّـي الّـذي لـيس سِـوَى الـنفسُ وكبرهـا : " لقـد اسـتكبروا فـي أنفسـهم وعَتَـوْا عُتُـوًّا كبيـرًا يَـوْمَ يَـرَوْنَ الملائكـةَ لا بُشْـرَى يومئـذٍ للمُجـرِمين ويقولـون حِجْـرًا مَحْجُـورًا " ثـمّ اسـمعْ هـذه النّتيجـة الصّـادِمة : " وقَـدِمْنَا إلـى مـا عَمِلُـوا مِـنْ عَمَـلٍ فَجَعَلْنَـاهُ هَبَـاءً مَنْثُـورًا " فافهم واحذر .

إنَّ الإنسانَ هو المُختصَر الوَجيزُ ، والكَوْنُ هو المُطَوَّل البَسيط ، فلنْ تَرى في الوُجود سوى نفسَك ، ولا تَظُنَنّ في الحقيقة غير حَقيقتك ، فحقيقةُ الإنسانِ ليستء الرّوحُ وليستْ الجسد وإنّما هي الإدراكث المُتَوَلّدُ بينهما عند تفاعُلهما وذلك هو سببُ تعذيبِهما ، إذْ أصْلُ الرُّوح والجسد أنَّهما يَعْرِفان ويَذْكُران ربَّهما فكيف يُعَذَّبَا ؟ ، فلوْ كان الإنسانُ هو الرّوحُ وحْدَها لكانَ عالِمًا بما احْتَوَتْهُ مِنَ العُلومِ والأسرار ، وهذا الإدراكُ الإنساني من خواصِّ الروحِ خاصّةً ، مادامتْ في الجسد ، فإذا فارقتْه ذَهَبَ الإدراكُ معها وبَقِيَ الجسد جُثَّةً مِثْلَ الجَمَادِ ، ثمّ اعلمْ أنَّ الأمانةَ التي حُمِّلَها الإنسانُ هي تحقيقُ التوحيد على سبيل التَّفريدِ ، أيْ على ذِمَّةِ اسمِه تعالى الظَّاهِرُ ، وقَبْلَ ذلك أَخَذَ ربُّنا تعالى على الإنسان عَهْدًا على ذِمَّةِ اسْمِهِ الباطِنُ قَبْلَ أنْ يَخْلق آدمَ لَمّا أشْهَدَهُمْ أنه ربُّهم فأجابوا نَعَمْ : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بَلَى) ، إذْ كان الكونُ قبل الإنسان غيرَ مستعدٍّ لحَمْلِ أمانةِ الرُّبوبية بِنَعْتِ الإنْفرادِ والغِنَى والخُروجِ بِنَعْتِ الأُلوهِيَةِ ، فأَبَى أنْ يَحْمِلَها ، لأنَّ سَطواتِ الأُلوهية إذا بَدَتْ اضْمَحَلَّتْ الأكوانُ والحَدَثَان فيها ، وبَقِيَ آدمُ عليه السلام لأنَّه فُطِرَ على قبول ذلك لأنه كان مُستعِدًّا لقبول ذلك إذْ كان مخلوقًا ومُتَخَلِّقًا بخُلُقِ ربِّه وعَلَى صُورتِه وموصوفًا بصِفَتِهِ مُسْتَحْكَمًا بيَدِهِ الأَزَلِيَّةِ ومُباشَرَةِ نورِ صِفَتِه الخَاصَّةِ بقُوَّةِ رُوحِهِ القُدُسِيَةِ التي بَدَأَتْ وبَدَتْ مِنْ ظُهورِ الذَّاتِ العَلِيَّةِ بالإسم الظَّاهِرِ حين تَجَلَّى لآدمَ بقوله :(ونفختُ فيه مِنْ رُوحي) ، فإذا كان كذلك حُمِّلَ أمانةَ الله بالله تعالى لا بالأكوان ، فإنَّه تعالى قائِمٌ بنفسه مُنَزَّهٌ عن مُباشَرَةِ الحُدوثِيَّةِ ، فإذا قابَلَ آدمُ القِدَمَ وقَبِلَ الأمانةَ فقد جَهل القِدم أصلًا حيثُ قَبِلَ الكُلَّ بالبعض ، لذلك قال : (إنّه كان ظَلومًا جَهولًا) ، فهو ظَلومٌ إذْ وازى الأزَلَ والأَبَدَ مع عِلَّةِ الحُدوثية ، وجَهولٌ مِنْ حيث لمْ يَعْلَمْ أنَّ حقيقة التوحيد بالحقيقةِ مزلّةُ أقدامِ المُوَحّدين إذْ كيف يكونُ صفوانُ القِدَمِ موضعَ أقدامِ الحُدوثِ ؟ ، فمَجازُ الأمانةِ بعد ذلك هو المَحبّةُ والمعرفةُ النفسيّةُ ، وحقيقتُها هي الأنَانِيّةُ الناشئُ عَنْ هَوَى الحقيقةِ وطَلَبِهَا ، ولَمَّا عَرَضَ الأمانةَ على الخَلائقِ والجمادات فأَشْفَقوا وهربوا لِظَنِّهِمْ أنَّ الأمانةَ تُحْمَلُ بالنّفوس ، فكُشِفَ لآدم عليه السلام أنَّ حَمْلَ الأمانةِ بـالقلب لا بالنّفس إذْ هو مَوْضِعُ التَّجَلّيَاتِ لذلك كان بَيْتًا لِلرَّبِّ ، واطِّلاعُ الحقِّ تعالى يكون عليه منه ، فهو تَجَلٍّ لا تُطيقُه الجبالُ ، ومِنْ هُنا تكونُ

الرُّؤيةُ في الدُّنيا والآخرة مختلفةٌ لإختلافِ الإعتقاداتِ ، فرُؤيتهم _كأنّك تراه_ هي على قدر عِلْمِهم بالله تعالى وعلى قدر ما فهموه ممّن قَلَّدوهُ مِنَ السّادةِ العلماء وهناك يَتفاضَلون في النعيم واللّذّة : فهناك مَنْ حَظُّهُ مِن الرُّؤية لَذَّةٌ عقليّةٌ وآخر لذّةٌ حِسيّةٌ وآخر لذّةٌ خَيالِيةٌ وآخر لذّةٌ مُكيَّفةٌ وآخر لذّةٌ غير مُكيّفةٍ كما أنَّ منهم غيرُ المُقلّد وهكذا ، قالَ العلّامة الفيروزآبادي : (تَرقّى القومُ في مقاماتِ العلم) والترقّي في العلوم لا يكون إلا بالمَعارف ، وهي أذواقُ وأشواقُ التربيةِ بمقام الإحسان (إلى أنْ بَلَغوا العلمَ الأُمّيَّ المجهول الذي لمْ يَرِدْ به صريحُ الكتاب ولا السُّنَّةِ ولكنْ يُرَدّ ذلك إلى الكتاب والسّنّة ولا بُدَّ بطريقٍ دقيقٍ لا يَشعر به غالبُ الناس حسب حُسْنِ اسْتِنباطِهم) اهـ ، ومِنْ هنا نفهم كيف أنَّ العبوديّة هي مَحَلُّ ظهورِ الرّبوبية على التفصيلِ لا الإجمال ، لأنَّ التفصيل يقتضي قدرةً إنسانية بقُدرتِه تعالى وإرادةً بإرادته تعالى وعِلْمًا بعِلْمِهِ تعالى وحياةً بحَياتِه تعالى وسَمْعًا بسَمْعِهِ تعالى وبَصَرًا ببَصَرِهِ تعالى وكَلَامًا بكَلَامِهِ تعالى ، والإجمالُ يقتضي مادَّةَ الجميع منه تعالى مطلقًا من غير تقييدٍ كما في –كنتُ سمعَه الذي يَسمعُ به وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به- و – فَبِي يَسمعُ وبِي يُبْصِرُ- ، لأنّ أسماءَ الضَّمائر تَدُلُّ على الذّاتِ عند جمهورِ العلماء ، بلْ هي أقوى في الدّلالة مِنَ الإعْلامِ ، لأنَّ أسماءَ العَلَمِ قد تَفتقِرُ إلى النُّعوتِ ، وأسماءُ الضّمائر لا تفتقر إليها ، فوجودُ العبودية وهي مَرْتَبَةُ ذاتِ العبدِ تشملُ كلَّ أفرادِ العالَمِ ، فهي جَيْبٌ مُنطويّ على حقيقةِ وجودِ الرّبوبية من حيث قِيامِه به وتَعَلُّقِهِ به أيضًا ، وذلك لأنّ الله تبارك وتعالى لَمّا أرادَ أن يُعرَفَ بعدما كان كَنْزًا مَخْفِيًّا تَجَلَّى بمُقتضى اسمِه الظَّاهِرُ ، فأوجدَ المُمْكِناتِ مِنْ عَدَمٍ وجَعَلَها مِرْآةً باعتبارِ تَجَلّيهِ فيها ، ورِدَاءً باعتبارِ اسْتِتارِه بها أيضًا ، فهي حُجُبٌ ووسائط مَنْ نَظَرَها بعيْنِ التَّفرِقَةِ والغفلةِ وَجَدَها غَيْرًا مِنْ حيثُ ما ظَهَرَ فيها مِنْ أحكامِ العبودية وأوصافِ البَشَرِيَّةِ ، ومَنْ نَظَرَها بِعَيْنِ الجَمْعِ والتَّحقيقِ وَجَدَهَا نورًا مِنْ أنواره تعالى تَهْديه إلى الرُّشدِ ، مِنْ حيثُ ما ظَهَرَ فيها مِنْ أنوارِ الرُّبوبية وأسرار الألوهية ، لكنْ قَلَّ مَنْ يُدرِك ارتباطَ وجودِ العبوديةِ بوجودِ الرُّبوبيةِ ارتباطَ حَرْفَيْ " لا " ، فاسْتَحالَ تقديرُ البَيْنِ في المُبِينِ ، فمَنْ شَهِدَ الأمورَ قَبْلَ تَكوينِها في حالِ عَدَمِهَا بمُكاشَفةِ نَفْسِهِ المُطمئنّة ، ومن كان له هذا العِلْمُ سَبْقُ الكتابِ ، لا يَخافُ سَبْقَ الكتابِ عليه وإنّما يخافُ مِنْ حيثُ كَوْنِ نفسه سَبَقَتْ الكتابَ بتأويلِ المَكتوبِ ، إذْ الكتابُ ما سَبَقَ عليه إلاّ بحسب ما كان هو عليه مِنَ الصُّورةِ التي ظَهَرَ في وجوده عليها ، فلْيعلم العبدُ نفسَه و لا يعترض على الكتاب فلِلَّهِ تعالى الحُجَّةُ البالِغَةُ (ولوْ شاءَ لهَداكم أجمعين) ، فهو لا يُؤاخِذُك إلّا بحسب ما عَلِمَكَ عليه فقال تعالى : (ولنبلُوَنّكم حتّى نعلمَ المُجاهدين منكم والصّابرين ونَبْلُوَ أخبارَكم) ، فارْجِعْ إلى نفسِك دائمًا لتَعْلَمَ أنّك مَحجوجٌ ، بلْ تصيرُ أنتَ تُقيمُ لله تعالى على نفسِك الحُجَّةَ أدَبًا معه تعالى ، ذلك أنَّ اللَّوْحَ المَحفوظَ له وَجْهَانِ : وَجْهٌ يَلِي المُلْكَ وهو باطنُ المُلْكِ المُسمّى بالمَلَكوتِ ، ووَجْهٌ يَلِي القَلَمَ وهو ظاهِرُالمُلْكِ المُسمَّى بالجَبَرُوتِ ، ثمّ القلمُ له وجهان أيضًا : وجهٌ يَلي حقيقةَ الحَقِّ تعالى وهو

باطنُه ، ووجهٌ يَلِي الَّلوحَ الذي هو الجبروتُ وظاهِرُ القَلَمِ ، فما ثَمَّ إلا اللَّوحُ والقلمُ ، ولكلٍّ منهما وجهان ، فكانت أربعةٌ : القلمُ بوجهيه الظاهر والباطن ، فوجهُهُ الظاهرُ هو عالَمُ الحقائق الحَقِّيَّة ووجهه الباطن الذي هو عالَم الأرواح الجَبَروتية ، واللّوحُ له وجهٌ ظاهرٌ هو عالَمُ الشَّهادة والصُّوَر المُلْكِيَّة ، ووجهٌ باطنٌ هو عالَمُ الرُّوح المِثالي المَلَكوتي ، فهي إذن أربعُ حَضراتٍ ، والحضرةُ الخامسة هي حضرةُ الهُوِيّة الجامِعة لها وليس فوقها أوْ تحتها حَضْرَةٌ أخرى معلومة ، ومادّةُ القلم ومِدادُه هو عِلْمُه تعالى ، ومادّةُ وصفحةُ اللَّوْحِ هي الوُجودُ بأسْرِه ، فمِنْ حَضْرَةِ الألواح نَزَلَ قولُه تعالى : (ثمّ قَضى أجَلًا وأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ) ، ومنها أيضًا وَصَفَ تعالى نفسَه بالتَردُّد في قَبْضِ عبدِه المُؤمن ؛ ثمّ القلمُ الكاتبُ في لوحِ المَحْوِ يكتبُ أمرًا ما وهو زمانُ الخاطِرِ الذي يَخْطُرُ للعبد فيه فِعْل ذلك الأمر ، ثمّ إنَّ تلك الكتابةُ تُمْحَى فيَزولُ ذلك الخاطرُ عنْ ذلك الشَّخصِ لأنَّ ثَمَّ رَقيقَة مِنْ هذا اللَّوحِ تَمْتَدُّ إلى نفسِ هذا الشخص في عالَمِ الغيب ، فإنّ الرَّقائق إلى النُّفوس إنّما تَمتدُّ مِنْ هذه الألواح ، يَحْدُثُ بحُدُوثِ الكتابة ويَنْقَطِعُ بمَحْوِهَا ، فإذا أبْصَرَ العِلْمُ مَوضِعَها مِنَ اللّوح مَمْحُوًّا كَتَبَ غيرها ممّا يتعلّقُ بذلك الأمر مِنَ الفعلِ والتَّرْكِ ، فتَمْتَدُّ من تلك الكتابة رقيقةٌ غَيْبِيَّةٌ إلى نفسِ ذلك الشخص الذي كُتِبَ هذا مِنْ أجْله فيَخْطُرُ لذلك الشخص ذلك الخاطر الذي هو نَقيضُ الأوَّلِ ، فإذا أراد الحقُّ تعالى إثباته لمْ يَمْحُه ، فإذا ثَبَتَ بَقِيَتْ رَقيقةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بقلْب هذا الشخص ويَثْبُتُ لفعل ذلك الأمر أوْ يتركه بحسب ما يَثْبُتُ في اللَّوْحِ ، فإذا فَعله أوْ ثَبَتَ على تَرْكِهِ وانقضى زمنُ فِعْلِهِ مَحَاه الحقُّ تعالى مِنْ حيث كَوْنِهِ مَحْكومًا بِفِعْلِهِ وأثْبَتَهُ صورةَ عَمَلٍ حَسَنٍ أوْ قبيحٍ على قدر ما يكون ثمَّ يكتبُ القلمُ أمرًا آخر وهكذا ، لذلك كان كلُّ مَقْضِيٍّ مُقَدَّرٍ وليس كلُّ مُقَدَّرٍ مَقْضِيٌّ ، قال الشيخُ عليّ الأجْهوري :

حَقِيقَةُ القَضَاءِ وَالقَدَرِ[1]

للشَّيْخ عَلِي الأَجْهُوري (ت 1066هـ)

إِرَادَةُ اللهِ مَـــعَ التَعَلُّـــقِ ... فِي أَزَلٍ قَضَـــاؤُهُ فَحَقِّـــقِ

وَالقَـــدَرُ الإِيجَـــادُ لِلْأَشْـــيَا عَلَى ... وَجْـــهٍ مُعَـــيَّنٍ أَرَادَهُ عَـــلَا

وَبَعْضُـهُمْ قَـدْ قَـالَ مَعْـنَى الأَوَّلِ ... العِلْـمُ مَـعْ تَعَلُّـقٍ فِي الأَزَلِ

وَالقَـــدَرُ الإِيجَـــادُ لِلْأُمُـــورِ ... عَلَى وِفَـــاقِ عِلْمِـــهِ المَـــذْكُورِ

بعناية نزار حمّادي

فكان القضاءُ وقوعُ الشيءِ بالفعل ، والقَدَرُ هو القدرةُ على الشيء بالإطلاق قبل أنْ يقع بالفعل في القَضاء ، فلم يكنْ ظهورُ المعلومات وبُروزُها مِنْ غَيْبِ العِلْمِ الإلهي إلّا لتحقيقِ الحكمة في التَّفْرِقَةِ والحُدوثِ بين المعبود مِنَ العابِدِ ، وإلّا فالمعلوماتُ لا زالت باطنَةٌ بِبَطْنِ الغيب لأنّها محفوفةٌ بالعَدَمِ منْ حيثُ أَوَليةِ الحقِّ تعالى وآخريَّتِه ، فالمعلوماتُ كانت موجودةٌ قَبْلَ الكون أيْ قَبْلَ تَعَيُّنِها وبُروزِها في عالَم الشَّهادةِ مِنْ حيث تحقيقِ الحكمة التي اقتضتْ ذلك ، فهي تَجَلَّتْ وظَهرتْ قبل الكون الذي هو التَعَيُّنُ باسْمِ لَوْحِ القَضاءِ عليه بالتَّكوين والتَّعيين ، وظهرتْ بعده بِاسْمِ الجَنّة والنّارِ ، فالظُّهورُ الأوّل في الأزَل في يومِ (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) ، والظُّهورُ الثّاني بِاسْمِ الجنّة والنّار في الأبَدِ ، وما ظهر منه في الدّنيا عُبِّرَ عنه بالكون ، لأنّ ظُهورَها أوَّلًا في الأزَلِ وآخِرًا في الأبَدِ مُشاكِلٌ لظهورِها في الدُّنيا ، ووَجْهُ المُشاكَلَةِ هو أنَّ ظُهور المعلوماتِ أوَّلًا وآخِرًا كان ويكون بالقُدرة ظاهِرًا وبالحكمةِ باطِنًا ، وظهورُها في الدّنيا بأنوارِ الحكمة لا بالقدرة التي بَطَنَتْ هنا في دارِ الدنيا ، لذلك أثْبَتَ ربُّنا تعالى الخَلْقَ في (قُلْ) ثمّ مَحَاهُمْ بقوله (هُوَ اللهُ أَحَدٌ) ، فـ (قُلْ) ظاهرُه أمرٌ وباطنُه سِرٌّ ، حرفٌ تحته بَحْرٌ من غوامضِ علوم الرّبوبية ، فلَمّا غاصوا في بحارِ الهُوِيَّةِ بانَ لهم أنوارُ الألوهية ، ولَمّا كادوا أنْ يَدَّعوا الوحدانية قَطَعَهُمْ عنْ سِرّ الأَحَدِيَّةِ ، فمِنْ حيثُ الحقيقةِ هُوَ اللهُ ، ومِنْ حيثُ الفردانية اللهُ أَحَدٌ وَحِيدٌ لا غيرُ ،

والمعلوماتُ مُستمَدَّةٌ من العِلْمِ ، إذْ لا نور لها كما الشّمسُ تُنَوِّرُ البَدْرَ و لا نورَ له إذا طَلَعتْ ، لذلك يُكَثِّرُ ظهورَ المعلوماتِ بنَعْتِ الغَيْرِيَّةِ والغفلةِ للعُصاةِ لشِدَّةِ وُجودِ آفاتِ الغَيْرِيَّةِ والغفلةِ المُنطبعِ في مِرْآةِ بَصيرتهم ، إذْ الغفلةُ سببُها الجهلُ الذي هو سببُ كلِّ همومِ الدّنيا ، فأرادَ أهلُ التَّحقيق ألَّا يُشاهِدوا الغَيْرِيَّةَ في جميعِ المعلوماتِ وإنْ تَعَدَّدَتْ مَظاهرُها ، ولا يَرَوْنَ الإثْنَيْنِيَّةَ فيها وإنْ تَنَوَّعَتْ أطوارُها ، فلا يَشهدون سوى الوحدةَ في كلِّ فَرْدٍ مِنْ أفرادِ العالَم ، فلا يَبْعُدُ أنْ يُفاجِئَ الإنسانُ مِرآةً فينظرُ فيها ولمْ يَرَ المِرآةَ قَطُّ فيظُنّ أنَّ الصّورةَ التي هي في المِرآةِ هي صورةُ المِرآةِ مُتَّحِدَةٌ بها ، كما يَرَى الماءَ في الزُّجاج فيظُنّ أنَّ لونَه لونُ الزّجاجِ ، وأهلُ هذا المَقام هم الذين إنْ قالوا فبالله وإنْ عملوا وفعلوا فلِلَّهِ تعالى وإنْ سَكَنوا فعِنْدَ اللهِ تعالى ، فلمْ يكنْ سواه تعالى ثابتًا في نفسِ الأمرِ وما أَثْبَتَهُ إلا الوهمُ ، فإنّ التّوحيدَ إثباتُ ما يَستحيلُ فَقْدُهُ و فَقْدُ ما يَسْتحيلُ إثْباتُه ، وباطنُه كَشْفُ الصَّمَدِيَّةِ وجَلالِ الأزَلِيَّةِ ، وبَيْنَ العبدِ المُوَحِّدِ وبَيْنَ رَبِّهِ تعالى هنا لمْ يَبْقَ حِجَابٌ إلا حِجَابُ امْتِنَاعِ قِدَمِهِ عنْ إحاطَتِهَا بسُقوطِ أعْدادِ التَّجَلّي ، لذلك يَبدأُ السُّلوكُ إلى الله تعالى بِشِبْرٍ ثمّ بِبَاعٍ ثمّ بِمَشْيٍ ، فبعد أنْ تَرَكَ القليلَ لأجْلِ الله تعالى تَقَرُّبًا إليه بَدَأَ بِتَرْكِ الكثيرِ وهو التَّقَرُّبُ بالذِّراعِ ثمّ إنْ دام وتَرَقَّى دَخَلَ الحَضْرَةَ الإلهية هَرْوَلَةً ، فإنْ كان كذلك كُنْتَ إذا ذَكَرْتَه تعالى في مَلَإِ الأكوانِ ذَكَرَكَ في مَلَإِ الأنوارِ ، وإنْ ذَكَرْتَه في مَلَإِ المُلْكِ ذَكَرَكَ في مَلَإِ المَلَكوتِ ، وإنْ ذَكَرْتَه في مَلَإِ المَلَكوتِ ذَكَرَكَ في مَلَإِ الجَبَرُوتِ ، وإنْ ذَكَرْتَه في مَلَإِ الجَبَروتِ ذَكَرَكَ في مَلَإِ العَمَاءِ الأصلي ، وأيضًا إنْ ذَكَرْتَهُ في مَلَإِ الآلاءِ والنَّعْماءِ ذَكَرَكَ في مَلَإِ الأفعالِ ، وإنْ ذَكَرْتَهُ في مَلَإِ الأفعال ذَكَرَكَ في مَلَإِ الصِّفاتِ وهكذا ، فإنَّ الحَسَنات بعَشْرِ أمْثالها ، فيكونُ عُمرك ليس مِنْ يَوْمِ خُلِقْتَ وإنّما مِنْ يَوْمِ تُبْتَ ،

وحِفْظُ الأنْفاسِ إنّما بالذِّكر وحِفْظُ القلب إنّما بالفِكْرِ ، فالأوّلُ حِفْظٌ عن الوسواس والثّاني حِفْظٌ عن ذِكْرِ سِوى الله تعالى ، فإذا كان كذلك لا تَأخذُكَ لَذَّةُ مَقامٍ مِنْ مَقاماتِ الرّجال كالتّوبة والزُّهد والتّوكّل ، ولا تشغلك حلاوةُ حالٍ مِنَ الأحوال كالمحبّة والشّوق والخُشوع ، إذْ لَذَّةُ وحلاوةُ الأحوال والمقامات قَلَّ مِنَ الرّجال مَنْ يَنْجُو مِنْها لأنّها عزيزةٌ في الخَلْقِ طَائِعُهُمْ وعَاصِيهم رغمَ أنها هي سَلالِمُ الوُصولِ إلى الله تعالى ولكنْ كُلُّها تُخَاطِبُ سَالِكَهَا : (إنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فلا تَكْفُرْ) ، فمَنْ كان مِنْ أهلِ العِنايةِ الذين سَلكوا السُّلوكَ الصَّحيح على يدِ مُرْشِدٍ خَبيرٍ عَصَمَهُ اللهُ تعالى مِنْ ذلك وعَلَّقَ قَلْبَه فقط بالحَضْرَةِ الجَامِعَةِ ، فكلّما مَرَّ بِحَالٍ أوْ مَنْزِلٍ أوْ مَقامٍ مِنْ طَرِيقِه إلى الله تعالى قَالَ لنفسه :

جِدّي في السَّيْر فإنَّ المطلوبَ أمامكِ ، وهكذا يفعل في كلِّ مَقامٍ وَصَلَه أوْ حالٍ نَالَهُ ، إلى أنْ يَصِلَ إلى مَقامٍ يَرى فيه الدَّليلَ عَيْنَ المَدْلولِ والواصِلَ عَيْنَ المَوْصولِ والطَّالِبَ عَيْنَ المَطْلوبِ ، فيُشاهِدُ الذي كان يَطْلُبُه بِفِكْرِهِ هو نَفْسُ الذي كان يهرب منه بِقَلْبِهِ ، وحينئذٍ يَسْلَمُ مِنْ وُجودِ الفِتنةِ لوُجودِ الحقيقةِ الأحقُّ أنْ تُتَّبَع أمامه دائمًا ، فيَكونُ مُؤَيَّدًا بأنوارِ الأحديّةِ مَنْصورًا بشُهودِ الهُوِيَّةِ ، وحينها تفهم أنَّ المعلومات إنّما اقْتَضَتْ ما عَلِمَهَا ربُّنا تعالى عليه بالعِلْمِ الكُلّي الأصلي النّفسي قَبْلَ خَلْقِهَا

وإيجادِها ، فإنّها ما تَعَيَّنَتْ في العِلْمِ الإلهي إلّا بما عَلِمَهَا لا بما اقْتَضَتْه ذَواتُها بعد ذلك مِنْ نَفْسِهَا أُمورًا هِيَ عَيْنُ ما عَلِمَها عليه ، فانْطَوَى الكونُ تحت الماهِيَةِ في عَيْنِ الهُوِيَّةِ ، هذه الهُوِيَّةُ هي مِثْلُ النَّفْخَةِ في الصُّورِ ذاتُ تَجَلٍّ قَهْرِيٍّ يَهُدُّ كُلَّ كَثيفٍ ويَمْحُ كُلَّ ثَابِتٍ ليَصيرَ الَّلطيفُ كَثيفًا والثَّابِتُ خَيَالًا ، فإنّ الهواء مُسْتَحيلٌ أنْ يَتَجَلَّى لِذَرَّةٍ واحدةٍ لوْ احْتَجَبَ لَسَاوَاهَا أوْ قَارَبَهَا ، فكَيْفَ بِرَبِّنَا تعالى وهو أَجَلُّ مِنْ أنْ يَخْفَى ويُسْتَتَرُ ، وأَعَزُّ مِنْ أنْ يُرَى ويُتَجَلَّى إلى وَقْتِ الميعاد ، فإنَّ أَصْلَ الصِّفاتِ الإلهية هو نَظَرُ اللهِ تعالى الأَصْلِيِّ فِي (إنَّ الله لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ في الأرض ولا في السَّماءِ) ...

اعلـمْ أن النصـف الأول مـن السّـير إلـى الله تعـالى ينتهـي عنـد مرحلـة الـنفس المطمئنّـة وهـو فـي وُسْـعِ العبـاد كلّهـم تحصيلَه ولـذلك كـان واجبًـا وفَرْضًـا علـيهم ، فربُّنـا كتـب الإحسـان علـى كـلّ شـيءٍ ، وبتحصـيله يتحصّـلُ النصـفُ الأول مِـنْ مقـام الإحسـان ، ويبقـى النصـف الثـاني الـذي ينتهـي عنـدما تُصـبح الـنفس كاملـةً وهـو لـيس فـي وُسْـعِ العبـاد جمـيعهم تحصـيله وهـو فـوق طـاقَتِهم إلا لِمَـنْ اجتبـاه الله تعـالى ، فلـيس فـي وُسْـعِ الكُـلِّ أنْ يُطيـق شـهودَ الحـقّ تعـالى تمامًـا علـى الـذي أوْحـى وتفصـيلًا ، ثـم إنَّ بعـض النـاس لمّـا يُحقِّـق مقـام الـنفس المطمئنـة يظـنُّ أنَّ الأمـر قَـدْ تَـمَّ ، ولكنّـه فقـط سـارَ إلـى الله تعـالى بتحقيـق اسـمِه الظـاهر ، ويبقـى النصـفُ الثـاني إلـى الـنفس الكاملـة وهـو تحقيـقُ اسـمه تعـالى البـاطنُ ، وهمـا جَناحـا الوصـول إلـى الله تعـالى ، ولا يُغني أحدُهما عن الآخر،

فنِصْـفُ السُّـلوك الأوّل أُسُّـه اسـمُ الله الظـاهر ونِصْـفُه الآخَـر بـأُسِّ اسـمِه البـاطن ، مَـنْ حَصَّـلَهُمَا مَعًـا كـان طـائِرًا ومَـنْ لـم يحصِّـلْهما مَعًـا كـان فقـط سـائِرًا ، فبالنِّصـف الأوَّل يكـونُ الوُصـولُ وبالنِّصـفِ الثَّـاني يكـونُ الحُصـولُ . وقـد قَـدَّرَ بعضُـهم مقـدارَ هـذا السُّـلوك فـي المراحـل السِـتَّةِ بخمسـين ألـف سـنة علـى قولـه تعـالى : " تعـرج الملائكـة والـرّوح إليـه فـي يـومٍ " وهـو يـومُ الـدنيا ويـومُ التكليـف ويـومُ السَّـيرإلى الله تعـالى قبـل يـومِ العـودة فـي الآخِـرة " كـان مقـدارُه خمسـين ألـف سـنة " .. فإنـه فـي زَمَـنٍ اخـتلط فيـه الحابِـل بالنابِـل لا يـدري أحـدُنا الـدَّاء فكيـف بالـدَّواء أوْ ربمـا فقـط تَلقينًـا أوْ تَخمينًـا أو تَقليـدًا وهَـوًى ، فـإنْ أردتَ النجـاح فابحـثْ عمّـن يوصِـلُك لله تعـالى إنْ كنـتَ مسـتعدًّا لـدفع تكـاليفِ السَّـفر إلـى الله وهـو نَفْسُـك ... فـاعلمْ أنَّ العبـدَ لَمّـا يُريـد أنْ يسـلك بنفسـه بـدون توجيـهِ أسـتاذٍ مـاهرٍ وأمـينٍ ، فإنـه يبـدأ مـن الخـارج إلـى الـداخل وهـذا النـوع الأفقـي للسـلوك لا يُغنـي صـاحبَه فيجعلـه كُلَّمـا أخطـأ يُعيـد نفـس الخطـأ لأنـه يجـد نفسـه دائمًـا خـارج نفـسِ خطئـه أيْ خـارجَ

نفسه ، فإنَّ أخطر اللصوص هو لصٌّ من أهل المنزل المَسروق ، وهذه النفس مادامت لم تتحرّر منَ الداخل للخارج تصبح لصاحبها مثل ذلك اللِّصِّ الذي هو مِنْ أهلِ البيت المسروق نفسه ، أوْ تصبح تابوتًا وصندوقًا يدفن الشخص فيه وجودَه ، لذلك يجب وجودُ شخصٍ آخر يَدْخُلُ نفسَك من الداخل ليَفْتَحَ على صاحبِها ويُجَلّي له حقيقتَها كما هي في نفسِ صاحبِها ، وهذا الأمرُ يَنطبِقُ عليه قولُهم : " مَن لَحَّيْتُو بَخَّرْلُو " ، ذلك أن النفس لا تُفتَح من خارجٍ وتحفيزُها لا يكون من خارجٍ وإنما من داخلِ دَهاليزِها المظلمة ، فإنَّ السَّير إلى الله تعالى دائريٌّ وليس مُستطيلٌ ، لأنَّ السَّيرَ المُستطيلَ طَلَبُ المقصودِ من خارجِ النفس ، والسَّيرُ المُستديرُ السَّيرُ مِنْ داخلِ النفسِ ثمّ الدَّورانُ حَوْلَ القلبِ الذي هو بَيْتُ الرَّبِّ ، وحينها يعبد الله تعالى كأنه يراه أيْ بِهِ لا بنفسه ، ليُصبِحَ القلبُ أَمَّارًا وليس النَّفسُ ، لأنه لا يمكن للنفس رؤيةَ الحق تعالى وليس في طاقتِها ذلك إلا بعد أنْ تُسَلِّمَ مفاتيحَ رئاستها للقلب ليُصبح مركزَ دَورانِ الحَقائق النفسية والآفاقية إذْ هو مُتَعَلَّقُ هذه الرُّؤيةِ في الدُّنيا بمقام الإحسان وفي الآخرة بمقام الجنان ، وهذا مِنْ معنى كَوْنِ القلب بيت الرَّبِّ فافهم ، وصاحبُنا مادام هو خارج نفسه ويَستمدُّ الإلهامَ من الخارج الذي إنْ حضر هذا الإلهامُ انتبه صاحبُه ، وإنْ غابَ أو انتهى لمْ ينتبه صاحبُه ، وهذا الشخصُ مادام خارجَ نفسه اسْتَمَدَّ الإلهامَ مِنْ خارجِ نفسه أيضًا لأنَّ نفسه مازالت تتحكم فيه مِنْ داخلٍ ، ولابدَّ مِنْ شخصٍ خارجيٍّ يُشَخِّصُ سلوكها الصَّحيح لها ، عكس ما يظنُّه الكثيرون مِنْ أنه مثقَّفٌ و وَاعٍ بنفسه ومِنْ داخِلِها ، ولكن نفسه مازالت صندوقًا أسود لا خَبَرَ لصاحبها به وهو مغلقٌ عليها وعلى حياته التي انْدرَجت كلُّها بماضيه وحاضِره ومستقبلِه في هذا الصندوق الأسود والذي هو نفسُه التي بين جَنبَيْه ، فعلى المؤمنِ أنْ يَتَحَرّى سلوكَه الرَّبَّاني مِنْ شيخٍ رَبَّانيٍّ خارجَ نفسِه ومُحايِدًا لها فيَفتَحُ له البابَ مِنَ الدَّاخل ثمَّ يَدخلُ هُوَ ويُواصِلُ سلوكَه مِنَ الدَّاخِلِ بنفسه ، لأنَّ هذه النفس رُوحٌ وغَيْبٌ فَاضَتْ مِنْ عالَمِ الأسماء والصِّفاتِ الإلهية على هَياكِل القَوابِلِ والمُسَمَّيَاتِ مِنْ كُلِّ الكائنات ، وخُصَّتْ النفسُ الإنسانية بعد ذلك بِتَذَكُّرِ هذا المَوطِن الغَيْبِيِّ الأصلي الذي تَمَثَّلَ شَهادةً وظَواهِرَ في الكون والآفاق تَسخيرًا وخِدمةً للنفس الإنسانية ، فالتَّغييرُ يبدأ مِنْ داخِلِ النفس لا مِنْ خارجها فقال تعالى : " إنَّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم " ولم يقلْ حتى يُغيِّروا أنفسَهم ، وإنما جَعَلَ للنفس البَاء الجَارَّة كِنايةً عن بدايةِ التغيير بما بداخلِ النفس أوّلًا ، لأنه بذلك يَتَبَيَّنُ صاحبُها الخَلَلَ الذي دائمًا يَعودُ إليه وحَشَرَ نفسَه بذلك داخلَ بنيةٍ مغلقةٍ مِنَ العادات السِّلبيَّةِ ثمَّ يُعيدُ يَرمجتَها وسُلوكَها من هناك ، فإنَّ ربَّنا تعالى لمَّا سَوّى هذه النفس في الأَزَلِ لَمَّا قال : " ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا "

كَلَّفَهـا بالسُّـلوك إليـه بعـد أنْ أهْبَطَهـا لِأرْضِ الخِلافـة والإمتحـان وجَعَـلَ لهـا طَاقَـةً وإلْهَامًـا تستخدمه فـي نفـسِ صـاحبِها وفـي الآفـاقِ الكونيَّـة والإلهيـة لتعـودَ فـي الآخـرة سـالمةً غانِمـةً علـى مُـدَّةِ يـومِ الـدنيا إلـى أبَـدِ الآخـرةِ ، فقـال تعـالى : " **فألْهمهـا فجورهـا وتقواهـا قـد أفلـح مـن زَكّاهـا وقـد خـاب مَـنْ دَسَّـاهَا** " ، فهـذه الـنفسُ الإنسـانية موهوبـةٌ من الـنفس الرَّبَّاني الرَّحمـاني ، وبعـد وَهْبِـه لنـا إيَّاهـا اشْـتراها مِنَّـا ليُنَمِّيَهـا ويُزكّيهـا ويُكمّلَهـا لتصـيرَ كاملـةً دنيـا وأخـرى فقـال تعـالى : " إنَّ الله اشـترى مـن المـؤمنين أنفسـهم " ، وهـذا السُّـلوكُ بمراحلـه التي ذكرناهـا سـابقًا هـو ذلـك الشـراء والبيـع لِمَـنْ قـدر على دفـعِ تكاليفـه وهـو لـيس سـوى هـذه الـنفس بالصُّحبة كمـا ذكرنـاه ، فـإنَّ أركـان سـلوكِ الـنفس الإنسـانية التي ذكرناهـا هـو نفسُ أركانِ مقـام الإحسـان ، أيْ **شـيءٌ أكبـرُ مـن مجـرَّدِ الإسـلام والإيمـان ، وهـذا المقـام المبـارك مقـامُ الإحسـان غالبًـا لا يسـلك لصـاحبه إلا علـى يـدِ شـيخٍ مـدرّبٍ لأنـه سـلوكٌ مِـنْ داخـل ، كمـا ذكرنـا ، وبـدون ذلـك يَبقـى العابـدُ جامـدًا علـى التَّكـاليفِ الظَّـاهرةِ حتَّـى يُدركـه المـوتُ وهـو لـمْ يَـذقْ أو يَحْيَـى حقائقَهـا الباطنـة التـي بهـا فقـط يخلّـد الإنسـان فـي الجنـات والـدرجات ، لأنَّ تكـاليف الظـاهر هِـيَ البـاطن كَمَـا تكـاليفُ البـاطن هـي الظـاهر ، فيصـبح الظـاهر والبـاطن بعـد سـلوك الـنفس مقـام الإحسـان بالصُّـحبة مَظْهَـرًا واحِـدًا حسَـنًا بـدون نقـيض سـوء مـن شـكّ وشـرك ، ونُنبّـه هاهنـا أنَّ المراحـل السّـتّ التـي ذكرنـاهـا سـابقًا للـنفس لتصـبح كاملـةً مُحْسِـنَةً لا يجـب أنْ تأخـذه حرفيًـا ، لأنَّ الإنتقـال مِـنْ نفـسٍ أمّـارةٍ إلـى نفـسٍ مطمئنـةٍ وكاملـةٍ يتحقَّـق بـأيِ صـيغةٍ شـرعيةٍ صـحيحةٍ دون ذِكْـرِ تلـك التفاصـيل التـي ذكرْنـاهـا بالضـرورة ، وإنْ اتَّفقـتْ جميـعُ الطُّـرُق علـى نفـسِ برنـامجِ الإلتـزام لِمـادَّةِ التوحيـد الـذي ذكرنـاه سـابقًا وهـو : ذِكْـرٌ باجتمـاعٍ وخُشـوعٌ باسـتماعٍ وتَحَمُّـلٌ باِتّبـاعٍ ؛ وهِـيَ الأركـانُ الثلاثـة أيضًـا لمقـامِ الإحسـان مَـنْ حَقَّقَهـا وَصَـلَ إلـى الله تعـالى مـن أوسـعِ الأبـواب مـع اخـتلافِ التفاصـيلِ والأدويـةِ لإخـتلافِ تفاصـيلِ ومـزاجِ كـلّ نفـسٍ ، فلـيس للـنفس أيّ وجـهٍ أو سـعادةٍ سِـوى الوجـهُ الـذي يَصِـلُها بربِّهـا ونَفْسِـهِ الرَّحمانيـة ، ولا تَصِـلُ لهـذا الوجـهِ البـاقي لربّهـا تعـالى دُنيـا وأخـرى حتَّـى تـراهُ عُبوديـةً لـه تعـالى إلا بالسُّـلوك الصَّـحيح فـي مقـامِ الإحسـان كمـا ذكرنـا ، فـإنَّ مِـنْ مِيـزَةِ مقـامِ الإحسـان أنَّ أرْكانَـه التـي ذكرْناهـا وشـروطَه وأسـبابَه تُصـبحُ بعـد تحقيقِهـا ثَمَـراتٍ وَنتـائجَ : فالـذّكْرُ بالإجتمـاعِ يُنْـتِجُ ذِكْـرًا دائمًـا باجتمـاعٍ والخُشـوعُ بالإسـتماعِ يَـورِثُ خُشـوعًا دَائِمًـا بإسْـتِماعٍ فَيتبِـعُ أحْسَـنَهُ ولكـنْ هذا فـي الظَّـاهِرِ الـذي يُطـابِق نفسَ مـا فـي البـاطن كمـا ذكرْنـا ، وهـذا مـا انْفَـرَدَ بـه مقـامُ الإحسـان وانفـردتْ بـه الأمَّـةُ المحمديـةُ لَمّـا تَتَحَقَّـقُ بمقـامِ الإحسـانِ الـذي هـو مَقـامُ الأنبيـاء**

والمرسلين ولكنْ خُتِمَتْ أسرارُه في المَقام المُحمَّدي معجزةً له عليه السلام و كَرامَةً لأُمَّتِه فافهم ، وهذا التَّطابق بين الظاهِر والباطِن سِرُّه أنّ السَّالِك إلى الله تعالى بنفسه الأمّارة إلى الكاملة تكونُ بدايتُه هي نهايةُ شيخه الذي سَلَكَ على يديه ، ونهايةُ سلوكِ شيخِه تَصِلُ نهايةَ سلوكِ شيخِهِ أيضًا ، وهكذا إلى أنْ تَصِلَ لبدايةِ سُلوكِ النبي عليه السلام في نفْسِهِ الشَّريفة الكامِلةِ، فاتَّصَلَ ذلك الطالِبُ بِكُلِّ مَطالِبِهِ الدنيوية والأُخروية بفضل مِثْلِ هذا السُّلوك : الأوَّلُ بالآخِرِ والباطنُ بالظَّاهِرِ فافهم ، ومِمَّا يَدُلُّكَ على ضرورةِ هذه الصُّحبة في تغيير النفس هو أنَّ الصحابة الكرام ما كان لهم أنْ يَتَغيروا عَمّا كانوا فيه في الجاهلية بلْ ويُغَيِّروا ويَفْتَحوا العالَم بعد ذلك إلا بِبَرَكَةِ مُصاحبتهم للنبي عليه السلام في الحرب والسلم ، في العُسْرِ واليُسْرِ وبِبَرَكَةِ مُجالَستِهم له والأخذِ والتَّلَقِّي عنه مباشرةً ومُشافَهَةً ، لذلك قال تعالى : " لقد جاءكم رسول مِنْ أنفسكم " مِنْ أنفسهم ، وتَسليكُها مِنْ داخلِها في أنفسهم ، التي هي نفسُ نَبِيِّهم الكامِلةِ فافهم ، فَما أَفْلَحَ مَنْ أَفْلَحَ إلّا بِصُحْبَةِ مَنْ أَفْلَحَ ، والعكسُ صحيحٌ ولازِمٌ ، لذلك خابَ مَنْ دَسّاها وجعَلَها سِجْنًا لرَغباته الحقيقيَّة ، فهي مازالتْ بنيةٌ مُغْلَقَةٌ وسِجْنًا مُقفَلًا مادام صاحبُها لمْ يَفْتَحْها كما ذَكَرْنا وبِأُسُسِ وطُرُقِ مَقام الإحسان كما أسْلَفْنَا ، ومِنْ هنا يَظُنُّ الكافرُ أوْ أيُّ شخصٍ هالِكٍ غَيْرُ سالِكٍ أنَّ الدُّنيا سِجْنُ المؤمن وجَنَّةُ الكافر ، فذلك مَجازٌ لِمَنْ عَرَفَ نفسه فَعَرَفَ رَبَّهُ ، وحقيقةً لِمَنْ انْتَكَسَ عن هذه المعرفة الربانية مِنْ بَوَّابةِ النفس الإنسانية ، قال الفاروقُ رضي الله عنه : " حاسِبوا أنفسكم قبل أنْ تُحاسَبوا وزِنُوها قبل أنْ تُوزَنوا وتَهَيَّأوا لِلْعَرْضِ الأكبر " ، فتَهَيَّأْ يا صاحبَ النفس الكاملة للخروج من سِجن الطِّينِ الذي كنتَ عليه في نفسِك الأمّارة ، وتَهَيَّأْ يا صاحبَ النفس الخبيثة الحَمِئة للخُروج مِنْ نيرانِ شهواتِ النفس الأمّارة إلى مَكارِهِ وأهوالِ نارِ الجحيمِ الذي كانتْ توقِدُهُ طينَتُكَ الخبيثة في نفسِك الأمّارةِ وأنتَ في سِجْنِ الدُّنيا ، لذلك كان تسليكُ هذه النفس وتَخليصُها لِرَبِّها فَرْضَ عَيْنٍ على كلِّ بالِغٍ عاقِلٍ قادِرٍ ولَوْ كان غير مُتَفَرِّغٍ لذلك ، خِلافًا لمن قال أنَّ ذلك فَرْضُ كِفايَةٍ ، وتلك هي الفريضةُ التي قالَها نبيُّنا عليه السلام : " طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ " وهو عِلْمُ الوِراثةِ النَّبويّةِ في أحواله عليه السلام التي كان يَتعبَّدُ بها لرَبِّه تعالى أثناء الصَّلاة والصِّيام والزَّكاة وسائرِ العبادات والمعاملات زيادةً على عُلومِ أقوالِه وأفعالِه خُصوصًا وعُمومًا ، وهذا لا يكونُ إلا بمُبادَرَةِ العبدِ لِيَجِدَ شَيخًا وارِثًا هذا السُّلوك النبوي في نفسه الشَّريفة بِكَوْنِها في أرْضِ رَبِّها خَليفةً ، فمَنْ انتبه إلى ما قُلْناه وقَدَّمْناه طَلَبَ هذا الأمرَالخطيرَ فورًا قبل فواتِ الأوان ، ولْيَتْرُكْ كلَّ ما هو فيه ، لأن ماهو فيه مِنْ دونِ نفسٍ زاكِيةٍ مجرَّد عَرَض يأتي ويزول ، والجوهرُ الذي هو

ذاتُـه الإنسـانية مـا زال يَفْسُدُ بمِثْـلِ هـذه الأعْـراضِ يَوْمًـا بعـد يَـوْمٍ ، فـلا تَصْـلُحُ عباداتُـه ولا مُعاملاتُــه بهــذا الجهــل ، لأنَّ جوهرَهــا غيــرُ صــالحٍ ، إذ لا يَصِــحُّ الإشــتغالُ بــالفُروع قبــل تحقيـقِ الأُصـول ، ومـا حُـرِمَ مَـنْ حُـرِمَ الوُصـولَ إلا بتَضـييعه الأُصـولَ ، ومـا أفْلَـحَ مَـنْ أَفْلَـحَ إلَّا بِصُـحْبَةِ مَـنْ أَفْلَـحَ لعـدم تضـييعه برَكَـةِ الوقـت وبركـةِ أصـحابِ الوقـت فـإنَّ الوقـتَ مَقْـتٌ ، وأَصْلُ هـذا الفَـلَاح والضَّـلال مَرْكـوزٌ قَبْـلَ ذلـك فـي الـنَّفس إذْ هـي بَوَّابَـةٌ علـى بَيْـتِ الـرَّبِّ ٱلَّـذي هـو القلـبُ ، فـإذا صـلحتْ الـنفسُ صَـلُحَ القلـبُ وإذا فَسَـدَتْ فَسَـدَ القلـبُ ، وكـذلك القلـبُ إذا صَـلَحَ صَـلَحَتْ الـنفسُ قَبْـلَ الجَـوارِحِ ، وإذا فَسَـدَ فَسـدتْ الـنفسُ والجَـوارِحُ ، فهِـيَ بَـرْزَخٌ وحِجْـرٌ مَحْجـوٌر، أَصْـلُ صَـلَاحِه وفَسـادِهِ هُـوَ صَـلاحُ أوْ فَسَـادُ الصُّـحبةِ التـي تَـرْبِطُ بـين قلـبٍ وقلـبٍ " ضَـعُفَ الطَّالِـبُ والمَطْلـوبُ " ، فـإنَّ علـومَ الآخـرة إمّـا علـومُ مُعاملـةٍ كعِلْـمِ التَّكـاليفِ الظَّـاهِرةِ مِـنْ صـلاةٍ وزكـاةٍ أيْ شُـروطُها الظَّـاهرةُ التـي لا تَصِـحُّ إلَّا بِهَـا ، وإمَّـا عُلـومُ مُكاشَـفَةٍ وهـو علـومُ الـنفس والقلـب أثنـاء سُلوكِ مَقـامِ الإحسـان أيْ شُـروطُها الباطنـة التـي لا تُصَـحَّحُ التَّكـاليفُ الشَّـرعيةُ إلَّا بِهَـا ، فمَـنْ لـمْ يَكُـنْ معـه هـذا العلـمُ يُخـافُ عليـه سـوءُ الخاتمـة ولَـوْ جـاءَ بصـلاةٍ وزكـاةٍ فَضْـلًا عَمَّـنْ لا يُصَـلّي ولا يُزَكّـي ، وكُـلُ مـا عـداه مِـنْ علـومٍ فهـي إمَّـا توابِـعُ لـه أوْ مُقَـدِّماتٌ مُمَهِّـداتٌ لـه ، فـلا تَنْفَـع بـدون علـومِ المُكاشَـفَةِ الشَّـهاداتُ ولا الإجـازاتُ والـدِّبلوماتُ ، بَـلْ والله لَـوْ تَحَقَّقـوا بمـا ذكرنـاه مِـنْ مِثـالٍ لسُـلوكِ الـنفسِ لَرَمَـوْا تلـك الكُتـب والإجـازات فـي المَزابِـل ، لأنَّ عُلـومَ المُكاشَـفَةِ تُنْـتِجُ نـورَ اليَقـين وهـو النُّـورُ الـذي قالَـهُ ربُّنـا تعـالى بقولـه : " أفَمَـنْ شَـرَحَ الله صَـدْرَهُ للإسـلام فهـو علـى نـورٍ مِـنْ رَبِّـهِ " ، ألَـيْسَ نـرى اليوم ونسمع كثيـرا مِـنَ النـاس يَشْكون مِـنْ عَـدَمِ وُجـودِ لَـذَّةِ المُناجـاةِ والوُقـوفِ بَـيْنَ يَـدَي اللهِ تعـالى ، وكـذا لَـذَّةُ الصّـيامِ ومـا ذلـك إلا لأنَّهـم مُتَوَقِّفـون عَـنِ السَّـيْرِ إلـى الله تعـالى الـذي هـو حَرَكَـةٌ دائمـةٌ إلـى الله تعـالى فـي الصَّـلوات والصَّـوم وغيـر ذلـك ، و لـيس فقـط فـي المواسـم والجُمَـعِ والأعيـاد ، فهـي حركـةٌ دائريـةٌ وليسـتْ حركـةٌ مُسـتطيلةٌ ، لـذلك هُـمْ مُتَوَقِّفـون ولـمْ يُبـارِحوا مَكـانَهم ولـمْ يَجْعَلـوا نُفوسَـهم مَطِيَّـةً وقَنْطَـرَةً وقَنـاةً للْإلهامـاتِ الربانيـة ولـيس لَهُـمْ سِـواها إصْـلاحًا للـنفس ، فغالـبُ مَـنْ لـم يُفلِـحْ فـي هـذه الـدنيا بـلْ كُلُّهـم مِـنْ غيـر شـكٍّ لـيس سـوى لأنهـم مُتَوَقِّفـون فـي السَّـفَرِ إلـى الله فـي مُسـتوى نفوسِـهم الأمّـارة بِيَـوْمِهم ولَـيْلِهِمْ ، ذلـك لأنَّ البَصـيرةَ التـي تُنَبِّـهُ القلـبَ بـالخَطَرِ المُحـدق بـنفسِ صـاحبه كمـا ذكرْنـا سـابقًا قـد انْطمسـتْ بـاللَّهو واللَّعـب وبـالتَّخَلُّف عـن السَّـيرِ إلـى الله تعـالى وطـولِ الأمَـلِ ، ذلـك أنَّ شـرط السُّـلوك إلـى الله تعـالى والإنْبعـاث إليـه يكـونُ بافتتاحـه مِـنْ داخـلِ الـنفس كمـا قَـدَّمْنا بالصُّـحبة المُؤَهِّلَـةِ لهـذا الفـتح الـدَّاخلي ، وهـذا هـو مـا يُسـمَّى بفَـتْحِ البَصـيرةِ بفضـل هـذا الشـيخ ، بـه يَنبعـثُ لمُتابعـةِ السُّـلوكِ المُؤَهِّـلِ لـه كإنسـانٍ عكـس الحيـوانُ والجَمـادُ ، وبهـذه البَصـيرة تَفْـتَحُ

النفسُ على القلبِ بما تراه مِنْ حَقٍّ وباطلٍ فقال تعالى : " مَنْ أبصر فلنفسه ومن عَمِيَ فعلَيْهَا " ، فإنْ انْفَتحتْ هذه البصيرةُ بالصُّحبة وكَمَا ذكرنا في تدريبِ _حِلْيَةِ الأبْدالِ عَرفَ صاحبُها الدُّنيا على حقيقتِها فيُعامِلُها بذلك ، ويَعرِفُ الشَّيطانَ على حقيقتِه ، ويَعرِفُ نفسَه ، ثمَّ أخيرًا يَتَأهَّلُ لمعرفةِ رَبِّهِ تعالى ، وحِينَها تُصبِحُ مِرْآةُ بَصيرَتِه تُرِي صاحبَها أنَّه يَرى رَبَّه تعالى في كُلِّ وَجْهٍ وتَوَجُّهٍ في عِباداته ومُعامَلاتِه مِنْ غير فَرْقٍ أوْ تَخْليطٍ بالشَّكِّ والشِّرْكِ لِيَكون مِصْداقًا لقوله عليه السلام " أن تعبد الله كأنك تراه " ، فمَنْ فاتَه التَّرَقِّي بنفسه مِنْ أمّارةٍ إلى مُطمئنةٍ إلى كاملةٍ ليس سوى لِعَدَمِ وُجودِ هذه البَصيرةُ الّلازِمة لِلتَّرَقِّي والسُّلوكِ ، فإنْ أراد أنْ يَسْلُكَ بنفسه بدون مُوَجِّهٍ أوْ شيخٍ لمْ يَسْتَطِعْ مُبارَحَةَ نفسه الأمّارة أبَدًا لِعَدَمِ انْفِتاحِ هذه البصيرة ، والتي قُلْنا أنَّها لا تُفْتَحُ إلا بعَمَلِ شيخٍ ماهرٍ وارثٍ ، قال تعالى : " بَل الإنسانُ على نفسه بَصيرةٌ ولَوْ ألْقى مَعاذيرَهُ لا تُحَرِّكْ به لسانك لِتَعْجَلَ به إنَّ علينا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ فإذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بَيَانَهُ " ، ثم قال مباشرةً بعد ذلك تحذيرًا للقاعِدين عنْ هذا الأمر الجليل : " كلاّ بل تُحِبّون العاجِلة وتَذَرون الآخِرةَ " ، ثم ذَكَرَ جَزاءَ هذا السُّلوك بالعبادة لله كأنك تراه : " وُجوهٌ يومئذ ناضِرَةٌ إلى رَبِّهَا ناظِرَةٌ " ، ثم ذَكَرَ حَالَ مَنْ قبع عند دائرةِ رَاحَةِ النفس الأمّارة ومات داخل صُندوقِها الأسود : " وَوُجوهٌ يومئذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أنْ يُفْعَلَ بها فَاقِرَةٌ " ولِسانُ حَالِها يقولُ : " وَ قِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أنه الفِراقُ " ، ثم ذَكَرَ تعالى أنه مَنْ لم يُفلِحْ في التَّرقِية والرُّقْيَةِ للنفسِ والذَاتِ فكأنَّه ما صَلَّى ولا زَكّى ولوْ فَعلهما ، ولكنْ من غير خشوعٍ أوْ مِنْ غيرِ تحقيقٍ وتصحيحِ سِرِّ الحَالِ النَّبَوي المَوْروث أثناء تلك الصَّلاة والزَّكاة : " فلا صَدَّقَ ولا صَلَّى ولَكِنْ كَذَّبَ وتَوَلَّى ثم ذَهَبَ إلى أهله يَتَمَطَّى " : أيْ أهلُ صُحبتِه مِنْ فَصيلةِ السُّوءِ ، ولهذا لمْ يَنتفع أبو لهب وأبو جهل لإعراضه عَنْ صُحبة النبي عليه السلام وهُمَا عَمّاه ، وانْتَفَعَ به عَمّار وسَلْمان وابن أُمِّ مَكْتوم فافهم واحذر ، إذنْ فبِالبصيرةِ تَنْبَعِثُ للسُّلوكِ وبها تَفْتَتِح السُّلوكَ وبها تَتَرَقَّى أثناء السُّلوك ، فهِيَ بَوَّابَةُ خَرْقِ العادات السلبية وما وراء الطبيعة مِنَ العادات التي هي قَدَرُ الحَيوان ، وما وراءَ عوالِمِ الغَيْبِ لأنَّ النفسَ غَيْبٌ كَما ذكرْنا ، وكُرِّمَ الإنسانُ وحده دون الحيوانات باسْتِكْشاف ماوراء الغيب والشهادة معًا وليس الغيبُ فقط أو الشَّهادةُ فقط ، فهو يَسْتَكشِف بنفسه ماوراء الطبيعة زِيادةً على ما قَبْلَهَا ، فإنْ كان الأستاذُ الذي يَفْتَحُ اللهُ تعالى بَصيرَتَك على يديه لتَبدأ السُّلوك مِنْ داخِلٍ ماهرًا ، فإنَّ نهايتَه في سلوكه على يدِ شيخِهِ هو أيضًا وُصولًا للنبي عليه السلام والسَّلَفِ هِيَ بِدايَتُكَ أنت ، فإنَّ أساليبَ التَّسْليكِ تختلف وتَتَجَدَّد مع الزَّمن ، ولها أسرارٌ كأسرارِ أيِّ مهنةٍ أوْ فَنٍّ ، لكنْ كلُّها

تَشتَرِك فـي كَـوْنِ نـهايـةِ سـلوكِ الشـيخ وآخِـرُ مـا وَصَـلَتْه نفسُـه هـو بدايـةُ سـلوكِ التلميـذِ وأوَّلُ مـا تبدأُ بـه نفسُـه ، ذلك أنـه يَبدأُ السُّـلوكَ بك مِـنْ عـالَمِ الأمْـرِ لا مِـنْ عـالَمِ الخَلْـقِ ، ويَقْطَـعُ بـك مَسـافَةَ عَـالَمِ الخَلْـقِ والآفـاقِ أيضًـا فـي ضِـمن السَّـيرِ بنفسـك فـي عـالَمِ الأمْـرِ ، قـال تعـالى " ألا لـه الخَلْـقُ والأمْـرُ " ، فهـو يُقـدِّم لـك الجَذْبَـةَ قبْـلَ السُّـلوك ، ويُقَـدِّمُ الهِمَّـةَ قبـل الإلـهـام ، ويُقَـدِّمُ نَظْرَتَـهُ لـك قبـل مَنْظَـرِهِ منـك ، ويَرحـلُ بـك إلـى عـالَمِ التَّمكين قبـل عـالَمِ التَّلْـوين ، حتَّـى تَـتمَكَّن مِـنَ التَّعـرُّضِ للصِّـفاتِ الإلَـهيـة الجَلالِيَـة فـي وقتهـا وللصِّـفاتِ الإلهيـة الجَمَالِيَـةِ فـي وقتهـا وللصِّـفاتِ الإلهيـة الكَمَالِيَـة فـي وقتهـا أثنـاءَ عباداتِـك ومُعامَلاتِـك مِصْـداقًا لقولـه عليـه السـلام : إنَّ فـي أيّـامِ دَهْـرِكُمْ نَفَحَـاتٍ أَلَا فتعرَّضـوا لهـا ، والأرواحُ جنـودٌ مُجَنَّـدَةٌ مـا تَعـارَفَ منهـا ائْتَلَـفَ ومـا تَنـاكرَ منهـا اخْتَلَـفَ ، فهـو يَكتـب منـك فـي الأرْواح لا فـي الألْـواح لأنَّ الألْـواح فيهـا المَحْـوُ وفيهـا الإثْبـاتُ عكـس الأرواح ، ولكـنْ لِمَـنْ تَعـرّض لقانونِهـا وأسـرارِها ولِمَـنْ تَـدَرَّبَ فـي صِـناعتها التـي هـي صـناعةُ العُمـر فـافهم ، وانتبـهْ إذن كيـف أنَّ الشّـيخ يبـدأ معك مِـنْ توحيـدِ الأسـماء والصـفات مباشـرةً لا مِـنْ توحيـدِ الرُّبوبيـة أوْ توحيـدِ الألُوهيـة كَمَـا يفعـل بعـضُ النـاس فيَكْتَفـون بتَسْـطيرِ هـذا التوحيـد فـي الكُتـب دون تطبيـقٍ ، وفـي أثنـاءِ سُـلوكه بـك مِـنْ توحيـدِ الأسـماءِ والصِّـفات مباشـرةً يُحَقِّقُـك أيضًـا علـى مَـدارِج توحيـدِ الرُّبوبيـة ثـمّ توحيـدِ الألوهيـة أثنـاء ذلـك ، ولكـنْ هـذين التَّوحيـديْن لا يَصِـحّان إلّا بمِيـزانِ توحيـدِ الأسـماءِ والصِّـفات ولا يَنْـتُجُ بدونـه شـيءٌ ، لـذلك لـم ينفـعْ معرفـةُ الكفّـار أنَّ لهـم رَبًّـا مِـنْ بـابِ توحيـدِ الرُّبوبيـة ولـمْ يَنفـعْ الكثيـرَ مِـنْ أبنـاءِ الإسـلام عبـاداتُهم لـرَبِّهم مِـنْ بـابِ توحيـدِ الألوهيـة لعَـدَمِ تَمَكُّـنِهم مِـنْ توحيـدِ الأسـماءِ والصِّـفاتِ الـذي لا يحصـل إلا بسُـلوكِ الـنفسِ علـى يَـدِ إمـامٍ وداعيـةٍ للتوحيـدِ سُـلوكًا خَاصًّـا كمـا ذكرنـاه ، لا مجـرد السُّـلوك العـادي أو التَّقليـدي العَـامّ ، ولا بتَسـطيره فـي الكُتـب والمَطْويّـات والفَضـائيات دون تحقيقِـه علـى أرضِ الـنفس ، إذنْ الشـيخُ يَسْـلُك بـك مِـنْ توحيـدِ الجَمْـعِ المُتَمَرْكِـزِ فـي <u>قلـب كـلّ مـؤمنٍ</u> ، لا مِـنْ توحيـدِ الكَثْـرَةِ والتَّفْرِقَـةِ المُتَمَرْكِـزِ فـي <u>نفـسِ كـلّ إنسـانٍ</u> ، ومـن هنـا ضـرورةُ السُّـلوك علـى شـيخٍ مِـنْ مَشـائخِ التَّوحيـدِ المُقْتَـدين المُهْتَـدينَ قبـل فـواتِ الأوان " أولئـك الـذين هَـدَى اللهُ فبِهُـدَاهُم اقْتَـدِهْ " وقـال تعـالى " ولـولا رِجـالٌ مؤمنـون ونسـاءٌ مؤمنـاتٌ لـمْ تَعلمـوهم أنْ تَطَـأوهم فتصـيبكُم مـنهم مَعَـرَّةٌ بغيـر عِلْـمٍ " ومِـنْ هُنَّـا قـالوا : <u>مَـنْ لـم يَنْفَعْـك لَحْظُـهُ لَـمْ يَنْفَعُـكَ لَفْظُـهُ</u> ، فـافهم واحـذر ، ومِـنْ هنـا أيضًـا ضـرورةَ أنْ يكـون الشـيخُ مُتَمَكِّنًـا مِـنْ أداءِ دَوْرِه حتـى لا يُضِـلَّ غيـرَه ، لأنَّ هـذه التَّلْمَـذَةُ ضـروريةٌ وحَسَّاسَـةٌ للإرْتِقـاءِ فـي عـوالِمِ مَقـامِ الإحسـان ، بـلْ وسَـبيلُها الوحيـدُ لأنَّهـا تبـدأُ كمـا قلنـا مباشـرةً مِـنْ توحيـدِ الأسـماءِ والصِّـفاتِ الـذي هـو سِـرُّ مهنـةِ أهـلِ التَّوحيـدِ وهـو مَقـامٌ صـعبٌ وخطيـرٌ، إذْ نـهايـةُ سـلوكِ شـيخِك هـي بـدايتُك أنـتَ فـي

تَسْليكِ نفسك الأمّارة مِنْ توحيدِ الجَمْعِ قبل توحيدِ التَّفْرِقَةِ أوالكَثْرَةِ لا يُطيقُه كلُّ أَحَدٍ ، لأنَّه عالَمُ الأمر وهو عالَمُ الأزَلِ والغَيْبِ لا عالَمُ الخَلْقِ وهو عالَمُ الشَّهادَةِ ، إذْ المَظاهِرُ في عالَمِ الأَمْرِ خادِعَةٌ أيضًا ، ولا تَثْبُتُ لها نَفْسٌ حَسَّاسَةٌ كالنفس الأمّارة ، وقد حَذَّرْتُكَ يا أخي فانتبه ، وأيضًا فإنَّ التِّلميذ ذاتَ يومٍ سيُواصِلُ السُّلوك بنفسه ، فإنْ كان الأصلُ الذي بُنِيَ عليه سلوكُ نفسه على مِنْوالِ أوامِرِ شيخِه باطلًا وخاطئًا وليس فيه أَثَرُ ورائحةُ الهَدْيِ والوِرَاثَةِ النَّبَوِيَّةِ في الأحوال جاءتْ أحوالُه وأفعالُه وواقِعاتُه ومُنازَلاتُه أيضًا خاطئة فيما بعد ، ولم يَصِحُّ له التَّرَقِّي إلى النفس الكاملة ، أوْ ربّما احْتار أوْ ربَّما اخْتَلَّ عقلُه أوْ رُبَّمَا ارْتَدَّ والعِياذُ بالله ، فإنَّ الأستاذَ الذي سَتَسْلُكُ على يديه بنفسك وكُلِّكَ لن تَتعلَّم منه مجرد نظرياتٍ أوْ علومٍ ومعارفَ فحسب ، وليس مجرد العلمُ والعملُ فقط ، وإنما أيضًا الحالُ النَّبَوي الأحْرى بكلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ أنْ يتحلوْا به ليَعبد الله كأنه يراه في كلِّ عبادةٍ ومعاملةٍ ، وأيضًا فإنك ستُجالِسُه وتأكلُ معه وتُسافر معه ، أيء ستظلّ مُلازِمًا له غالِبَ وقتك إنْ لم نقلْ كُلَّه في العادَةِ والعبادةِ كما كان يُلازِم الصَّحابةُ نبِيَّهم عليه السلام في كلِّ حالٍ لِيَرِثُوا حَالَه وسِرَّه ، ولذلك سَتَتَعَلَّم مِنْ أخلاقه النَّبَوِيَّة وأفعالِه أكثر مِنْ أقوالِه ودِراساته ، ومِنْ إشاراته أكثر مِنْ عِباراتِه ، عكس الدِّراسات التي كُنْتَ فيها في الثَّانوية والجَامعة مثلًا ، وهذه المُلازَمَةُ حَفِظَها الخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ مِمَّنْ أرادَ تحقيقَ مقامِ النفس الكامِلة بتَكْميلِ النفسِ النَّبَوِيَّةِ أثناءَ هذه الصُّحبةِ ، فكان جابِر رضي الله عنه يقولُ أنَّ النبي عليه السلام كان يُعَلِّمُهم الإسْتِخارَةَ كما يُعَلِّمُهم السُّورَةَ مِنَ القرآن ، فيُعَلِّمُهم الأشْباهَ والنَّظائرفي كلِّ شيء ، فكان يُعَلِّمُهم حَرْفِيًّا كيف تكونُ التَّوبةُ وكيف يكونُ الزُّهد والتَّوَكُّلُ بخطواته الصَّحيحة مع التَّمثيل لها ، وكيف يكونُ الدُّعاءُ المَقبولُ والدُّعاءُ المَرْدودُ وغيرُ ذلك ، وهذه التَّربيةُ النَّبوية للنفس الإنسانية لم تَنقطِعْ بمجرّد وفاةِ النبيِّ عليه السلام عكس الأُمَمِ السَّابِقة ، وهذه الصُّحبة التي نتحدث عنها ليستْ كما تُرافِق صَديقَك أوْ زَميلَك في العمل مثلًا مهما بَلَغَتْ نوعيةُ هذه الزَّمالَة و الصَّداقة ، إذْ غالبًا أصدقاؤُك العاديون يُعامِلونك كَمَا يَظُنُّون أنك تعرفُهم هُمْ لا كَما تَعْرِفُ أنتَ نفسَك أوْ كَما تَعرِف الشَّيءَ الذي تَتعاملون به ، فبَقِيَتْ المُعامَلةُ في كَيْفَ تَعْرِفُ نفسَك بين هذا كُلِّهِ وهِيَ الأهمُّ غائبةً ، فَنَسَيْتَ نفسَك بصُحبتِهم وحَقَّ عليك قولُه تعالى : " كالذين نَسُوا اللهَ فأنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ " ، لذلك اتِّخاذُ مُرْشِدًا قُدْوَةً ، فَريضةٌ في طريقِ الله تعالى لتزكيةِ النفسِ ، لأنَّه حافِظٌ لِمَسالِكِ السَّفَر إلى الله تعالى ، وكُلُّ حَافِظٍ إِمَامٌ فافهم ، قال تعالى : " ولكن كونوا رَبَّانيّين بما كنتم تَعَلَّمون الكِتابَ وبِما كُنتم تَدْرُسُونَ " ، فإنَّ هذا الشيخُ سيُصبِحُ قائِدَك ومُدَرِّبَكَ كما يَتَّخِذُ الرِّياضيون مُدَرِّبين لهم ، لتَصِلَ لِبِرِّ الأمان

علــى شــاطِئِ يَقــينِ وتَوْحيــدِ الــنفس الكامِلــة حيــث سَــتَظَلُّ تَســتمتع بــأنوارِ وأســرارِ مَقــامِ الإحســان علــى طـول دَقّــاتِ ســاعةِ حياتِـك فــي الـدُّنيا قبـل الأخْـرى ، ذلـك أنَّ القائـدَ الجَيِّد يُلْهِـمُ النَّــاسَ لِيَثِقُــوا بــه ، أمّــا القائــدُ العظيم وهـو شـيخُك هنــا يُلْهِـمُ النَّــاسَ لِيَثِقُــوا بأنفســهم ، وكـذلك أنــتَ بــالأمس كُنْــتَ ذَكِيًّــا فــأرَدْتَ تَغييــرَ العــالَم ، والآن باتّخــاذِك قَــرارَ السَّــفَرِ إلــى الله تعــالى طَريقًا في الحياة أَصْبَحْتَ حَكِيمًا لذلك قَرَّرْتَ بَدْءَ التَّغيير مِنْ نَفْسِك ، يَقولُ النَّاظِمُ :

يَصحب شيخًا عارِفَ المَسالِك *** يَقيهِ في طَريقِهِ المَهالِكَ
يُذَكِّرُهُ اللهَ إذا رآه *** ويوصِلُ العبدَ إلى مولاه
يُحاسِبُ النفسَ على الأنْفاس *** ويَزِنُ الخاطِر بالقُسْطاس
يَحْفَظُ المَفْروضَ رَأْسَ المال *** والتَّنَفُّلُ رِبْحُهُ به يُوَالي
ويُكْثِرُ الذِّكْرَ يَصْفو بِهِ *** والعَوْنُ في جميع ذَا بِرَبِّهِ
يُجاهِدُ النَّفسَ لِرَبِّ العالَمين *** ويَتَحَلّى بِمَقاماتِ اليَقين
يَصيرُ عِنْدَ ذلك عارِفًا بِهِ *** حُرًّا ، وغَيْرُه خَلا مِنْ قَلْبِهِ

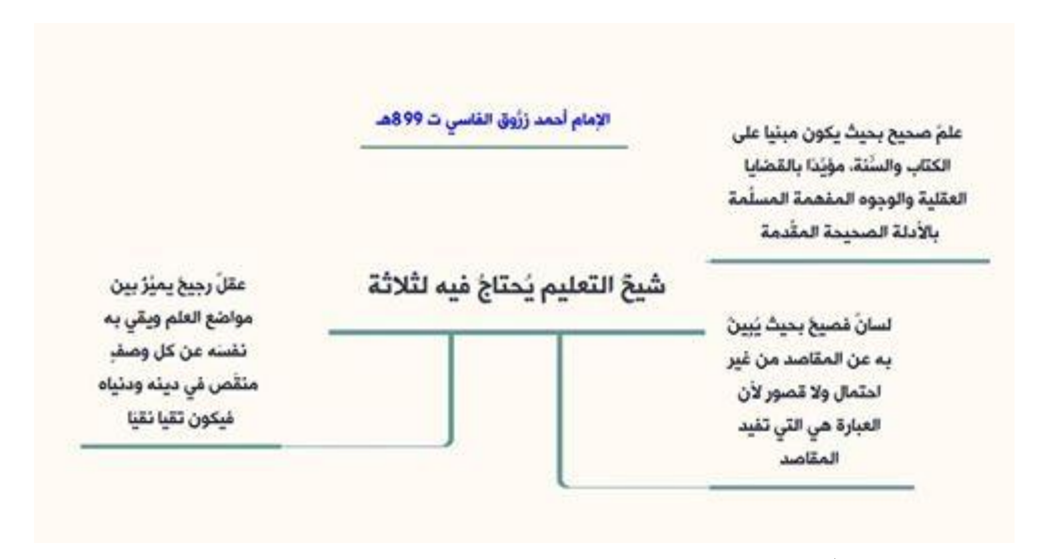
شيخ التربية يحتاجُ فيه إلى ثلاثة أمور

أحدها: معرفة النفوس وأحوالها الظاهرة والباطنة، وما يُكتسبُ به كمالُها ونقصُها، وأسباب دوام ذلك وزواله على وجه من العلم والتجربة لا ينقص ولا يختل في أصله وغالب فَرْعِه

الثاني: معرفة الواقع وتقلّباته، وحكم الشرع فيما يجريان فيه نصا وتجربةً ومشاهدةً وتحقيقًا وذوقًا للأجسام الكثيفة والأرواح اللطيفة، حتى يعاملَ كُلًّا بما يليق به.

الثالث: معرفة التصرَف في ذلك وتصريفه بأن يضع كل شيء في محلّه على قدره ووجهه، من غير هوًى ولا ميل لحظٍّ، ولا يتمَ له ذلك إلا بورع صادق في تصرَفه ينتجه عدمُ رضاه عن نفسه، وزهدٍ كامل نشأ عن حقيقة إيمانيةٍ تهديه لترك ما سوى الحقّ سبحانه، وتأدّب كامل بمن صحّ أدبه

الإمام أحمد زرُّوق الفاسي ت 899هـ



ولأنَّ هذا المُرْشِدُ سيَبْدَأُ تَرْقِيَتَك ورُقْيَتَكَ مِنْ حيث تَعْرِفُ نفسَك على عِلَّاتِها " بَلِ الإنسانُ على نفسه بَصيرةٌ "

، ولـيس مِـنْ حيـثُ تَعـرِف الأشـياءَ والأسـماءَ ، وهـذا هـو مِفْتـاحُ السُّـلوك بـالنفس الأمّـارة إلـى الله تعـالى ليُكمّلهـا ويُطَمْئِنَهـا ، والـذي قُلْنـاه أنَّـه لا يَصِـحُّ إلَّا مِـنْ داخـلِ الـنفس لا مِـنْ خارجِهـا بالضَّـرورة ، أيْ مِـنْ حيـث تَعْـرِفُ نفسَـك فـي أكْـوانِ رَبِّـكَ لا مِـنْ حيث مَعرِفَـةِ الكَـوْنِ فقـط فتُحْـرَم مَعْرِفَتَيْنِ : معرفـةُ نفسك ومعرفـةُ رَبِّـكَ : إذْ علـى الحقيقـة لـيس فـي العـالَم سِـوى أنـتَ ورَبُّـكَ ، ثـمَّ اعلـمْ أنَّ نتيجـةَ هـذا السُّـلوك للـنفس مِـنْ داخلِهـا وصَـميمِها هـو أنْ تَسْـتَوْلي روحانيَـةُ نَبِيِّـك عليـه السـلام علـى قلبـك وأنـتَ الـذي تابَعْتَـهُ فـي طَلَبِـكَ لله تعـالى كَمـا أَمَـرَكَ شـيخُك ، فيُصْـبِحُ فـي الأخيـر نَبِيُّـك عليـه السـلام هـو شـيخُك ومُرَبِّيك علـى الحقيقـة واليَقـين لا علـى الهَـوى والتَّخْمـين ، وهنـاك تَقِـرُّ عَيْنُـك وتَقِـرُّ بـك كُـلُّ عَـيْنٍ ، كيـف لا وهَـوَى نَفْسِـكَ الآنَ هُـوَ تَبَـعٌ لِمـا جـاء بـه النَّبِـيُّ عليـه السـلام ، وعَيْنُـكَ علـى عَـيْنِ مـا أُريـدَ مِـنَ المُصـطفى عليـه السـلام مِـنْ رَبِّـهِ وبِعْثَتِـهِ فـي الغَيْـب والشَّـهادةِ ، لأنَّ الظَّـاهر والبـاطنَ كمـا قُلنـا أصْـبحا مَظْهَـرًا وعَيْنًـا واحـدةً ، فيكـون هـذا النبـيُّ أَحَـبَّ إليـك مِـنْ نفسِـك ومالـك ووَلَـدِك ووالِـدِك وشـيخِك والنَّـاسِ أجمعـين ، وهـذه المَعِيَّـةُ النَّبَوِيَّـةُ هِـيَ التـي تُنْـتِجُ المَعِيَّـةَ مـع رَبِّـكَ تعـالى وتُنْـتِجُ أيضًـا أنْ يَصـير رَبُّـك هـو أَهْلُـك وخاصَّـتُك وعَوْنُـك ويَـدُك وسَـمْعُك وبَصَـرُك ورِجْلُـك فـي طَـيِّ سَـفَرِ النفـوس وتَكَثُّراتِهـا وشِـرْكِيَّاتها إلـى بَـرِّ سـاحلِ التوحيـد ، وهـذا علـى اليَقـين والتَّمكـين لا علـى الهَـوى والتَّخْمـين " حتّـى يأتيـك اليَقـينُ " ، ولا يكـون رَبُّـك تعـالى مِـنْ أهْلِـكَ وخاصَّـتِكَ إلَّا بعـد طَهـارة الـنفس والقلـب ومِـنْ داخـلٍ إلـى خـارج وِفْـقَ كَيفيَّـةِ وصُـحْبَةٍ صَـحيحةٍ ومُجاهَـدَةٍ كاملـةٍ ومُشـاهَدَةٍ شـامِلَةٍ : " والـذين جاهَـدوا فينـا لَنَهْـدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا وإنَّ اللهَ لَـمَـعَ المُحْسِـنين " ، فيكـونُ صـاحبُ هـذه المَعِيَّـةِ عِنْـدَ رَبِّـهِ تعـالى لا عِنْـدَ نفسـه ، وهـذا حيثمـا حَـلَّ وارْتَحَـلَ ، والنـاسُ يَظُنُّونـه معهم أوْ عِنـدهم ، وهـذه العِنْدِيَّـةُ التـي لـه عنـد رَبِّـهِ مِـنْ أَثَـرِ

تلك المَعِيَّةِ وتجعلُ صاحبَها مُبارَكًا أينما كان ومع مَنْ كانَ وعندَ مَنْ كانَ وهُوَ في الدُّنيا ، إذْ هو في غَيْبِ الدُّنيا وهُوَ في الدُّنيا أيضًا : " إنّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ " ، ثم قال بَعْدَها عنْ عِلْمِ الآخِرة الذي هُوَ غَيْبُ الدُّنيا " إنَّا نحن نُحي المَوتى ونكتُب ما قَدَّمُوا وآثَارَهُمْ " ثمَّ ذَكَرَ الصُّندوقَ الأسود الذي يَحْفَظ هذه الآثارَ في الدُّنيا وهو النفسُ : " وكُلَ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ " فافهم ، إذْ هذا السَّالِكُ وهُوَ في غَيْبِ الدُّنيا وهُوَ في الدُّنيا هُوَ مِثل غَيْبِ الآخِرة عندما نرْجِعُ إلى الله تعالى في الآخِرة ، وغَيْبُ الدُّنيا هذا شَهَادَةٌ لِمَنْ حَقَّقَهُ كَمَا في الآخِرة أيضًا : ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ أوْ مُؤْمِنٍ ، فهِيَ مَزِيَّةٌ لهذه الأُمَّة المُحَمَّدِيَّةِ دون غيرها مِنَ الأُمَمِ ، ثُمَّ تَمَيَّزَ في هذه الأُمّة نفسها أفرادٌ وأخيارٌ ونُجَباءُ بالسُّلوكِ الشَّريف بنُفوسهم في كُلِّ نَفَسٍ مِنْ حياتهم إلى الله تعالى والتَّطَرُّق بأسمائه والتَّخَلُّق بصِفاتِه وفْقَ كَيْفِيَّةٍ معروفةٍ مِمَّا ذَكَرْناه إلى ساحِلِ التَّوحيدِ وشاطِئِ الإسمِ العظيمِ الأعْظَمِ ، مَنْ أحْصَاها دَخَلَ الجَنَّة فافهم ، وهذا لمْ يَكُنْ بالنَّوم ولا باتِّباعِ الدّعايات وآخِرِ الصَّيحاتِ والمَوْضاتِ ، ولا بإحصاءِ نُجومِ الفَضائيَّاتِ ومَشائِخِ الآيْبادِ ، ولَكِنْ بالمُخاطرة بالنفس لأجل بُلوغِ كَمالِ صاحبِها فيَقْتَدي بالهَدْيِ النَّبَوِيِّ شِبْرًا بِشِبْرٍ وذِراعًا بِذِراعٍ ، ليُصْبِحَ الظَّاهِرُ والباطِنُ شَيْئًا واحدًا ولِرَبِّهِ مُوَحِّدًا ، وبالطبع ما ذكرْناه سابقًا مِنْ مراحل ومُميّزاتِ كلّ مرحلةٍ مِنَ السُّلوكِ بالنفس لا يَنْطَبِقُ على الجميع وماذكرْناه ليس حرفِيًّا ، وإنَّما هو إشاراتٌ وإحالاتٌ على الأُصول ، وتَشْويقٌ وتَنْبيهٌ " قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ " ، كَما قال أحدُهم : [نحن لا نكتبُ الكُتب بالخَطِّ المَكتوبِ ولكنْ للتَّأمُّلِ مع الصُّحبة والخِدْمَة حَتَّى يَتَّصِلَ الطَّالبُ بالمَطْلُوبِ] ، وبِأيِّ كَيْفِيَّةٍ شَرْعِيَّةٍ حَصَلَتْ فذلك هُوَ المَطْلوبُ ، فَهِيَ أذْواقٌ لا تُؤْخَذُ مِنَ الأوراق ولكنْ بِصُحْبَةِ أَهْلِ الأذْواقِ ، ومَفاتيحُها ليس في الكُتب وإنَّما في صُدورِ الرِّجالِ الأحْرارِ التي هِيَ قبُورٌ لهذه الأسرارِ ، ومَنْ ذَاقَ عَرف ومَنْ عَرف اغْتَرَف ، قال عليه السلام : " يَبْعَثُ اللهُ لهذه الأُمَّة على رَأْسِ كل مائةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لها دِينَها " فافهمْ ، ونحنُ أَشَرْنا لك إلى كَلِمَةِ السِّرّ ، ولَعَلَّكَ إنْ تَأَمَّلْتَ مَا ذَكَرْناه بَعْدَ نَزْعِ الهَوَى والأَحْكامِ المُسْبَقَة سَتَجِدُ كَلِمَةَ السِّرّ إنْ شاءَ اللهُ تعالى .

ثـمَّ نُواصِـل رحلتنـا بكـلامٍ للشَّـيخ #عبـد الفتّـاح القاضـي رحمـه الله لَمّـا يقـول : [إعلـمْ أنَّ مُـلاكَ الجسـم هـو العقـل ، لكـنَّ العقـلَ عقـلان : عقـلٌ للـنفس لتَـدبير أمـور الـدُّنيا ، وعقـلٌ للـرُّوح لتَـدبير أمـورِ الآخـرةِ ، فـإذا طَغـى عقـلُ الـنفسِ علـى عقـلِ الـرُّوحِ] أوْ الظَّـاهرُ علـى البـاطنِ أوْ العكـس إنْ كـانَ بِغَيْـرِ تحقيـقٍ وهَـدْيٍ نَبَـوِيٍّ ، تكـونُ الـنفسُ حينهـا أمّـارةٌ بالسُّـوءِ [وصَـارَا عقـلًا واحـدًا ، وكانـا مَحَـلًّا لهـواجِس الـنفسِ] الأَمّـارة [وخـواطرِ الشَّـيطانِ ، وإذا طَغَـى عقـلُ الـرُّوحِ علـى عقـلِ الـنفسِ انْـدَمَجَا وصَـارَا مَعًـا مَحَـلاً للتَّنَـزُّلات الإلهيـة والإلْهامـاتِ الرَّبَّانِيـةِ] وَهِـيَ كَـوْنُ الظَّـاهرُ مُطمئِنًّـا للبـاطِنِ ، والعكـسُ ، وتكـونُ الـنفسُ مطمئنَّـةً بـذِكْرِ اللهِ تعـالى ، وهـذا الإطمئنـانُ هـو سببُ تَرَقِّيهـا لتُصبح راضيةً كمـا ذكرنـا سـابقًا لَمَّـا تَنْسَـدُّ تلك الثَّغْـرَةُ التـي فـي القلـب والتـي كانـت سـببُ تَضـارُبِ اللِّسـانِ والقلـب والجَـوارِحِ ، ومِنْهـا كانـتْ الـنفسُ تُوَسْـوِسُ لصـاحبِها بالضَّـلالات ومِنْهَـا كـان الشَّـيطانُ يَقْتَـرِنُ لِيُكَمِّـلَ تَـزْيينَ الـنَّفسِ ويُمَـتِّنَ عُقْـدَةَ الإصْـرارِ والـرَّانِ فـي صـاحبِها ، [لـذلك قـال تعـالى " ومـا تَـدري نفسٌ مـاذا تَكْسِبُ غَـدًا "] وقولـه تعـالى أيضـا " فـلا تَعْلَـمُ نفسٌ مـا أُخْفِـيَ لهـم مِـنْ قُـرَّةِ أَعْـيُنٍ " [عَلَّـقَ مَحَـلَّ نُقْـصِ الإدراكِ] ، والإدراكُ أكثـرُ وأكبـرُ مِـنَ العِلْـمِ إذْ معـه فِطْنَـةٌ ، [عَلَـى الـنفس ، عَكْـسَ الـرُّوحِ] أوْ لَمَّـا تَتَـرَوْحَنُ الـنفسُ بِرُوحانِيَّـةِ النبـيِّ عليـه السـلام التـي ذكرْناهـا ، والـذي هـو نتيجـةُ السُّـلوكِ مِـنْ داخـلٍ إلـى خـارج كَمـا قَـدَّمْنا [إذْ لا تَـدْري الـنفسُ] لَمّـا تَبقـى قابِعَـةً بصـاحبِها عنـد دَوائـرِ راحـةِ الـنفس الأَمّـارة [مـا تَدْرِيـهِ الـرُّوحُ] اهــ ، فهـذا النّقصُ فـي الدِّرَايَـةِ فـي " وَمَـا تَـدْرِي نَفْـسٌ " ، ونقْصُ العِلْـمِ فـي" فَـلا تَعْلَـمُ نَفْـسٌ " هُـوَ فـي دُنْيـا الشَّـهوات ، أمَّـا فـي آخِـرةِ الـنفسِ المُطمئنَّـةِ والكامِلـةِ فـلا ، قـال تعـالى : " عَلِمَـتْ نَفْـسٌ مَـا أَحْضَـرَتْ " و " عَلِمَـتْ نَفْـسٌ مَـا قَـدَّمَتْ وَأَخَّـرَتْ " ، وجَعَـلَ مَـوْطِنَ هـذا العلـم فـي الآخـرة ، ولكـن السَّـالِكَ لَمَّـا تَتَـرَوْحَنُ نفسُـه كَمـا قُلْنـا بروحانِيَّـةِ النَّبِـيِّ عليـه السـلام ونَفْسِـهِ الكامِلـة ، يُصـبِحُ عِلْمُـهُ الأُخْـرَوِيُّ مُقَـدَّمًا لـه وهـو فـي الـدُّنيا قَبْـلَ إحْضـارِهِ فـي حَضْـرَةِ الآخِـرةِ ، وهـذا بَعْـدَ تَـدْريبِ _حِلْيَـةِ الأبْـدالِ لِمَـا قُلْنـاه فـي العُزْلَـةِ وأنَّهـا تُـورِثُ مَعْرِفَـةَ حَقيقـة الـدُّنيا كَمَـا ذَكَرْنَـا ، أيْ

مَعْرِفَةٌ وليس مُجرَّدُ عِلْمٍ فافهمْ ، وهي ما يُسَمّى بالبَصيرة أيْ طاقةُ النفسِ في مَعلوماتِها كَما يقولُ الإمام #ابن حزم الأندلسي رحمه الله تعالى : [لَوْ كان عِلْمُ النفسِ فيما عَلِمَتْ بقُوَّتِها وطَبيعتِها دون مادَّةٍ مِنْ غَيْرِها ، لكانَ المُعْجزُ لها مِمّا جَهلتْه أسهلَ عليها مِنَ المُمْكِنِ لَهَا مِمّا عَلِمَتْهُ ، فاعترَفتْ بأنَّ لها مُدبّرًا عَلَّمَها ما عَلِمَتْ مِنَ البَعيدات فعَلِمَتْه ، وجَهِلَتْ ما لَمْ يُطْلِعْها طِلْعَهُ مِنَ القَريبات فجَهِلَتْه] اهـ ، فإذا تمكَّنتْ الوَارِداتُ الإلهية منها أوْرَدَتْ هذه الوارداتِ على القلب ليفْتِيها فيها بالحقِّ فلا يَنْطِقُ الّلسانُ إلاّ بالحقّ بعد نطق القلب بالحقّ ، وإنْ وردت الورارداتُ الشّيطانية تمكّنت هذه الوراداتُ مُنْضَمَّةٌ مع الوارِداتِ النَّفسية الأصليَّة فيها فتَقْهَر القلبَ بلا فَتْوى مِنَ الحقّ ليَصيرَ صاحبُها نحو عاداتِ الشَّهوات فتُصبحُ أَمّارَةً بالسُّوء ، قال تعالى عنْ هذه العَقبة بين النفس والقلب وبين الظاهر والباطن وبين النفس والكون والتي لا تُحَلُّ إلا بالسّلوك الصَّحيح كما ذكرْنا : " فلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ وما أدراك ماالعقبة " ، وقَبْلَ ذلك قال : " إنّا هَديْناه النَّجْدَيْنِ " و " إنّا هديْناه السَّبيل إمّا شاكِرًا وإمَّا كَفورًا " ؛

فاعْلمْ أنَّ الإنسان عالِقٌ في هذه العَوائق الكَوْنِيَّة والعوالِق النَّفسية إنْ اتَّخَذَها إلهًا وهَوًى من دون الله تعالى ، وتَلَخّصَتْ في : **المَكان والزَّمان والكَمّ والكَيْف والوَضْع والإضافات والحُدوث والإمْكان** ، إذْ كلُّ فعلٍ من هذه الأشياء الثمانية في الوجود ما هو إلا مَظْهَرٌ لإرادةِ الله تعالى وكَلِمَتِه : " وكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا " ، وتَمامُ كلماتِه كما قال : " وتَمَّتْ كلماتُ رَبِّك صِدقًا وعَدْلًا لا مُبَدِّلَ لكلِماته " إشارةٌ إلى أنَّ تَمامَ الشَّيءِ أوْلى به مِنْ نفسه فيكونُ مع نفسه بالإمْكان ومع تَمامِه بالوُجوب ، والوُجوبُ آكَدُ مِنَ الإمْكان " أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ " ، فما بَدَأَ كانفجارٍ عظيمٍ ككَوْنٍ سينْتهي كما كان في " كُنْ " كانْكِماشٍ عظيمٍ وأعظم ، وإنّ أوّلَ كلمةٍ سمِعها الإنسانُ هي كلمة: " كُنْ " ، إذْ الكونُ كان معدومًا ثمَّ أُبْدِعَ مِنْ حَضْرَةِ العَدَمِ إلى الوُجود بالسَّماعِ لـ " كُنْ " ، ثمَّ أُظْهِرَ مِنَ العَدَم إلى الوُجودِ بالكِتابَةِ كما أُبْدِعَ مِنَ العَدَمِ إلى الوُجود بالسَّماع ،

فالكونُ هو كتابُ الله وكَلِمَتُه : فبِالقَوْلِ كُتِبَت اللَّطائفُ [الطَّاقَةُ] وبالكِتابَةِ أُسْمِعَتْ الكَثائفُ [المَادَّةُ] ، ثمَّ انحصرت الكثائفُ واللّطائفُ في عالَمِ الإنسان في نفسه التي بين جَنْبَيْه لتَكون بَوَّابَةً على بَيْتِ رَبِّهِ فيه وهو قلبُه الذي هو أول ما خَلَقَهُ بيديْه الكريمتين قبل خَلْقِ جسده ، ذلك أنَّ لِرَبِّنا تعالى كِتابان ولهما قِراءتان : كتابٌ مَسْطورٌ [القرآن] وكتابٌ مَنظورٌ [الكون والآفاق بما فيهما الإنسان] ، فمصدرُ هذين الكتابين واحدٌ لذلك لا يُفَسَّرُ

أحدُهما إلا بالآخر واختلفت التفاسيرُ لإختلاف أنْفُسِ المُفَسِّرين لا غير ، فكلاهما يقودان لِمَنْ جمع بينهما بعد السلوك بالنفس لتصير كاملةً إلى ربّها الواحِد كما ذكرْنا سابقًا : من الوحدانيّة إلى الأحديّة إلى الفردانية ، فقوانينُها وسُنَنُها وإنء كانت لا تَتغيَّر إلا بالنسبةِ للثَّابِتِ المُتَغيّرِ في كلِ إنسانٍ وهو نَفْسُه ، إذْ الإنسانُ عالَمٌ كبيرٌ والكونُ إنسانٌ صغيرٌ كما يُقال ، ثمَّ اعلمْ أنَّ العالَم والكونَ كلّه ليس فيه سوى هذه الأربعة : قديمٌ [الزَّمان] وحَديثٌ [المكان] و لَطيفٌ [الطاقة] و كَثيفٌ [المَادَّةُ] ، واللهُ تعالى قَبْلَها وبَعْدَها بلْ قَبْلَ القَبْلِ وبَعْدَ البَعْدِ كما قيل : إنَّ الله قَبْلَ الخَلقِ كان ، يعلمُ ما كان وما سيكونُ وما لمْ يَكُنْ لوْ كانَ كَيْفَ يَكونُ كَانَ ، فمنْ أراد أنْ يَدّعي الخَلقَ أو إلغاء الغايَة مِنَ الخَلْقِ أوْ إعادةَ الخَلْقِ فهو لا يَمْلِكُ هذه الأربعة التي ذكرْناها مِنْ زمانٍ ومكانٍ وطاقةٍ ومادّةٍ ، ولوْ ادَّعى أنه مَلكَها أوْ أنْتَجَتْها أجهزتُه فأيْنَ قَبْلِيَّتُه و سابِقِيَّتُه وأوَّلِيَّتُه وأَبَدِيَّتُه عليها حتى يَحْكمها دون أنْ تَتحَكَّمَ فيه أوْ تنقلبُ أضدادُها عليه ؟ ، فهِيَ في الَّلحظة التي أنْتَجَهَا فَقَدْ أنْتَجَتْه هُوَ، لأنَّها منه مادّةً وطاقةً ، وهو مِنْها زمانًا ومكانًا ، هُوَ فقط يُحاكِي ما ظَهَرَ له في عقله ، أيْ هو يُحاكي ما هو كائنٌ لا ما كان أوْ ما سيَكون ، عالِقًا في وِجْهَتِهِ الَّلحْظِيَّة الآنِيَةِ الأَنانِيَّةِ ، كما تُصَوِّرُه له نفسُه الأمَّارةُ بالسُّوء ...

ولذلك حتى تَتبصَّرأكثر أيُّها القارئ الكريم بِما ذكرْناه من سلوكِ النفس في نفسِ كلِّ واحدٍ مِنَّا لَيصلَ إلى الله تعالى بمقام الإحسان ، سنذكر لك أيضًا سُلوكَ نفسك في الكون والآفاق ، فمنْ لم يَقتنعْ بالسُّلوك الأوَّل وهو فريضةٌ شرعيةٌ عَيْنِيَّةٌ لا كِفَائِيَّة كما قلنا نُقْنِعُه بالسُّلوك الثَّاني وهو معرفةُ الرَّبِّ بمعرفةِ النفسِ مِنْ بابِ معرفةِ الكون والآفاق بتعريفِ النفسِ طِبْقًا لتعريفِ الرَّبِّ ، فليس للمُؤمن والكافِرِ على السَّواء مِنْ وُصولٍ وسَعادةٍ إلا بإحدى هذيْن الطَّريقين : معرفةُ النفس أوْ معرفةُ الكون ، فالأولى جَذْبٌ وسُلوكٌ وهي طريقةُ الإجْتِباء ، والثَّانيةُ كَسْبٌ وعَقْلٌ وهي طريقةُ الإهْتِداء ، لكن الأولى مَنْ حَقَّقَها لَمَّا تُصبِحُ النفسُ كاملةً هُوَ طائرٌ ، والثانيةٌ مَن اهتدى إليها وعَقِلَها هو فقط سائِرٌ لا طائرٌ ، قال تعالى " سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يَتَبيّن لهم أنه الحَقّ " ، وانظرْ كيف سَبَّقَ شأْنَ النفس أيضًا بقوله " وفي أنفُسْكُمْ أفلا تبصرون " قَبْلَ قولِه " وفي السَّماء رِزْقُكُمْ وما توعدون " ، وقال تعالى : " وبالحَقّ أنزلناه " مِنْ أَمْرٍ، وهو يتوجّه على النفس والقلب ، " وبالحقّ نَزَلَ " مِنْ خَلْقٍ ، وهو يتوجّه على الآفاق والكون ؛ فلولا النفسُ لَمَا تَجَلَّتْ الآفاقث ولَمَا تَمَيَّزَ الحَقُّ والخَلْقُ ، فانظرْ كيف بدأ ربُّنا تعالى بالنفس قبل الآفاق في آيةٍ أخرى بقوله: "أوَ لَمْ يتفكّروا في أنفسهم ما خلَق اللهُ السموات والأرضَ وما بينهما إلاّ بالحقّ" ؛ يقولُ الإمام

الشيخ #أحمد الفاروقي السَّرَهَنْدِي رحمه الله : [علامةُ صفاء القلب] بعد تزكيةِ النفس الذي ذكرْناه [ظُهورُ ذلك القلب فى عالَم المِثال] أيْ في الآفاق [فيكونُ حاصِلُ السَّير الآفاقى أنْ يُشاهِد العابدُ تَبَدُّلَ أوصافه وتَغَيُّرَ أخلاقه فى مَرايا عالَم المِثال فيُحِسُّ زَوال ظُلمةِ طَبْعِهِ فى ذلك العالَم] الآفاقِي [حتّى يحصل له اليقينُ بصفائه ويَثْبُتُ العلمُ بتزكيته فيُشاهِدُ أحوالَه وأطوارَه ساعةً فساعة فى عالَم المِثال الذي هو من جُملةِ الآفاق ، ورَأى فيه انتقالَه مِنْ هيئةٍ إلى هيئةٍ كأنَّ سَيْرَه كان فى الآفاق ، وإنْ كان هذا السَّيْرُ فى الحقيقة فى نَفْسِ السَّالِكِ ، وكانتْ الحركةُ حَرَكَةٌ كَيْفِيَّةٌ فى أخلاقه وأوصافه ، ولكنْ لَمَّا كان سَطْحُ نَظَرِهِ بعيدًا فى رؤيته كان ذلك آفاقًا لا أنْفُسًا ، وصار السَّيْرُ مُنْتَسِبًا أيضًا للآفاق ، عندها تَمَّ السَّيْرُ إلى الله تعالى عند هذا السَّيْر المنسوب للآفاق ، وبعدها يَبدأ السَّيْرَ في الله تعالى وهو السَّيْرُ الأنْفُسِى حيث تصيرُ النفسُ مَرايا لظِلال الأسماءِ الحسنى وعُكوسِها ، أمَّا السَّيْرُ الآفَاقِى مِنْ قبلُ فكان سَيْرًا فى ظِلالِ الأسماء الحسنى فى مَرايا النفس لا فى مَرايا الأسماءِ الحسنى ، فانتبهْ للفرق فإنَّ مِرْآةَ العَدَمِ هى الوحيدةُ التى قَبِلَتْ انْعِكاسَ الصُّوَرِ العِلْمِيَّةِ للأسماء الحسنى فافهم ، ففى السَّيْر الآفاقِى يَحْصُلُ للنفس التَّخْلِيَةُ مِنَ الصّفات والأخلاق والأفعال المذمومة] بمُلاحظةِ جانِبِ النَّفْيِ مِنْ كلمة التَّوحيد وهو ما يُعْرَفُ بالوِحدانية [وفى السَّيْر الأنْفُسِى يحصل للنفس التَّحْلِيَة والتَّزْكِية بالأخلاقِ الرَّبَّانِيَّةِ والنَّبَوِيَّة] بمُلاحَظَةِ جانِبِ الإثْباتِ مِنْ كلمة التَّوحيد وهو ما يُعرَف بالأحَدِيَّةِ كما ذكرْنا سابقًا [فإنَّ تَحَقَّقَ ماذكرْناه يَنتقل العابدُ إلى السَّيْرِ عن الله تعالى ، فإنْ تَأهَّلَ لدعوةِ العباد وإرشادِهم وتَكْميلِهم أصبح سائرًا بالله تعالى ، ولكنه يكون مُتَوَجّهًا بكُليته إلى العالَم الآفاقى بحيث يكون ظاهرُه مع الخَلْق وباطنُه وسِرُّهُ مع الحَقّ تعالى ، ومُرادُنا بكُليّةِ تَوَجُّهِهِ للآفاق هو عالَمُ الشيخ الأمْرِى وعالَمُهُ الخِلْقِى معًا ، أيْ يكونُ مُتَوَجّهًا للدَّعوة والإرشاد بعالَم الخَلْقِ وعالَم الأمْر كليهما ، وينبغى أنْ يعلم أنَّ التوجه إلى الحق تعالى يَسْتَدْعى بُعْدًا ، والبُعْدُ فى حَقّ هذا الشيخ صارَ نَصيبَ الآخَرين الذين يَحْتاجون إلى السَّيْر إلى الله تعالى ، فَهَلْ رأيتَ أحدًا يكونُ مُتَوَجّهًا إلى نفسه فكيْفَ إلى شيءٍ هو أقربُ مِنْ

نفسـه ، فإنـه لا يُتَصَوَّرُ تَوَجُّهُـه إليـه ، و عـدم التَّوجُّـهِ هـذا هـو مِـنْ خَصـائص كمـالات هـذا الشـيخ ، ويَظُنُّـه الآخـرون أنَّـه نقصًـا ، ويَزعمـون التوجُّـهَ كمـالًا بالنسـبة إلـى عَدَمِ التَّوَجُّه فاحذرْ ،

ولكـنْ انتبـه مـا لـم تَخْـرُجْ أثنـاءَ سُلوكك إلـى مـا وَراء الأنفُـس والآفـاق فلـنْ تعلـم معنـى ظِلّيَّـةِ الأسـماء والصِّفات التـى كنـتَ تَسْـلُكُ بهـا ، لأنـك كُنْـتَ تَسْـلُكُ فـى ظِـلال الأسـماء والصِّـفات ، واللهُ تعـالى مِـنْ وَرائهـا ، لأنَّ خَـرْقَ الحُجُـبِ الظّلْمانِيـة] التـي كانـت الـنفس تتَسَلّى بهـا طيلـةَ سُلوكها [منـوّطٌ بطَـيِّ جميـعِ مَراتِـبِ الإمْكـانِ] أيْ مِـنْ عـالَمِ الخَلْـقِ أو الآفـاقِ [وهـذا يَتَيَسَّـرُ بالسَّـيْرِ الآفـاقى والسَّـيْرِ الأنْفُسِـى] مَعًـا [لأنَّ فيـه أيضًـا خَـرْقُ الحُجُـبِ النُّورَانِيـة كـذلك] لأنَّ النُّـورَ هنـا حِجَـابٌ عـن النُّـور أيضًـا [ومَربـوطٌ بسَـيْرِ الأسـماء والصِّـفات الواجبيَّـةِ تَعالَـتْ وتَقَدَّسَـتْ ، حتـى لا يَبقـى فـى نظَـرِهِ اسـمٌ ولا صـفةٌ ولا شَـأْنٌ ولا اعتبـارٌ فـى نظَـرِهِ ، فحينئـذٍ يَتَيَسَّـرُ لـه خَـرْقُ الحُجُـبِ النُّورانِيـةِ بتَمامِهـا ؛ غايَـةُ مـا فـى البـاب أنَّ المَراتـب فـى الحُجُـبِ الظّلْمَانِيـةِ مُتَفاوتَـةٌ فيَكـونُ ذلـك التَّفـاوُتُ سـببًا للإشْـتباه ، لأنَّ الحُجُـبَ النَّفسـانية فـوْقَ الحُجُـب القَلبيَّـةِ فـى الظّلمـة مـثلًا ، فربَّمـا يظهـر قليـلُ الظُّلمـة نفسُـهُ بعُنـوان النُّورانِيـة النِّسْبيَّةِ ، فيُتَخَيَّـلُ الظّلمـانىَّ نُورانِيًّـا] ومِـنْ هنـا أهمِيَـةُ وُجـودِ البَصـيرة الفراسِـية ووجـودِ شـيخٍ مُتَبَصّـرٍ متفـرِّسٍ فـي تسْـليك تلامذتـه كمـا ذكرْنـا سـابقًا ، [إذن التَّخليـةُ والتَّزْكِيَـةُ لا بـدّ أنْ تكونـا مجتمعتـان لـدَرْءِ هـذه الشُّـبُهَاتِ ، ولابـدَّ للسَّـيْرِ الأنفُسـى أنْ يكـونَ مُتَضَـمَّنًا فـى السَّـيْرِ الآفـاقى فـى مَـوْطِنٍ واحـدٍ] ومـن هنـا ضـرورة وجـودُ مُسـلِّكٍ مـاهرٍ يَجْمَـعُ السَّـيْرَانِ نَفْسًـا وآفاقًـا مَعًـا و فـي آنٍ واحـدٍ فـي تلميذه ، ولـيس مجـرّد السَّـيرُ النَّفسـي ثـمّ يَنْتَقِـلُ للسَّـيْرِ الآفـاقي أوْ نحـو ذلـك فهـذا لا يُنـتِج شـيئًا وإلَّا لَحَصَّـلَه كُـلُّ إنسـانٍ ، فانتبـهْ [لأنَّ جَذْبَـةَ الشَّـيخِ المُسَـلِّكِ التـى هـى مِـنْ جَـذباتِ الحَـقّ تعـالى هِـىَ دهليـزُ الوُصـول] إلـى الله تعـالى فـي الـنَّفسِ وفـي الآفـاق مَعًـا ، فـإذا فَكَّـتْ هـذه الجَذبَـةُ كَلِمَـةَ سِـرّ نَفْـسِ التِّلميـذِ اسـتطاعَ الإنطـلاقَ لاحِقًـا بنفسـه إلـى دهـاليزِ نفسِـه وآفاقِـه ، وأمَّـا إذا لـمْ تَتَقَـدَّمْ هـذه الجَذبَـةُ الرَّبَّانِيَّـةُ أوْ حـاولَ السُّـلوكَ بنفسـه مُنْفَـرِدًا لـمْ يَصِـلْ إلـى نفسـه ولا إلـى آفاقِـه فمـا بالُـكَ أنْ يَصِـلَ إلـى رَبِّـهِ كمـا هـو مُلاحَـظٌ بالتَّجرِبَـةِ ، [فالسَّـيْرُ الأنْفُسِـى ضَـروريٌّ وبـه يَتَيَسَّـرُ السَّـيْرُ الآفـاقِى فـى ضِـمْنِهِ ، ولهـذا كـانَ سَـيْرُ الأنبيـاءِ الكـرام سَـيْرًا أنفُسِـيًّا قَبْـلَ أنْ يكـون سَـيْرًا آفاقِيًّـا ، نَعَـمْ السَّـيْرُ الآفـاقِى حَسَـنٌ لـو وُجِـدَتْ الفُرْصَـةُ لِقَطْعِـه

وإتْمامِـهِ مـن غيـر تَخَلُّـل التَّوَقُّفـاتِ ، فلَـوْ لـمْ توجَـدْ الفرصـةُ لِقَطْعِـهِ وَوَقَـعَ الإبْـتِلاءُ بالتَّوَقُّفـات دَخَـلَ ذلـك فيمـا لا يَعنـى واحْتُسِـبَ مِـنْ موانِـعِ المطلـوب ، نَعَـمْ إنَّ السَّـيْرَ الآفـاقى فيـه علـومٌ ومَعـارف وتَجَلّيـاتٍ وظُهـوراتٍ كثيـرةٍ ولكـنْ كلّهـا راجعَـةٌ إلـى الظِّـلال ، بَـلْ إنَّ الآفـاقَ كالظِّـلّ للأنفُـسِ ومِـرْآةٌ لظُهورهـا ، إذْ السَّـيْرُ الآفـاقِى يُقْطَـعُ فـى ضِمْن السَّيْر الأنفُسِى ، ومـا لـمْ يَنْعَكِسْ ظِلٌّ مِنْ ظِلال المطلوبِ فـى مِرْآةِ السَّالِكِ لا يُتَصَـوَّرُ الإنقطـاعُ عَـنْ غَيْـرِ المطلـوبِ ، وأمَّـا الإتّصـالُ بالأصـل فهـو بَعْـدَ حُصـول الإنقطـاعِ ، فمَـنْ قَـدَّمَ مِـنَ المَشـايخ الإتّصـالَ يَنْبَغـى أنْ يُـرادَ بـه الإتّصـالُ بالظِّـلّ ، ومَـنْ قَـدَّمَ الإنفصـالَ علـى الإتّصـال يَنبغـى أنْ يُـرادَ بـه الإتّصـالُ بالأصْـل ، فيَكـونُ النِّـزاعُ لفظيًّا فقط ، فنَيْلُ الظِّلّ مُقَدَّمٌ على التَّخَلُّصِ ، ونَيْلُ الأصل بَعْدَ التَّخَلُّصِ ،

وجِهـادُ الـنفس يكـون دائمًـا ولا ينتهـى إذْ لا يُسَـكِّنُه اطمئْنـانُ الـنفس ولا يرفَعُـهُ تَمكـينُ القلـب وتَطهيـرُه ، وذلـك حتـى تكـونَ نَشْـأةُ الآخِـرة وكَمالاتُهـا مَربوطَـةٌ بـه بالأصـالَة ، فـإنَّ فـى كمـالاتِ نَشْـأةِ الـدنيا يكـونُ القالِـبُ تابعًـا والقلـبُ متبوعًـا ، وفـى كمـالاتِ نَشْـأةِ الآخِـرةِ يكـونُ الأمـرُ بـالعكس حيـث القلـبُ تـابعٌ والقالِـبُ مَتْبـوعٌ ، فتصـبح لـه طاقَـةٌ نَفسِيَّةٌ علـى تَصَـوُّر صِـفاتِ الحَـقّ تعـالى فـى نَفْسِـهِ ويُسَـلِّطُها علـى العَـدَمِ الـذي يَختفـى وراء هـذه الصـفات فـى الآفـاق حسـب قـوّةِ تَوَجُّهِـهِ بباطِنِـهِ إلـى الله تعـالى] أيْ وهـو فـي الـدّنيا ، عبـادةً وعـادةً بالسُّـلوك الـذي ذكرْنـاه ، [وحسـب صِـحَّةِ اتِّصـافِهِ بـأخلاقِ وصِـفاتِ الله تعـالى بعـد سُـلوكِ مراحـل الـنَّفس ، لأنَّ ذلـك العَـدَمُ الكَـوْنِىّ الـذي يَسْـتَتِرُ بصِـفاتِ رَبّـهِ المُكَـوّنُ لـه لـيس كقِيـامِ العَـرَضِ بـالجوهر بَـلْ كقِيـامِ الصُّـورةِ بـالهُيولى ، فيُصـبحُ العَـدَمُ الـذي يَتَخَيَّلُـه السَّـالِكُ حَقًّـا كالأصـل وكـالهُيولى لتلـك العُكـوسِ فـى الإسْـتِتار ، فتُصـبحُ العُكـوسُ والمَرايـا أصـولًا مُخْتَفِيَـة ، بـل وتَخْتَفـى المِـرآةُ نَفْسُـهَا] وهـو مِـنْ بـابِ قَـوْلِهم : بَقِيَّـةُ اللهِ خَيْـرٌ بَعْدَ الإخْـلاصِ فـي السَّـيْرِ ، [فـإذا وَقَـعَ الخَلَـلُ فـى نَشْـأةِ الـدُّنيا وظَهَـرَتْ مُقدّمَـةُ نَشْـأةِ الآخِـرةِ يَنْقَضـى هـذا الجهـادُ ويَرْتَفِـعُ هـذا القِتـالُ ، فـإذا بَلَغَـتِ الـنَّفْسُ مَقـامَ الإطْمِئنـان وانْقـادَتْ لِلْحُكْـمِ الإلهـى فَقَـدْ تَيَسَّـرَ الإسـلامُ الحقيقـىُّ والإيمـانُ الحقيقـىُّ ، وأيُّ عَمَـلٍ يعملـه صـاحبُها بَعْـدَ ذلـك يكـونُ حَقيقَـةً : فـإذا أدَّى الصَّـلاةَ تكـون حقيقيّـةً وإنْ صـامَ كـان صـومًا حَقيقيًّـا] وبـذلك كَمُلَـتْ شَـجَرَتُه

وأطْعَمَتْ ثَمَرَتُهُ ، وآيَةُ ذلك تَحَقُّقُهُ بالتُّسَاعِيَةِ التي ذَكَرَهَا رَبُّنَا تعالى وجَعَلَهَا بالألِفِ واللّامِ كِنايَةً عَنِ التَّعريفِ الحَقيقي : " التّائبون العابدون الحامدون السّائِحون الرّاكِعون السَّاجِدون الآمِرون بالمعروف والنَّاهون عن المُنْكَرِ والحَافِظونَ لحُدودِ الله " [وإلّا بَقِيَ في الإسلام المَجازِي] حيث المُنافِقُ والمؤمن تَساوَيا في ظاهِرِ العبادات مع اختلاف مَقاصِدِهم ، [فإنَّ الفَرْقَ بين صورةِ الشَّريعة وحَقيقَتِها كان ناشِئًا مِنْ جِهَةِ النفس ، حيث كانت النفسُ الأمّارةُ طاغيةً في الصُّورة والمَعْنَى] وأنت تعلم أنّه إذا تَغَيَّرَتْ الصُّورةُ والمَبْنى تَغَيَّرَ المعنى [فلا تُدْرِك هذه النفسُ مادامت أمّارةً كَمالاتِ النُّبُوَّةِ والتي هي حَقائقُ الشَّريعة وثمرتها ، وأنت لن تَرَ رَبَّك بعَظَمَتِهِ أوْ تَعْبُدَهُ كأنك تَراه حتّى تَرى نفسك كما هِيَ مِنْ ذِلَّةٍ وانكسارٍ كما يَحْصُلُ بهذا السُّلوك ؛ والإنسانُ وإنْ كان كما يُسَمّونه عالَمًا صغيرًا لأنه مُرَكَّبٌ مِنْ عالَمَيْ الخَلْقِ والأمْرِ مَعًا] فهو مخلوقٌ مَثْنَوِيٌّ تَتضارَبُ فيه النَّقائِضُ والثُّنائِياتُ ، [ولَكِنْ له هَيْئَةٌ وحْدانِيّةٌ في الحَقائق ، والآثارُ والأحكامُ مُتَرَتِّبَةٌ لتلك الهَيْئَةِ ، أمَّا العالَمُ الكبيرُ فليس له تلك الهيئةُ إلَّا باعْتِبارِ ما يَعْقِلُهُ الإنسانُ منها بخاصَّةٍ في نَفْسِهِ .] اهـ

فهيّا بنا أيُّها القارئ الكريم لنحلِّق بك في سَماءِ معرفة النفس في الآفاق بعد تحليقنا بك في سماءِ معرفة النفس في نفسك أنتَ كعالَمٍ كبيرٍ ، و نسير بل نطير بك وبنفسك المؤمنة بين المَادّةِ وإمْدادِ الحقّ تعالى لها لِتُطيقَ كلُّ روحٍ حَمْلَ الأمانة والرِّسالة المشقَّرة في نفسها ، ولأجل ذلك ننقُل لك مِنْ أحد حُكماءِ الغرب في هذا المجال منْتَقين كلامَه لك بحكمةٍ نَتَوَخَّاها لك مِنْ وَراءِ تَسْطيرِه وتَسْطيرنا لهذه الحكمة ، إذْ الحكمةُ ضالَّةُ المؤمن وأنّى وَجَدَها فهو أوْلى بها ، إذْ الحكمةُ مَرْكوزَةٌ في كلِّ نفسٍ وفي كلِّ كَوْنٍ ،

يقول إذن الكاتب الإيطالي #أومبرتو إيكو ، مُشَرِّحًا النفس البشرية الآفاقِية مع شرحنا له كلَّما كان لذلك ضرورة بالنفس النبوية المحمدية قُدْوَةُ كلِّ نفسٍ ورُوحُ كلِّ آفاقٍ : [الكونُ بذَرَّاته وهي محدودةٌ يُحيطُ بها في آخِرِ عوالِمِه فَراغٌ محدودٌ أيضًا ، وهذا الفَراغُ الأخيرُ يمكن أنْ نفكِّر فيه كفَراغٍ لا فَراغَ أكبر مِنْ فَراغِه ، فلا يبقى وراءَ حدودِ العالَم سِوى الفَراغُ لِمَنْ أراد أنْ يرفض اللّانهاية ، وهناك مَنْ رَدَّ على ذلك بحُجَّتِه التّالية : الفراغُ هو عَدَمُ الكَوْنِ – لكن العَدَمَ لا يكون = إذنْ الفَراغُ لا يكون ؛ وحُجّةُ الآخَر كانت : إذا كان الفراغ موجودًا فلن يكونُ مَادَّةً] لأنّها مليئةٌ وذاتُ كَمٍّ [ولن يكون رُوحًا لأنه لا يمكن تصوُّر الرُّوح فارغًا ... ؛ ولأن الله] تعالى [ليس عَرَضًا] كالمَادّة مثلًا [ولا جَوْهَرًا

] كــالرُّوح التــي نعرفهــا دون أنْ نَعْلَمَهَــا [وإنّما يَنفُذُ نـورُه دون أنْ يكـون شَـفَّافًا ، وهـذا النُّفـوذ لا هـو مـادّةٌ ولا هـو لاشـيء ، ويختلـف عـن العَـدم] ذي الحَجْـم [وعـن المـادّة] لأنهــا شــيءٌ جامــدٌ ، [وكلُّ ذلـك لـيس افتراضًـا ولا تجريـدًا وإنّمـا فِعْـلًا بسـيطًا يَعْلَمُـه] اللهُ تعــالى [في نفسـه] كمــا قــال ســيّدُنا عيسـى عليـه السـلام " تعلـم مـا فـي نفسـي ولا أعلـم مـا فـي نفسـك " [وهذا الفعلُ في نفسه خاليًا حتّى مِـنْ نفسِـه بالنسـبة لِفِعْـلِ نَفْـسِ الإنسـان إنْ حـاوَلَ فَهْمَـه مُباشـرَةً ، لأنّـه فِعْـلٌ خـالٍ مِـنْ تَحديـدِ الـذَّرَّاتِ ومِـنْ تحديـدِ الفَـراغِ ، فهنـاك عبـاراتٌ يَسـتحيلُ التَّعريـفُ بهـا لأنّنـا لا نسـتعملُ في التَّعريـف سِـوى العِبـارةُ التي نريـد أنْ نُعَـرِّفَ بهـا ونَغْفَـل عَـن التي لا نُريـدُ أنْ نُعَـرِّفَ بها ولـوْ كانـت مطلوبـةً لِلْحَـلِّ] فـــاللّهُ تعــالى يَســتحيلُ تعريفَــه بِغَيْــرِ تعريــفِ الــنفسِ السَّــالِكة بالمَعــارِف القرآنيــة والنَّبَوِيَّــةِ ، [والزَّمــانُ لــيس تعــدادُ الحَرَكَــةِ لأنّ الحركــة تخضَــعُ للزَّمــان ولــيس العكــس ، إنــه لامُتَنــاهٍ مُتَواصِــلٍ ، ولكــنْ هــلْ يوجــد لــه جــوهرٌ يُمْكِــنُ تَعْرِيفَــه بــه ، كــأنَّ الزَّمــان والمَكــانَ] أوْ الفَضــاء والخَــلاء أوْ المَــلاء [وُجِــدا قبــل التَّكــوين قبــل أيّ جــوهرٍ أو عَــرَضٍ لأنَّ الفــراغَ والفَضــاء مثــل الزَّمــان ، أو الزَّمــانُ هــو مثــل الفــراغِ والفَضــاءِ ، ألَا يمكــن التفكيــر أنــه مثلمــا توجــد فضــاءات فَلَكِيَّــةٌ يبــدو فيهــا كوكبُنــا الأرضــيّ مثــل نَمْلَــةٍ وفــي كوكبنــا نفســه عــوالِمُ وفَضــاءات أخــرى داخلَــه - ومــع ذلــك فبَعْضُــها داخِــلَ بَعْضِــها الآخَــر- توجَــد أيضًــا أكــوانٌ تَخْضَــعُ لأزمِنَــةٍ مختلفــةٍ ؟ ألَا يَقولــون أنَّ فــوق كوكــب المُشْــتَري يَــدوم اليــومُ عامًــا كــامِلًا ؟ ، توجــد إذن أكــوانٌ تعــيش وتمــوت فــي ظــرف لَحْظَــةٍ ، أوْ تعــيشُ أكثــر مِــنْ قُــدْرَتِنا علــى العَــدِّ ، أكــوانٌ لا تــدومُ فيهــا الأحــداثُ والجــوابُ عــن الأحــداث وَقْــتَ ســاعةٍ أوْ دقيقــةٍ بــل وقــتَ آلافِ السِّــنين ، وأكــوانٌ أخــرى تنشــأ فيهــا الكواكــبُ وتمــوتُ فــي رمشــة عــينٍ مِــنْ زَمــانٍ كوكبِنــا الأرضــي ، ألا يوجــد ربَّمــا علــى مســافةٍ غيــر بعيــدة فــي مكــانٍ حيــثُ الزَّمــانُ فيــه هــو الأمــس ؟ ، قــدْ يكــون دَخَــلَ هــو فــي أحــد تلــك الأكــوان حيــث منــذ اللَّحظــةِ التــي بــدأت فيهــا ذَرَّةٌ مِــنَ المــاء قَــرْص قِشْــرَةٍ مَرْجانِيــة ميّتــةٍ وبَــدَأَ هــذا الأخيــر فــي التَّفَتُّــتِ شــيئًا فشــيئًا ، انْقَضَــتْ مــن الأعــوام قــدر مــا مَــرَّ منــذ خَلْــقِ آدم إلــى القيامــة وقــد صــار اليــوم شــيئًا للإســتحواذِ عليــه وأصــبح لديــه مــن الوقــت ضَــجَرُ القُــرون ويتأهَّــب ليعــيش مســتقبلًا لامُتَناهِيًــا فــي خَيالِــه ، وأنــتَ تعلــم أنَّ عــالَمَ الخَيــال لا يُوازيــه عــالَمٌ آخــر ، فهنــاك أفكــارٌ لا نُفَكِّــرُ فيهــا بَتاتًــا تُــؤثّر فــي القلــب دون أنْ يــتفطَّن القلــبُ إليهــا [ولا العقــلُ [ولا مَفَــرَّ مِــنْ أنَّ الــبعض مــن تلــك الأفكــار التــي هــي ليســتْ إلا رغبــاتٌ غامضــةٌ أحيانًــا تــدخُلُ فــي عــالَمِ روايــةٍ تَظُــنُّ أنّــك تَتَصَــوَّرُهَا بِقَصْــدِ خَلْــقِ مَشــاهِد بأفكــارِ الآخَــرين ، ولكنّنــي أنــا هُــوَ أنــا وأنــت هُــوَ أنــت ، والآن ســأُثْبِتُ ذلــك] أيْ كمــا فــي عــالَمِ الرّوايــة كمــا ذَكَــرَ [بــأنْ أجعلــك تعــيش مغــامراتٍ لا يمكــن أنْ أكــون أنــا بطلُهــا وإنْ دارَتْ فــي عــالَمٍ مــا فهــو كعــالَمِ الخَيــال الــذي ذَكَرْنــاه ،

كأنَّنـا فـي إزاءِ عـالَمٍ : نَفْسُنَا إزاءَ جاسـوسٍ مُـزدوجٍ] كمـا قـال ربُّنـا تعـالى " بـل الإنسـان علـى نفسه بَصيرة "] يَرى جزيـرةً وسط الضَّباب ولَمّـا يَتوجَّـه إليها يُخَيَّلُ إليـه كأنَّها تبتعد عنـه كلّما اقتـرب ، كأنهـا جزيـرةٌ توجـد الآنَ وفـي الماضـي مَعًـا ، فبإمكـان المـرء أنْ يعـيش عالَمَـه مِـنْ زَوايا مختلفةٍ لانِهائية ، مثـل الشَّمعة التي الْتَهَمَتْ مادَّتَها فنَفَقِدُ ذَرّاتٍ منذ اللَّحظة التـي اشـتعلْنا فيهـا ، إنَّ مـا يَقُضُّ مضـجع الإنسـان لـيس طبيعـة النِّهاية وحتميَّـة المـوت ولكنَّـه سِرُّ البدايـة ، فلـيس الشـأنُ الإهتمـام بالسّـرمدية التـي سـتأتي بَعْـدَنَا ولكـن الشَّـأن السّـرمدية التـي سَـبَقَتْنا] قـال تعـالى " هل أتـى علـى الإنسان حِينٌ مـن الـدَّهْرِ لـمْ يَكُـنْ شيئًا مَـذْكورًا "] سـواءً سـرمدية المـادَّة أوْ أَزَلِيَّـةُ المُمِـدِّ لَهـا] الـذي هـو ربُّنـا تعـالى قَبْـلَ الآزال وبَعْـدَ الآجـال] آهٍ منـكِ أيَّتُهـا الآلاتُ الإنسـانية كَـمْ أنـتِ وَهْمِيَّـةٌ] وَهْـمَ الإنسـانِ ،] إنْ كـان الإنسـان حُلْمًـا فأنْـتِ شَـبَحٌ ، إنْ كـان هُـوَ نقطـةٌ فأنـتِ أصْـفارٌ ، ألَا تَـرى أنَّ صَـلابَةَ المـادَّة أوْ سُـيولتها أوْ غازِيَّتُهـا لا تقـومُ إلَّا علـى تـوازنٍ بسـيطٍ مِـنَ الفَراغـات ، إذْ المـادَّةُ تَعْشِـقُ الفَـراغَ ومنـه تَتَكَـوَّنُ ، بـل هـي نفسُـها فَـراغٌ : فَـراغٌ مُطْلَـقٌ ، والفَـراغُ المطلـق يكـونُ فـي قلـبِ النُّقطـة الهندسـية الّلامُتَصَـوَّرَة] كالخَيـالِ الـذي لا يُتَصَـوَّرُ فـي عـالَمٍ مُحَـدَّدٍ وهـو مـا يُسـمَّى بـالفَرْقِ والشِّـرْكِ عكـس التَّوحيـد والجَمْـع كَمـا ذَكَرْنـا سـابقًا] ، وتلـك النُّقطـة ليسـت إلا تلـك الجزيـرة الوَهميَّـة التـي نحلـم بهـا فـي مُحيطٍ مصنوعٍ دائمًـا وفقـط مِـنْ ميـاهٍ . فـي افتـراضِ امتـدادٍ للمَـادّةِ مُتكوّنٍ مِـنْ ذَرَّاتٍ فنَصِـلُ إلـى حيـث عَـدَمِ فَـراغِ الـذَّرَّةِ ، مـاذا يَبْقـى ؟ تبقـى دَوامـاتٌ ، إلا أنَّهـا دَوّامـاتٌ لا تَجْـذِبُ الشُّـموسَ والكواكـبَ مـثلًا ، مـادّةٌ مليئـةٌ تُعـارِضُ فَراغَهـا ، لأنَّ الشُّـموسَ والكواكـبَ هـي أيضًـا دوّامـات ، وتَجْـذِبُ فـي دَورانِهـا دَوّامـاتٍ أصـغرُ ، وإذنْ الدَوّامَـةُ الكبـرى التـي تُحْـدِثُ دوّامـاتِ المجَـرّاتِ تكـونُ فـي نقطـةٍ مَرْكَزُهـا دوّامـاتٌ أخـرى وهـذه بِـدَوْرِها هـي دوّامـاتٌ مِـنْ دوّامـاتٍ : دَرْدورات متكوّنَـةٌ مِـنْ دَرْدوراتٍ أخـرى، وهَاوِيَـةُ الهُـوّةِ الكبـرى المُتَكَوَّنَـةُ هُنَّ الهُـوّاتُ المُتَكَوّنَـةُ الأخيـرةُ منهـا أيضًـا وهِـيَ أيضًـا مِـنْ هُـوّةٍ لِتَهَـوّ لامُتَنـاهٍ قـائمٍ فـي خَيالِنـا الزَّمَنـي اللَّامُتَنـاهِ أيضًـا ، إلـى أنْ نَفيـق لـدى المـوت فيَتَنـاهى ويَتَلاشـى مـا عَبَـدْناهُ مِـنْ شـيءٍ ظَنَنَّـاه خُلـودًا ، وتَـرَبَّصَ بنـا ثقـبُ الزَّمـانِ لِيُنَـاهِيَ زَمَـنَ المـوتِ المَـادّي ، ولِتَتَـيَقَّنَ الـرُّوحُ اللّامُتَناهِيَـةُ لَمَّـا قَيَّـدْناهَا فـي وَهْـمٍ لامُتَنـاهٍ أنْهَـى المـوتُ وُجـودَه ، فتَصَـوَّرْنا مَـادَّةً مَليئـةً بِالـذَّرَّةِ] التـي لا نَقْـدِرُ علـى رؤيتهـا عيانًـا كـالرُّوحِ والـنّفس أيضًـا فـلا نَـرى تَناهيهـا فضـلًا عَـنْ لاتَناهيهـا] فيمـا هِـيَ أيضًـا] أيْ المَـادّةُ] تَطْريـزٌ مِـنْ فَراغـاتٍ فـي الفَـراغِ] يَحْسِـبُها الظَّمْـآنُ مَـاءً] وسَـمَّيْنا كائنًـا كَثيفًـا وَهْمِيًّـا فـي سـرمديَّتِه لِيشـغلَنا عَـنْ سـرمديَّةِ الـرُّوحِ داخِلَنـا بازدِحـامِ الفَراغـاتِ ذلـك الإمْتِـدادُ الـوَهْمِيُّ لِلّانِهايَـةِ] لأنَّـه يشـغلنا عَـنْ رَبِّهـا تعـالى إنْ اسْتَرْسَـلْنَا تحـت اسْـتِدْراجِيَّتِهِ الفَراغِيَّـةِ الّلانِهائِيَّـةِ كمـا تظهـر لِلعقـل المَـادّيِّ الـدُّنْيَوِيّ] الـذي يَتَطـابَقُ] وَهْمًـا] مـع الّلاشَـيْءِ المُطْلَـقِ ، والـذي يوَلِّـدُ مِـنْ عَـدَمِ وُجـودِه نَفْسِـهِ وَهْمِيَّـةً لِلْكُـلِّ ،]

لـذلك مَـنْ عـرف نفسَـه عَـرف رَبَّـه ، لا بِـوَهْمٍ فـي لانِهائِيَّـةِ نَفْسِـهِ ، وكَمَـا يقـولُ #تولسْـتوي : (الإنســانُ فــي مَباحِثِــه الفكريَّــة مــع نفســه يُقابِــلُ مُضْــطَرًّا المَحــدودَ بالمحــدود واللَّامحــدودَ باللَّامحـدود ، ولـذلك كانـت النتـائج تَأْتيـه كمـا يلـي : { القُـوّةُ هـي القُـوَّةُ والمَـادَّةُ هـي المَـادَّةُ والإرادةُ هـي الإرادةُ وغيـرُ المحـدود هُـوَ غَيْـرُ المحـدود ولاشَـيء هُـوَ لاشَـيء } لا أكثـر ولا أقـلَّ كمـا يحـدُث فـي الرِّياضيات عنـدما نريـد حَـلّ معادلـةٍ يجـب أنْ نحصـل علـى أعـدادٍ مُتشـابهةٍ ، فَمَـعَ أنَّ طريقــة الحَـلّ صــحيحة فــإنَّ الجــواب يــأتي هكــذا : { ب تُســاوي ب ، ج تســاوي ج ، ول تساوي ل } وهـذا مـا يحـدث لكـلّ مَـنْ يبحـث عـنْ معنـى حياتـه فتتشـابه عنـده جميـعُ الأجوبـة التـي قـدَّمَها أوْ قـدَّمَها العلمـاءُ علـى اخـتلاف طبَقـاتِهم ، أيْ لا يظهـر لنـا شـيئًا سِـوى بـأنَّ ج تُسـاوي ج ، ومـع أنّ المعرفـة التـي نحصـل عليهـا لا تُنْكِـر شـيئًا مـن ذلـك ، ولكنَّهـا تُجـاوِب بـأنَّ مثـل هـذه الأسـئلة الإنسـانية المَصـيرية لا يمكـن حَلّهـا بمقاييسـها ، ولـذلك تَظَـلُّ القضـيّة غيـر محلولـةٍ لأنَّ الأسـئلة غيـرُ محـدودةٍ مـا لـمْ تَقْتَبِسْ السُّـؤالَ الرَّئيسـي وهـو : مَـنْ أنـا ؟ وهـو السُّـؤالُ الوحيـد الـذي يُبَـيِّنُ العلاقـة بـين المَحـدود وغَيْـرِ المحـدود ، وبـدون هـذه العلاقـة لا يمكننـا الحصـولَ علـى جـوابٍ مـا ، فمـن السُّـخريّةِ بمَكـانٍ أنْ نَـرى ذَواتنـا مَحْمـولِين بِعُجْبِنَـا وغُرورِنـا بمعرفتِنـا كـالأولاد الصِّغار نُـدَوِّرُ سَـاعاتِنا بأيْـدينا ، ثـم لا تَلْبَـثُ أنْ نَنْـزَعَ منهـا محرّكاتِهـا لاعِبِينَ بهـا مُتَعَجِّبين كيـف أنَّهـا لا تضـبَطُ الوقـت) اهــ ، [فالإنسـانُ يَتَـوَهَّمُ وَهْمًـا مِـنْ وَهْـمٍ مِـنْ نَفْسِـهِ فقـط ، فيُحِـبُّ أنْ يفقـد كُـلَّ شـيءٍ ، ويَنتهـي علـى حُطـامٍ تائِـهٍ فـي المُتقـاطرات ، ثـم يَجِـدُ أخيـرًا أنَّـه لـيس هنـاك مـا يمكـن أنْ يفقـده] وهـو الـوَهْمُ ذو الـوجهين : تَـوَهُّمُ وجـود خَلْـقٍ بـلا حَـقٍّ أوْ وُجـود حَـقٍّ بـلا خَلْـقٍ أوْ كَـوْنٍ بِـلا مُكَـوّنٍ ، أوْ مُكَـوّنٍ بِـلَا " كُـنْ " ، [ولَمّـا أفهـم ذلـك أُصـبحُ النُّقطـة المُفَكِّـرَة الوحيـدة التـي يَتَعَـرَّفُ الكـونُ عَلـى وَهْمِيَّتِـهِ وأربـحُ معهـا كُـلَّ شـيءٍ ، فأَنَـا ذَاكِـرَةُ اللَّحَظَـاتِ المَاضِـيَةِ ، أيْ أنـا مجمـوعُ كُـلّ مـا أتـذَكَّره ، وعنـدما أقـولُ أَنَـا بمعنـى يوجَـدُ شـيءٌ هنـا فـي هـذه الآونـة مـا دُمْـتُ مجمـوعَ مـا أُحِـسُّ الآنَ ، ومـا أُحِسُّـهُ الآنَ هـو مجمـوعُ العلاقـات بـين تلـك اللَّامُتَجَزِّئَـاتِ المُفْتَرَضَـةِ التـي هِـيَ مُنْتَظَمَـةٌ فـي ذلـك المركَّـب مِـنَ العلاقـات فـي نظـامٍ مخصـوصٍ كالجسـم ، وذلـك هُـوَ رُوحِـي التـي مـا هـي إلَّا الكَيْفِيَّةُ التـي أُحِـسُّ بهـا بتلـك العلاقـات علـى أنَّهـا كـذلك ، فلسْـتُ أنَـا مُجـرّد مـادَّةٍ أوْ ذَرَّةٍ تحتهـا مَـادَّةٌ أوْ ذَرَّةٌ أصـغر منهـا ، أوْ مُجـرّد نَفَسًـا مُخْتَلِطًـا بحَـرارةٍ ، فَيـا لَهـا مِـنْ لا مَحْسوسِـيَةٍ مُكَثَّفَـةٍ] ومِـنْ هُنـا ضـرورةُ تلطيـفِ هـذه الكَثافـة الطِّينيـة الإنسـانية بالطَّاقـة الروحيـة الدِّينِيَّـة الرَّبَّانيـة المَنفوخـة فيـه بالأصَـالة ، ولكـنْ يجـب مُواصَـلَةُ هـذا التَّلطيـف الرُّوحـي الأصـلي الفِطْـرِيِّ بالتَّواصـل الرُّوحـي الـدِّيني الشَّـرعي مـع رَبِّـكَ و رَبِّ هـذه الكَثـائف واللَّطـائف إلـى غايـةِ نفسـك المطمئنـة والكاملـة بالسُّـلوك الكامـل الـذي ذكرْنـاه ، ولـيس بالإقتصـار علـى التَّنَفـيس

بـأوامرِ العـادات التــي تُصْـدِرُها الـنَّفسُ الأمّـارَةُ ، [ثـمَّ اعلـمْ أنّـه إذا كـان الـزَّمَنُ هـو شَـرْطُ الحَرَكَـةِ] العادِيَـةِ المَعْلولَـةِ أوْ الطَّبِيعيَّـة والآفاقِيَـةِ ولـيس الإلَهِيـة ، [لا نَتيجَتُهـا] ، لـذلك أفعـالُ رَبِّنـا الَّتـي تَتحَـرَّكُ فـي الوُجـود المحكـومِ بقَبْضَـةِ الـزَّمن ليَتَشـكَّل بالأمْكنـة لا تَقْضـي أنَّ رَبَّهـا أيضًـا هـو نتيجـةُ هـذه الحَركـات الصَّـاعِدَة والنَّازِلَـةِ فـي أحشـاءِ الوُجـودِ ، لـذلك الـزَّمنُ الـذي تُريـدُ أنْ تَقـيسَ رَبَّنـا عليـه هـو نَتيجـةٌ مِـنْ نَتـائج إحـدى أزمنـةِ الـزَّمَنِ الـدُّنيوي لـوْ لـم تكـن أنـت إحـدى تَجَلِّياتـه لَمـا تَـوَفَّرَتْ لـك هـذه الخيـارات فـي الحُكْمِ بكـذا وكـذا دون أنْ تُـرَجِّحَ بـين نتيجـةٍ وأخـرى ، قـال تعـالى : " وإنَّ يَوْمًـا عِنْـدَ رَبِّـكَ كَـأَلْفِ سَـنَةٍ مِمَّـا تَعُـدُّونَ " ، [فـالحَجَرُ هُـوَ سَـاعَةَ يُحِـسُّ نَفْسَـهُ بحركتـه فهـو يُحِـسُّ بِزَمَنِـهِ وهـو يَـدُقُّ ، ولأنّ الحُرّيّـة عاطفـةٌ أمّـا إرادةُ الحُرّيّـة فَعَمَـلٌ ، وهـذا هـو الفـارِقُ بينـي وبـين الحِجـارة ، فأنَـا يمكننـي أنْ أُريـدَ والحِجـارةُ يمكـن أنْ تُحـاوِل أنْ تعـود كَمـا كانـت قَبْـلَ بِنائِهـا فـي الحـائِطِ وتَشْـعُرُ بالرَّاحَـةِ عنـدما تَسْـتَعيدُ حُرِّيَّتَهَـا بِهَـدْمِ الحَـائِطِ مَـثَلًا ، ولكنّهـا لا تسـتطيع أنْ تُقَـرِّرَ أنْ تَعْمَـلَ لِتحقيـقِ مـا يَحْلُـو لَهَـا ، الآلاتُ لا تُحِـسُّ وإلَّا فَمـا الـذي تفعلـه عجـلاتُ عَرَبَـةٍ فـي منحـدرٍ : تَتَـدَحْرَجُ فقـط ، الآلَـةُ ثِقَـلٌ ، والثِّقَـلُ يَميـلُ ، وهـو أسـيرُ الحاجَـة العَمْيـاء التـي تَجْذِبُـهُ نحـو السُّـقوطِ] كَمَـا تفعلـه الـنَّفسُ الأمّـارةُ بِالسُّـوءِ ، [والحيـوانُ أيضًـا يَجْذِبُـهُ السّـهادُ ولا يَهْـدَأُ إلَّا عنـدما يَنَـالُ غَرَضَـهُ ، أمَّـا الآلَـةُ البشـرية] بقِيـادةِ الـنَّفسِ ، أمّـارَةٌ أوِ مُطمئنّـةٌ [فـأكْثَرُ تعقيـدًا مِـنَ المعـدن والحيـوان ، إذْ يَلِـذُّ لهـا أنْ تعـيش فـي حالـةِ تَـأَرْجُحٍ ، فأحيانًـا الإنسـانُ يرغـبُ ولا يرغب مَعًا ، وأحيانًا يَخْشَى الخَيْبَةَ حتَّى لوْ بَلَغَ المَرَامَ الْتِذاذًا بالتَّأخيرِ . . .] اهـ .

ثـم بعـد هـذه الوقفـة القصـيرة التـي وقفْنـا فيهـا أيُّهـا القـارئ الكـريم مـع نفسـك وسـلوكها علـى مـدارِج التوحيـد فـي نَفْسِـها وفـي الآفـاق ، نُنَبِّهُـك أنَّ بنـاء الإسـلام علـى القواعـد الخمـس الشـهيرة واضـحٌ ، ولكـنْ لَمَّـا جُعِـلَ التَّوحيـدُ هـو العنـوانُ ، والأركـانُ البَـواقي هُـنَّ تفاصـيلُه فـي حياتـك ، فالنّـاس غالبًـا يَلتمسـون التفاصـيلَ ويَنْسَـوْنَ العنـوانَ المُـوَطِّر ، لـذلك غالبًـا إذا لـم يَتيَسَّـرْ لهـم السُّـلوكُ بأنفسـهم بـيْن العنـوان والتفاصـيل لا يجـدوا ثمـرةً وآثـارًا صـالحةً لتلـك الأعمـال والتفاصـيل التـي تتَفـرّعُ عـن شـهادة التوحيـد مِـنْ صـلاةٍ وزكـاةٍ وصـومٍ وحَـجٍّ وغيـر ذلـك ، لا فـي الـدُّنيا ولا فـي الآخـرة ، لأنّهـا ليسـت التفاصـيلُ التـي أَصَّـلَها العنـوانُ وهـو التَّوحيـدُ ، وإنّمـا تفاصـيلُ أخـرى مِـنْ صُـنْعِ عُنـوانِ نفوسـهم الأمّـارة بهـا تَـأْمُرُهم وتَنْهـاهم وهُـمْ يحسـبون أنهـم أحـرارٌ فـي ذلـك ، فحَـقَّ علـيهم قـولُ رَبِّنـا تعـالى : " ولا تتّبعـوا السُّـبُلَ فَتَفَـرَّقَ بكـم عـن سـبيله " لاحِظْ جَعَلَ سبيلَه واحدًا ولَمّـا تَحَـدَّثَ عَـنْ طُرُقِـه وتفاصيله جَعَلَـه مُتَعَدِّدًا فقـال " السُّبُلَ " ، لِتَعَدُّدِ الإختبـارات والتجليـات والنفـوس والأمزجـة ، وعلـى قـدر الإمتحـان يكـون الإمتكـان ، فمـن لـم يَـعِ الحالـةَ أو المرحلـة التـي عَلَيْهـا نَفْسُـهُ ، و التـي هـي سـبب الإختيـار والسُّـلوك الـواعي بـين سـبيلٍ وآخـر ، ومـا توجُّهُهـا المُناسـبِ لمرحلـةِ النُّمُـوّ ، لـم يهتـدِ للعنـوان الصـحيح الـذي هـو التَّوحيـد والجَمْعُ على الله تعالى ، والمَقولُ عليه بلسانِ حالِ الشّاعر :

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ***** تَدُلُّ على أنَّه واحدٌ

ذلـك هـو التوحيـد الـذي هـو حَـقُّ الله علـى العَبيـد ، وهـو حَـقٌّ لا ينتهـي دُنيـا ولا أُخْـرَى ، لأنَّ السُّـلوك إليـه والوصـول إليـه لا ينتهـي أيضًـا دنيـا ولا أخـرى ولذائـذه لا تنتهـي دنيـا ولا أخـرى أيضًـا عكـس لَذائـذ الـدُّنيا ، ومـا دامـت الـنفسُ أمّـارةٌ بالسُّـوء فلـن يهـديها سِـوى خواطرهـا المَصـروفة مِـنْ بـابِ الشَّـيطان فتوقِـعُ صـاحبها فـي التَّمَسُّـك بحَبائـلِ الشَّـيطان مُكْتَفِيًـا وعالِقًـا

بالتفاصيل ولوْ كانت هذه التفاصيلُ مِنْ بابِ الشَّريعة ، مُتَناسِيًا حقيقةَ هذه الشَّريعة وخاتِمَهَا الشَّاهد لها وقُدْسَها الكامِنُ فيها الذي هو عُنوانٌ ووَحْيٌ يَهدي ويَزِنُ أعمالَها ومَراسيمها وشَعائرَها ، وذلك الإنفصامُ بين الشَّريعة التي هِيَ صلاةٌ وزكاةٌ وغير ذلك مِنْ تفاصيلِ مَقام الإسلام المَعلومةِ في عَقْدِ التَّوحيدِ ، وبين الحَقيقة التي هي ينبوعُ الإحسانِ في قلب الإنسان وعنوانُ أركان الإسلام ، هو سببُ الحَيْرَةِ التي تَعْرِضُ لِلنَّاسِ في الدُّنيا ، فيَفتحُ ثَغْرَةً في القلب تتَوَسَّعُ بالإصرار على عدمِ السُّلوكِ لِدَرْءِ ذلك الإنْفِصام ، وهو التَّمسُّكُ بالعنوان و التَّفاصيل مَعًا بلا انفصامٍ ، وهو الذي قاله تعالى : " فقد استمسك بالعُرْوَةِ الوُثْقى لا انْفِصامَ لَهَا " وهي مِنْ ثَمراتِ مَقامِ الإحسان المَوْزونِ بتفاصيلِ مَقامِ الإسلام ، لذلك قال ربُّنا قبل هذا التَّقْرير : " ومَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى الله وهُوَ مُحْسِنٌ " قَبْلَ ذِكْرِ العُرْوَةِ الوُثْقَى التي لا انْفِصَامَ لها ، فذلك هو العُرْوَةُ والميثاق الذي اوْتُمِنَ عليه الإنسانُ في نفسه بَيْنَ الشَّريعة والطَّبيعة وبَيْنَ القلب والآفاق المُتَقَلِّبَةِ ،

إذن ، ما يَصِلُ بين الشَّريعة والحقيقة لا بدّ له مِنْ طَريقةٍ وهو ما سَمَّيْناه بالسُّلوك ، وجَعَلْناه مُخْتَصَرًا في بابِ النفس كَما ذَكَرْنا ، ومِنْ هذا الباب تَدْخُلُ بصاحِبِها على رَبِّه لأنَّها تُصْبِحُ في حَضْرَةِ القلب يَهتَدي بِهَدْيِها ويَتَكَمَّلُ بكَمالِها ، وهذا القلبُ كما قُلْنا هو بَيْتُ وحَضْرَةُ الرَّبِّ في كُلِّ إنسانٍ ، و ذلك هو العنوانُ الذي يبحث الناسُ طول حياتهم عنه عسى يَجِدوا سعادتهم ثم لا يجدوها لأنّهم لم يهتدوا لطريقِها وهو اللهُ تعالى ، وهذا بالإهتداء إلى حَضْرَتْهِ وهو القلبُ كما ذكرنا ، وهذا بمُحاضَراتِهِ لِلنَّفس كما أسْلَفْنا ، فهو سُلوكٌ دائريٌّ لا مُستطيلٌ كَما يسلُكه من لم يفهم هذا الطريق للسَّعادة ، فلا يَجِدوا هذه السَّعادة وهِيَ فيهم لأنهم يبحثون كثيرًا في الخارج وهِيَ فيهم أنفسهم ، إذْ القلبُ وهو بَيْتُ الرَّبِّ هو بَيْتُ السَّعادات ولكن لا يُتَوَصَّلُ لفتحه إلا بمفتاح نفسٍ مطمئنةٍ كاملةٍ وهو بالسُّلوك الذي ذكرْناه ، فمِنَ النَّاسِ مَنْ لمْ يَجِدْ هذا العنوان لأنّه يبحث خارج الخَريطة التي هي نَفْسُهُ التي بَيْنَ جَنْبَيْهِ ، وإنْ وَجَدَ العنوان الصَّحيح اكتفى بالمُشاهدة والوُقوف أمام الباب دون تَحَرُّكٍ للدُّخول ، فيُؤَدّي بعضَ التَّفاصيل مِنْ صلاةٍ وزكاةٍ وصومٍ ثمَّ لَمّا يفْرَغُ منها فكأنه فَرَاغٌ وَمَا فَرَغ ، لذلك واجِبٌ على العبد أنْ يُطَرِّقَ نفسه حتّى يَطْرُقَ بابَ رَبِّه في بَيْتِهِ وهو قَلْبُهُ ، وبدون طَرْقِ النفسِ المطمئنّةِ على بابِ القلب الذي هُوَ بَيْتُ الرَّبِّ لا يُفْتَحُ لِصاحِبِها أبدًا لا دُنيا ولا أخرى ، وهذا التَّحقيقُ بالنفس وتَطْريقُها جُعِلَ فَرْضَ عَيْنٍ على كُلِّ مُكَلَّفٍ وجُعِلَ حَقًّا على المُتَّقين ، قال تعالى في حَقِّ مَنْ عاش حياته ولم يَهْتَدِ لعنوان شريعته بهدايةِ حَقيقته على بِساطِ سُنَّتِهِ عليه السَّلام وطَريقَتِه : " وأن لوِ اسْتَقامُوا على الطَّريقَةِ لَأَسْقَيْناهم ماءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ " ،

فـرُوحُ الإنســان إذا لــم تَهْتَــدِ إلــى جَوارِحــه فــإنَّ الجــوارحَ لا تهتــدي أيضًــا " فإنهــا لا تَعْمــى الأبصــارُ ولكـنْ تعمــى القلـوبُ التــي فــي الصُّدور " إذْ الجَـوارِحُ لا تَهتـدي إلّا علـى مِثـالِ مـا القلـبُ بــه يَقْتَــدي ، ثــمّ لا تَقْتَــدي إلا إنْ كانــت الــرُّوحُ الصَّــافية الفِطْرِيَّــة لسُـنَّةِ الرَّسـولِ تَهْتَــدي ، فقُـدْوَةُ الــرُّوح الإنســانية علــى مِثـالِ الــرُّوحِ المُحَمَّدِيَّــةِ التــي هِــيَ أقـوى روحٍ فــي الكــون ، لكـنْ قُـدوة الـرُّوحِ الفِطْرِيـةِ لـيس سِوى لِلـنَّفْسِ وهِـيَ قُـدْوَةُ القلـب و هُـوَ قُـدْوَةُ الجَـوارِحِ ، إنْ ضَـلَّ ضَـلَّتْ وإنْ اهتــدى اهْتَــدَتْ ، والــنَّفسُ بــين ذلــك كلّــه كواسِــطَةٍ حَسّاسَــةٍ فَطَرِيقُهــا حَسَّــاسٌ ، وإيجــادُ طَرِيقــةٍ تُراعــي حَساسِــيتها هــذه فَــرْضٌ علــى الإنســان بمــا هــو خليفــةٌ فــي الكــون ، فلــذلك مَــنْ فَاتَتْــهُ الصُّحبةُ والإقْتِـداءُ فَاتَــه الوُصــولُ والإهْتِــداءُ ، ومنـــاطُ وسـببُ ذلـك لـيس سـوى هـذه الـنفس ، إذْ هــي أوّلُ مــا تَحَــرَّك طَرَبًــا وفَرَحًــا لَمّــا قَبِـلَ الإنســانُ الإنــزالَ إلــى أرض الخِلافــة ، وكانــت نفسُــه حينهــا واضــحة صــافية طريقُهــا بيضــاءُ مَحَجَّتُهــا ، ولكـنْ كُلِّفَــتْ وامْتُحِنَـتْ بــالأكوان علــى محـكّ النِّسـيان لعهـد الـرحمن فـي كـلِّ إنسـانٍ " ثـمّ رددنـاه أسـفلَ سـافلين " ، فخُيِّـرَتْ بـين المحافظـةِ علـى عهـدِ التوحيـدِ الأوّل وبـين الإنشـغال بمـا لا يَعنيهـا مِـنْ ثُنائيـاتٍ لا تقـدر علـى توحيـدها للمَلِـكِ الواحِـدِ الـدَّيّان فتُشْـرِكُ فـي حُكْـمِ رَبِّهـا ، إذْ هـي موضـع الإشْـهاد بالتَّوحيـد ولكنّـه توحيـدُ الرُّبوبيـة أوْالواحديــة كمــا أشــرنا ســابقًا ، ولــولا إنزالِهــا لَمَــا كُلِّفَــتْ بتحقيــق توحيــدِ الأُلوهيــة أو الأحَدِيــة ، وتوحيـدِ الأسـماءِ والصِّـفات أو الفَرْدانيـة ، وهـو فـي الحقيقـة توحيـدٌ واحـدٌ لمُسَـمًّى واحـدٍ يَجِـدُهُ كـذلك مَـنْ اسـتطاع قَطْـعَ المَراحـل مِـنَ الـنَّفسِ الأمَّـارَةِ إلـى المطمئنـة والكاملـة كمـا ذكرْنـا ، فكَـوْنُ الـنفس مِـنْ عـالَمِ الوِحْـدَةِ أَتَـتْ فأُنْزِلَـتْ واخْتُبِـرَتْ ووُزِنَـتْ وامْتُحِنَـتْ فـي عـالَمِ الكَثْـرةِ والفُـروقِ والثُّنائيـاتِ فـي سَـماءِ الـدُّنيا ، فـإنْ شَـقَّتْ طريـقَ الشَّـريعة بَـيْنَ صُـوَرِ الطَّبيعـةِ فـذلك هـو الفِـرارُ الـذي قالـه تعـالى " ففِـرّوا إلـى الله " فتَكـونُ لـه تعـالى أوّلًا وآخِـرًا وظـاهرًا وباطنًـا بِـلا مَـزْجٍ مِـنْ عــالَمِ الكَثْــرَةِ الــدُّنيوي ، فيحصــل لهــا الوُصــولُ مطمئنّــةً ، مِصــداقًا لقولــه تعــالى : " ألا إلــى الله المصـير " ، فَطـابَ لهـا المصيرُ بتَطييـبِ المَسيرِ وهـو السُّـلوكُ إلـى الـنفس الكاملـة الـذي ذكرْنـاه ، فـإنَّ مَـنْ سـار مـع التَيّـار وَصَـلَ إلـى السَّـاحِلِ ومَـنْ سَـارَ عكـس التَيّـارِ وَصَـلَ إلـى الأَصْـلِ أو المَنْبَـعِ أو الواحِـدِ الـذي جـاءتْ أعدادُه منـه ، وهـذا فيـه خَطَـرٌ خاصّـةً بعـد طـول الأمَـدِ الـذي قالـه تعـالى " فطـال علـيهم الأمَـدُ فَقَسَـتْ قُلـوبُهم " أيْ عَـنِ السَّـيْرِ إلـى الله عكـس تيَّـارِ العصـر الجارِفـةِ ، فتكـونُ الطَّريـقُ إليـه تعـالى حَقًّـا علـى كـلِّ نَفْـسٍ ، والطَّريقـةُ لتحقيـقِ ذلـك واجبـةٌ وفَـرْضٌ عليهـا أيضًـا ، لِتَعـودَ إلـى العنـوان الـذي بُعِثَـتْ منــه ثـم تَناسَـتْهُ وبـذلك كُلِّفَـتْ دون الحيـوان ، جـاء فـي القصـيدة العَيْنِيَّةِ المنسوبةِ لـ #ابن سينا :

هبطت إليك من المَحَلِّ الأرْفع * وَرْقاء ذات تَعَزُّزٍ وتَصَنُّعِ**

محجوبة عن كل مُقْلَةِ عارِفٍ *** وهي التي سَفَرَتْ،ولم تَتبرْقع

وصلت على كُرْهٍ إليك،وربّما *** كرهت فِراقك،وهي ذاتُ تَفَجُّعٍ

وأظنُّها نسيتْ عهودًا بالحِمى *** ومنازلًا بفِراقِها لم تقنع

أنِفَتْ وما ألِفَتْ،فلَمّا واصلَتْ *** أنِسَتْ مُجاوَرَةَ الخَراب البَلْقَع

حتى إذا اتَّصَلتْ بهاءِ هُبوطِها***عَنْ مِيمِ مركزِها،بِذاتِ الأجْرَعِ

عَلِقَتْ بِها ثاءُ الثَّقيلِ فأصبحتْ *** بين المَعالِمِ والطَّلول الخُضَّعِ

تبكي إذا ذكرتْ عهودًا بالحِمى***بِمَدامِعَ تَهْمي ولَمْ تقلع

وتَظَلُّ ساجِعَةً على الدِّمَنِ التي *** دَرسَتْ بِتِكْرارِ الرّياحِ الأربع

إذا عاقَها الشَرَكُ الكثيف وصَدَّها***قفَصٌ عَنِ الأوجِ الفسيح المِربَعِ

حتّى إذا قرب المسيرُ إلى الحِمى***ودَنا الرَّحيلُ إلى الفَضاء الأوْسَعِ

وغَدَتْ مُفارِقَةً لكُلِّ مخلفٍ *** عنها ، حَليفَ التُّراب ، غير مُشَيَّعِ

سَجِعَتْ ، وقد كُشِفَ الغِطاءُ فأبْصرَتْ *** ما ليس يُدْرَكُ بالعُيونِ الهُجَّعِ

وغَدَتْ تُغَرّدُ فَوْقَ ذِرْوَةِ شاهِقٍ *** والعِلْمُ يَرفَعُ كُلَ مَنْ لَمْ يُرْفَعِ

فلِأَيّ شيءٍ أُهْبِطَتْ مِنْ شامِخٍ *** عَالٍ إلى قَفْرِ الحَضيضِ الأَوْضَعِ

إنْ كانَ أَهْبَطَهَا الإلهُ لِحِكْمَةٍ *** طُوِيَتْ عَنِ الفَطِنِ اللَّبيبِ الأَرْوَعِ

فَهُبوطُهَا –إنْ كانَ ضَرْبَةَ لَازِبٍ *** لِتَكُونَ سامِعَةً بِمَا لَمْ تَسْمَعِ ،

وتَعودَ عالِمَةً بِكُلِّ حقيقةٍ *** فِي العَالَمين ـ فَخَرْقُهَا لَمْ يُرْقَعِ

وهِيَ التي قَطَعَ الزَّمَانُ طَرِيقَهَا *** حَتَّى لَقَدْ غَرَبَتْ بِغَيْرِ المَطْلَعِ

فَكَأَنَّه بَرْقٌ تَأَلَّقَ بِالحِمَى *** ثُمَّ انْطَوَى ، فَكَأنَّه لَمْ يَلْمَعِ . اهـ

الأجرع=تربة أو رَملةٌ لا تُنْبِتُ شيئًا

وهي هنا عالَم الأجسام

الدّمَن=آثار الأطلال وهي هنا البدن

الخراب بالموت

الرياح الأربع= كناية عن العناصر الأربعة: هواء،نار،تراب،ماء

مخلف=أي متروك ، وهو البدن

فكأنها لمْ تَلْمَعْ : ولابدّ لها مِنَ الرُّجوعِ إلى الواحِدِ الأَحَدِ " كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ إلَّا وجهه له الحُكْمُ وإليه تُرْجَعُونَ " .

فانظرْ لِمَنْ عاشَ حَياتَه بِنَفْسٍ حيوانيَّةٍ وضَيَّعَ الخِلافةَ الرَّبَّانِيَّةَ على نفسه الإنسانية والسُّلوك بها إلى شاطِئِ التَّوحيد بل شاطِئِ الواحِدِ الأَحَدِ الذي مِنْهُ جاءتْ وإليه تَعودُ فقال تعالى : " فلا يَسْتطيعون تَوْصِيَةً ولا إلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ " ، إذن هذه النفسُ هي الشيءُ الوحيد المُتَبَقِّي في الإنسان منذ الأَزَلِ كأنَّ الإنسان لا يَرِثُ سِوى نفسَه ، ولكنْ أمامه طَريقٌ يَنْتَظِرُهُ هو طريقُ الإخْتِبَارِ لِصَلاحِيَةِ هذه النفس على مِقْيَاسِ الأَبَدِ لِيَرِثَ الجَنَّةَ التي كانتْ له في صَدْرِهِ وهُوَ في الدُّنيا وهِيَ نَفْسُهُ أيضًا ، فجُعِلَتْ الدُّنيا بَيْنَ الأَزَلِ والأَبَدِ وجُعِلَ الدِّينُ الخَالِصُ بين الدُّنيا والآخِرة ، عكس الحيوان الذي لا يَدْري مِنْ أيْنَ جاء أوْ ماذا يَفْعَل وماذا يَحْدُثُ له

ومـا مَصـيرُهُ ، وكـذلك يَفْعَـلُ الإنسـانُ المُشْـرِكُ أو الإنسـانُ المُـؤْمِنُ الـذي لـم يُحَقّـقْ إيمانَـهُ فجَـاءَ بإسـلامٍ سَـطْحِيٍّ ، فـي السَّـطْحِ دون مَقـامِ الإحسـان فـي العُمْـقِ ، إذْ الإيمـانُ حَـقٌّ ولِكُـلِ حَـقٍّ حَقيقـةٌ ، فهـذا مِثـل الحيـوان لـيس لـه ذاكـرةٌ يَعـي بهـا لِيُحَقِّقَ ذاتَـه وخَلاصَـهُ الأبَـدِي ، قـال تعـالى : " يـوم يتـذَكّرُ الإنسـانُ " ، فأنـت لا تعرف أيـن تـذهب إنْ لـم تعـرف أيـن أنـت الآنَ بَـلْ وقَبْـلَ ذلـك مِـنْ أيْـنَ جِئْـتَ ومـا يُـرَادُ بِـكَ ، إذْ السُّـؤالُ : كيـف ؟ مِفْتاحُـهُ السُّـؤالُ : لمـاذا ؟ ولا عكـس ، أزمـةُ مَسـيرٍ وأزمـةُ مَصـيرٍ ، لـذلك كـان سُـلوكُ المُشْـرِكِ مَعْكوسًـا وكـان سُـلوكُ المـؤمنِ مِـنْ نَفْسِـهِ لِرَبِّـهِ مُستقيمًا ، وهـذه هـي الإستقامةُ التـي شَـيَّبَتْ سَـيِّدَنا رسـولَ الله صـلّى الله عليـه وسـلّم لَمَّـا قـالَ : " شَـيَّبَتْني هـودُ وأخواتُهـا " لَمَّـا قـال تعـالى لـه " فاسْـتَقِمْ كَمـا أُمِـرْتَ " ثـم أضـافَنا معـه لَمَّـا قـال بَعْـدَ ذلـك : " كَمـا أُمِـرْتَ ومَـنْ تـابَ معـك ولا تَطْغَـوْا " ، فـالنفسُ لهـا ذاكـرةٌ أوْ بَصـيرةٌ تَحْفَـظُ شخصـيةَ صـاحِبِها ، وهــذه الــذَّاكِرَةُ هــي مَرْجِــعُ الإنســانِ لِيَبْنِــي تَراكُمــاتِ تَحقيــقِ هَدَفِــهِ لِـيَحْفَظَ هَدَفَــهُ الـدُّنيوي والأُخْـرَوي مِـنَ التَّشَـتُّتِ " أفَحَسِـبْتُمْ أنَّمـا خَلَقْنـاكُم عَبَثًـا " ، ولـيس ذلـك سِـوَى بـالنَّفس فقـال تعـالى : " إنْ كُـلُّ نَفْـسٍ لَمَـا عَلَيْهَـا حَـافِظٌ " ، فكـلا مِـنَ المـؤمن والمُشْـرِكِ يَنْطَلِقـانِ مِـنْ نَفْـسِ النُّقطـةِ الأزَلِيَـةِ الوَحيـدَةِ التـي يَمْلِكونَهـا وهُـمْ فـي الـدُّنيا وهِـيَ الـنَّفْسُ ، ولكـن الأهـداف هـي التـي تتغيَّر فَيُيَسَّرُ كُلٌّ منهم لِمَا خُلِقَ له ، لأنَّ صُلْبَ برنامجِ كلِّ وَاحِدٍ منهم مُخْتَلِفٌ ،

وتَجَلِّيَاتُ الأسماءِ الإلهية التي تَرِدُ عليهم أثناءَ امتحان الدُّنيا مُخْتلفةٌ والأسئلةُ مختلفةٌ أيضًا ، ثمَّ في الأخير الكُلُّ سَيَجِدُ نفس الجواب : " وأنَّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهَى " وهو بَقَاءُ الله تعالى واحِدًا لا شَريك له ولا مَثيل ولا نَظيرَ ولا نَدَّ : " وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَه " ، لكن المُوَحِّد السَّالِك يَجِدُ رَبَّه واحِدًا حَقَّ يَقينٍ اخْتِيَارًا ، والمُشْرِكُ أوْ مَنْ تَقاعَسَ مِنْ أبناءِ هذه الأُمَّةِ عن السُّلوكِ يَجِدونه أيضًا واحِدًا ولكنْ بِفَجْأَةٍ واضْطِرارًا ، لأنَّ سُلوكه على مَسالِكِ أيَّامِ حياته كانَ مادَّتُهُ شِرْكٌ وتَقليدٌ ، الأوّلُ وَجَدَ العنوان فجاءَتْه الخريطةُ بِسهولةٍ " يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمَنوا بالقول الثَّابِتِ في الحياة الدُّنيا وفي الآخِرَةِ " والآخَرُ لم يجد العنوان وجَرَّبَ كُلَّ الخرائط وهِيَ مِنْ خارج نفسه ومِنْ خارج رسولٍ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ نفسِه ولم يُفْلِحْ : " ويُضِلُّ اللهُ الظّالِمين ويَفْعَلُ اللهُ ما يَشَاءُ " ، فإذا كُنْتَ لا تعرف أين تذهب فَكُلُّ الطُّرُقِ سَتَتَشَابَهُ " ولَكِنّهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ " ، الأوَّلُ عَرف العنوانَ فَخَفَّفَ الزَّادَ بعد تَخْليصِ ثَمَنِهِ مِنْ نَفْسِهِ فلم يَسْتَغْرِقْ في التَّفاصيلِ ، والثَّاني لَمْ يَعْرِفْ العنوان فجَلَسَ يَسْتَمْتِعُ ويُنَوِّعُ مُتَعَه حتَّى لا يَمَلَّ مِنَ التَّفاصيل " بَلْ هُمْ في لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَديدٍ " ، " حَتّى نَسُوا الذِّكْرَ وكانوا قَوْمًا بُورًا " ، فَيَتَلَبَّسُ النَّاسُ بنفس العادةِ الأولى التي أدْمَنوها ، إذْ لا يَصِلُ أحَدٌ بل لا يَنْطَلِقُ إلى الله تعالى وهناك شَيْءٌ يَجْذِبُهُ مِنْ خَلْف ، إذْ لَمّا يَحْدُثُ فَراغٌ في القلب ولا يَدْرُون ما هو ، يُحاوِلون تَجاوُزَه بالمُتَعِ واللَّذَّاتِ اللَّحْظِيَّةِ لأنهم يَظُنُّونَها شيئًا أزَلِيًّا يُجَدِّدُ لَحْظَتَهم وحياتهم ويُعيدُ مَلْءَ الفَراغِ ، ولكنَّهم سرعان ما يَنْتَهُونَ بانْتِهاءِ مفعولِ تلك المُتْعَةِ لأنَّهم لم يعودوا لِلشَّيْءِ الأزَلِي الوحيدِ فيهم والذي يُتيحُ لهم التَّواصل مع مُتْعَتِهِمْ الأُولى لَمَّا كانتْ

نفوسُهم طاهرةً مِنْ مُتَعِ الشِّرْكِ والشَّكِّ قبل أنْ تُنْزَلَ إلى الأرض للخِلافة على أمانَتِها التي اؤْتُمِنَتْ عليها مِنْ توحيدِ الخالِق ، فظَنُّوا تلك المُتَع الماضِية التي تَعَوَّدُوا عليها حتَّى أدْمَنوها أنَّها خالدةً أوْ أنَّها الشيءُ الخالِدُ فيهم وظَنُّوه البضاعة التي رُدَّتْ إليهم ، فانظرْ أيُّها القارئ الكريم ما أنتجتْه معرفةُ النفس والسُّلوك بها وتَطْريقها على يدِ مُرْشِدٍ مِنْ مُتَعٍ عاجلةٍ وآجِلةٍ يَجِدُها أهلُ الله السَّالِكون مَعارِجَ القُرُبَاتِ الإلهية ، وانظرْ ما شأنُهم مِنَ الحُظوظِ الإلهية الخالِدَةِ ، لا مجرّد حَظٍّ دُنيوي يتيمٍ وعابِرٍ زائِلٍ وُجِدَ لِهَدَفٍ ثمّ يَنتهي بمجرّد تَحقيقِ ذلك الهدف ويموت قَبْلَ مَوْتِ صاحبِه في الدُّنيا وهو عِنْدَ رَبِّهِ لَمْ يمُتْ لأنّ عليه حِسَابٌ في الآخرة يَنْزِلُ على النَّفس ، لأنَّ أهدافَ النَّفس لا تَنتهي ولا تَسْتَقِرُّ إلا بِلِقاءِ الله تعالى الذي عَرفَتْهُ في الأَزَلِ ، وبِرُؤيته في الأَبَدِ ، وهِيَ التي لم تَره في الأَزَلِ ولكن سمعته فقط لَمَّا أُلْقَى على سَمْعِ صاحِبِها : " أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ " فأجابتْ بِلِسانِ حالِ صاحِبِها : " بَلَى " ، وازدادتْ له شوقًا وعبادةً بكَمالِ الحُبّ في كمالِ الذُّلِّ له على طريقٍ شَرَعَها لها وارْتَضاها لَها لأجْلِ إعادةِ دائرةِ الزَّمانِ إلى نقطةِ أيّامِ الشَّأنِ بلِسانِ القرآن : " كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ " ثمَّ بِلِسانِ الفُرْقانِ : " كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ " ، فإنَّ سَيْرَ الرُّوح الإنسانية بِسِيرَةِ النَّفس إلى الله تعالى لا ينتهي لأنّها غَيْبٌ مِنْ غُيوبِهِ تعالى ، ولكنَّ العبد مُخَيَّرٌ في السَّيْرِ إليه تعالى ، قَبْلَ أنْ يَدُقَّ جَرَسُ الرَّحيلِ فيَسيرُ إليه مُضْطَرًّا فاحذرْ ، ثمّ اعلم أنَّ الوحيَ الإلهي في الكتاب والسُّنَّة والسِّيرَةِ دَوْرُه أنْ تَعي سَماعَه في نفسك وفي الآفاق فتُطَبِّقَه مباشرةً فيَقَعُ الخَبَرُ كَما أوْقَعَهُ المُخْبِرُ عليه السَّلام ، وهذا هو الذي يُنَبِّهُكَ على الأخطاء التي ظَلَّتْ تَرتكبُه نفسُك مِرارًا وتِكرارًا حتى أصبحَ لَها عادةً وهَوى وإلَهًا مِنْ دون الله تعالى ، وبهذا الوعي لِلْوَحْيِ يحصل التّذكارُ لِمَا حصلَ لك مِنْ عَهْدٍ مَعَ رَبِّكَ في الأَزَل ، إذْ سُلوكُ النفس لا يأتي بشيءٍ زائدٍ أوْ خارجٍ عَنْ ما في داخِلِها ، وإنَّما بالوَعْيِ لِلْوَحْيِ يَتِمُّ تَذَكُّرُ ما حَفِظَتْه في الأَزَلِ ونَسِيَتْه بإنْزالِها لِلْخِلافَةِ ، لا بِأمرٍ زائدٍ عنها أوْ خارجها ، فليس هناك في الحقيقة في هذا العالَم سِوى أَنْتَ و رَبُّكَ ، وبينكما ميثاقُ الوحدانية لِتُحَقِّقَ به أيَّ تَناقُضٍ أوْ ثُنائيةٍ سواءً في نفسك أوْ في الآفاق ، وهذِهِ العودةُ لِلْأَزَلِ كَمَا تَتَحَقَّقُ بالسُّلوكِ الذي ذَكَرْناه سابقًا هي التي تجعلُ الخاشِعين يَخْشعون في صَلواتهم حيثُ آذانُ الصَّلاة يَتَكَرَّرُ خَمْسَ مَرَّاتٍ في اليوم واللَّيلة وهذا ليس عَبَثًا ، وتَجعلُ المُتَوَكِّلين يَتوَكَّلون والتَّائبين يَتوبون ويَؤُوبون ، ورأيْنا كيف كان المُشْرِكُ يعود إلى الماضي ولكنَّه لا يشعر بخِطابٍ وتَكاليفِ الوحدانية الأوّل فيُعَوِّضُه بالمُتَعِ واللَّذّاتِ الباطلة التي لا تَنْفَعُه ثمّ يَرْميها في ثُقبِ الزَّمن لتَبْقى شاهِدَةً عليه " يَوْمَ يَنظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا " ، والوقتُ يَمُرُّ وهو لا يشعر إذْ الوقتُ مَقْتٌ كما قيل أنَّ " الوقتَ ماهُو إلاّ وعاءٌ نَمْلَأه ، فإذا أرَدْنا شَيْئًا أوْجَدْنا لَه وَقْتًا " ، وهو سَيْفٌ إنْ لم تَقْطعْه قَطَعَك وانْقَطَعَتْ نفسُك إنْ لم تَقْطَعْها وتَقْطَعَ بها لِرَبِّها ، ولأنَّ الوقت يَمُرُّ على الكافر وهو لا يشعر فنفسه أيضًا تُساقُ وهو لا يشعر ظَنًّا منه أنّه هو الذي يَسوقُها بِحُرِّيَّتِه ، ولكنَّه على محَكِّ الدُّنيا التي ماهي بالأزل ولا هي بالأبَدِ ، فلا تَزيدُه المُتَعُ والمعاصي سِوى سُحْقًا في مَتاهات الزَّمان والمَكان الذي هُوَ فيه

يُصَنِّعُ تلك المُتَع ، ولم يَتَذَكَّرْ الوحدانية التي صَدَرَ عنها بميثاقِهِ في نفسه في الأَزَلِ ، فالتَّذْكارُ الذي نتحدَّث عنه بِذِكْرٍ ومُذاكَرَةٍ للوحي هو الذِّكْرَى التي تنفع المُؤمنين ، وهو ما تُحَقِّقُه عادةً صُحْبَةُ شيخٍ أوْ أخٍ أوْ مُعَلِّمٍ سَالِكٍ بنفسه ووَاجِدٍ لِخَيْطِ الوحدانية وحَبْلِ الأحَدِية الذي تَرَكَهُ لَمَّا أُهْبِطَ لِلْخِلافةِ وتَعَلَّقَ بِحِبالٍ أخرى مِنْ دون حَبْلِ الله تعالى ، وهاهو يأخُذُ بِيَدِ السَّالِكين لِيَجِدوا في أنفسهم صُلْبَ برنامجِ الوحدانية والوراثة المُحَمَّدِيَّةِ فَيربطوه بِحَبْلِ الأحَدِية الأزَلي وحَبْلِ الفردانية الأَبَدِي الذي انْقَطَعَ عنْ نَوَاةِ النَّفس بطُولِ الأمَلِ وبُعْدِ الأَمَدِ في المعاصي والغفلة أيّامَ النّفس الأمّارَة ، فيُشَوّقه ويُنَبّهه لِيَعودَ إلى حَبْلِهِ الضّائع في الأزَلِ ويُعيد الْتِقاطَه لِئَلَّا يَضِلَّ بَعْدَ ذلك مَرَّةً أخرى ويسقط في أَبَدِ جهنم دون أنْ يَشْعُرَ بِقِصَرِ المُدَّةِ والمُهْلَةِ في يَوْمِ الدُّنيا ، فجَزَاءُ مَنْ عادَ إلى ذلك السَّماعِ الأزَلي ، واهْتَدَى بعد أنْ اقْتَدى شَوْقًا لِخِطابِ " أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ " أنَّه تَحْسُنُ خاتِمَتُه ، ولا يَهُمُّ التَّفاصيلُ المُؤْلِمَةُ التي عَاناهَا في سبيلِ ذلك أوْ الإبْتِلاءات والمِحَن وهو في الدُّنيا ، لأنَّ الدُّنيا ساحَةُ حَرْبٍ والآخرة ساحَةُ سَلامٍ لِمَنْ فازَ في حَرْبِ الدُّنيا وهُوَ سُلوكُ النَّفس الذي قالَهُ تعالى : " إنَّ الله اشْتَرى مِنَ المومنين أنْفُسَهُمْ وأمْوالَهُمْ بأنَّ لهم الجَنَّة يُقاتِلون في سبيلِ الله فَيَقْتُلون ويُقْتَلون " وهُوَ الجهادُ الأكبر لِمَنْ كان مِنْ أهْلِهِ ، فيَسْمَعُ الخِطاب الأبَدِيَّ على نفسه الأبَدِيَّةِ الأزَلِيَّةِ مِنْ رَبِّهِ تعالى : " يا أَيَّتُهَا النّفسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ... " ومَعَ السَّمْعِ يَأْتِي النَّظَرُ حُسْنَى وزِيَادَةٌ : " وُجُوهٌ يَوْمئذٍ ناضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ " ، ولذلك جَمَعْنا أبْجَديَّاتِ مَقام الإحسان الذي هو أقْوى سببٍ لِسَماعِ الله في الدُّنيا ورؤيته في الآخرة في هذه الكلمات : ذِكْرٌ باجْتِماعٍ وخُشوعٌ باسْتِماعٍ وتَحَمُّلٌ باتِّبَاعٍ ، وقلْنا سابقًا أنَّها هي أسبابٌ ونَتائجُ في نفس الوقت وهذا صعبٌ إلاّ عَلَى صاحبِ النَّفس المُطمئنَّة والكامِلَةِ ، مَنْ حَقَّقَها وأتَمَّها كان مِنَ الذين أنْعَمَ اللهُ عليهم مِنَ النَّبيين والشُّهداء والصّالِحين وحَسُنَ أولئك رَفيقًا ، وصَحَّتْ له الخِلافةُ الرَّبَّانِيَّةُ لا يشْغله الخَلْقُ عن الحَقِّ ولا النَّفسُ عَنِ الآفاق ، فيَكونَ قُدْوَةً لأهلِ الإهْتِداء " قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى " ، فَما أفْلَحَ مَنْ أَفْلَحَ إلّا بِصُحْبَةِ مَنْ أَفْلَحَ والعكسُ صحيحٌ ، فإنَّ النّفس إذن لا تُفْلِحُ إلّا بصُحْبَةِ مَنْ أَفْلَحَ ، لأنَّ سببَ الإصْرارِ على الذُّنوب ومُعاناتها هو عَدَمُ تَذَكُّرِ العبدِ لذلك المِيثاق الذي أخَذَهُ رَبُّه على نَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ تعالى قَبْلَ إنْزالِهِ لِلْخِلافَةِ في الأزَلِ : " وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى " ، فكانت الشَّهادة على النفس بالوحدانية لِرَبِّها ، ثمَّ نَسَى الإنسانُ هذه الشَّهادة التي هي عُنوانُ خِلافته ومَبْنَى تَعاليمِها بتَرَاكُمِ الذُّنوب وتَوالي المَعاصي ، حتّى نَسِي عنوان التَّوحيد المَرْكوز في نَفْسِهِ السَّائِرَةِ إلى الله تعالى كَمَا قال : " ولا تَكونوا كالَّذين نَسُوا الله فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ " ، وجَعَلَ " أنفسهم " بالجَمْعِ لأنَّ هذا الأمر جَماعي ويَأتي بالصُّحبة والتَّربية الجَماعية والعمل الجِواري وليس بالإنْفِراد ، وكلُّ هذا في إطارِ سَيْرِ العبدِ وطَيْرِهِ إلى الله تعالى قَبْلَ أنْ يُفاجِئه هادِمُ اللَّذَّاتِ ومُفَرِّقُ الجَماعات الّذين انْشَغَلَ صاحبُ هذه النَّفس في صُحْبَتِهِم دون أنْ تَنْطَلِقَ إلى جَنَّتِها في الآخِرَةِ كَمَا قال تعالى : " كالَّذي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطينُ في الأرض حَيْرانٌ لَهُ أصحابٌ يَدْعونَهُ

إلى الهُدَى ايتِينَا " ، فهُنا يَنْسى نفسَه لأنَّه في حَضْرَةِ نفوسٍ ناسِيَةٍ أيضًا لِعَهْدِ التَّوحيد لِرَبِّهَا ، إذْ لا يَصِلُ أحَدٌ إلى الله تعالى أوْ يُحَقِّق مَعْنَى قَوْلِهِ تعالى " فَفِرُّوا إلى الله " وهناك شيءٌ أوْ نَفْسٌ تَجْذِبُهُ مِنْ خَلْف ، فإنَّ النَّفس إنْ عاشَتْ مَعَ الدَّجاج فَأنَّى لها أنْ تُحَلِّقَ مع النُّسور ، وإنْ عاشتْ مع جُبَناءِ النُّفوس أوْ مع الجُبَناء عَنْ مَقامِ الإحسان فَأنّى لها أنْ تَسْتَمْتِعَ بِلَذَّةِ مَقامِ الإحسانِ مَعَ الفُحولِ " حَتّى نَسُوا الذِّكْرَ وكانوا قَوْمًا بُورًا " ، ولاَحِظْ هنا جُعِلَ النِّسْيانُ لِلذِّكْرِ وهُوَ ليس سِوى نِسْيانُ النَّفْسِ الطَّريقَ إلى رَبِّها قَبْلَ أنْ يَتَوَفّاها ويَتَلَقّاها تعالى هُوَ ، فَعَلَيْهَا أنْ تَسْعَى هِيَ إليه هُوَ وتُبادِرِ هِيَ إليه ، وهذا بالتَّذكرةِ لِعَهْدِ الأزَلِ بالأمس القَريب على المؤمن : " فَإنّي قَريبٌ " ، لكنَّه أمْسٌ بَعيدٌ على الكافِر: " ويَقْذِفون بِالغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ وَ حِيلَ بينهم وبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ " ، وهذه التَّذْكِرَةُ هِيَ التي تُجَنِّبُ صاحِبَها مَقامَ البَوار مع مَنْ أحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ البَوارِ فَخَرَّبُوا بُيوتَهم بأيْدي نُفوسِهم هُمْ ، وهذه التَّذْكِرَةُ لا تكون إلَّا بالإجتماع مع أهلِ الله أهلِ الذِّكْرِ الَّذين قال فيهم تعالى : " كَلاّ إنَّه تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَه وَمَا تَذْكُرُونَ إلاّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ " وقال " فاسْألُوا أهلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ " ، وهناك تَصْلُحُ النَّفْسُ لِلسُّلوكِ الذي كلِّفَتْ به في الأزَلِ ثمّ نَسِيَتْهُ في الدُّنيا ، وهُنا يَحْضُرُ لِصاحِبِها تَذَكُّرُ عَهْدِ " أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ " فلا يُصيبُ مَعْصِيَةً قَطُّ لأنّه في حالةِ تَذَكُّرٍ دائمٍ هُوَ ذِكْرُ الله الدّائِم لَهُ في قوله : " فاذْكُروني أَذْكُرْكُمْ " وهُوَ الذِّكْرُ الأكبر الذي يَحْجِزُ عَنِ المَعاصي ، وهو الذي تُمْتَحَنُ به قُوَّةُ وصِدْقُ النَّفس في تَحَمُّلِ العَهْدِ والخِلافَةِ الرَّبَّانِيَّة ، وهو لا يَحْصُلُ غالبًا إلّا بالسُّلوك كَما ذَكَرْنا سابقًا ، وتَجْعَلُ صاحِبُنا لا يُصيبُ المعصيةَ قَطُّ ، وإنْ أصابَها لا يُصِرُّ عليها أبدًا لأنّه يعرِفُ كيف يَتوبُ منها كأنَّه يَرَاهُ تعالى ، إذْ بَرنامجُ النَّفس المُطْمئنَّة صُمِّمَ على تَذَكُّرِ التَّوبة بِمِفْتاحِ اطْمِئْنانِها بذِكْرِ الله وبِثِقَتِهَا بِوَعْدِ رَبِّهَا ووَعِيدِهِ في الأزَلِ كَما قال تعالى " فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِي " وهُوَ مِنْ أصعب تَكاليفِ مَقامِ الإحْسَانِ كَمَا ذَكَرْنَاه ، وهَذَا الإِطْمِئْنانُ هُوَ مِفْتاحُ الإِطْمِئْنانِ في وَظائِفِ مَقامِ الإسلام مِنْ صَلاةٍ وزَكاةٍ فقال تعالى " فَإذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاة " ، وهذا الإطمئنانُ سَكينةٌ في النُّفوس تجعل للعبد وعيًا وتذكرة في بصيرته تُفَجِّرُ المَعارف الرَّبَّانية والكونية وتُثَبِّتُ الإشارات الربانية والكونية وتُثْبِتُ الفراسَةَ لتكون وحيًا في نفس صاحبها بعد أنْ كانت وَعْيًا " وتَعِيهَا أذنٌ واعِيَةٌ " ، وتُورِثُه الأمْنَ مِنْ كُلِّ مَخُوفٍ في الدُّنيا والآخرة فقال تعالى " فإذا أمِنْتُمْ فاذْكُروا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تكونوا تَعْلَمُون " ، لأنَّ الخوف مِنْ شيءٍ وراء أكْثَرُ وأغلب مِنَ الخوف مِنَ الشَّيءِ الذي هُوَ أَمَام ، وهذا العبدُ صَحَّحَ ماضيه الذي وَراءه فلا شيء يجذبُه مِنْ خَلْفِه وهذا في مرحلةِ تَخَلّي النفسِ الأمّارة عن العادات والأخلاق المذمومة الذي ذكرْناه سابقًا ، وهنا وُلِدَ من جديدٍ غَيْرَ شَقِيٍّ إنما سَعيدٌ ، ثمّ بَقِي عليه المَخاوفُ التي مِنْ أمامِهِ إذا اسْتطاعَ أنْ يَتجاوَزَها في أقسامِ ومراحل مابعد مَقامِ الإحسان الذي ليس كمِثْلِه شَيْءٌ في الأرض ولا في السَّماء ، لأنّه يَتَوَجَّهُ نحو السِّرّ الذي وَقَرَ في الصَّدْرِ بعد انشراحه بالإسلام ، وهو صفحةٌ مِنَ الجَبَروت بين العبد ورَبِّهِ لا يَطَّلِعُ عليه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ أوْ نحوه ، إذْ خواطرُ العبد هنا تصبح ربّانيةً كلَّها ، وهذا هو الذي يُحَفِّزُ العبدَ

على مزيدٍ ومزيدٍ مِنَ الطَّاعات لِلتَّرَقّي بنفسه أكثرَ فأكثر، فلا يَنْشَغِلُ بِأَيِّ عائقٍ عِلمِيّ أوْ عَمَلي عَنْ وجهِ ربّه تعالى ، فهو كُلّ يومٍ على مُرادِ رَبّه في شأنٍ و في كُلّ شَأْنٍ له زيادةٌ " لِلّذين أحسنوا الحُسْنى وزِيَادَةٌ " ، فهذا التَّمَكُّنُ للعبد مِنْ مَهارَةِ ذِكْرِ رَبِّهِ تعالى والذي حَصَلَ له في أقصى مراحلِ سُلوكِ نفسه ، هو على التَّحَقُّقِ بأسماءِ الله الحسنى وُصولًا لا حُصُولًا ، للإسم الأعظم ، و يَقِينًا بعدما كان تَلْقينًا ، وهذا هو الذي يُؤَثِّرُ على وَزْنِ عِباداتِ صاحبه ، فبعدما كان في وظائف الإسلام مجرّد مُسافِرٍ سائرٍ إلى رَبّهِ مِنْ وَراءِ هذه الصَّلَوَاتِ والصيام ، هاهو الآن في هذه الوظائف والصلوات والقربات مُهاجِرٌ طائِرٌ ، إذْ شَتّان بين مسافر سائر إلى ربه من وراء هذ القُربات في مقام الإسلام وبين ذاكرٍ طائربالإحسان في نفسِ مقام الإسلام ، وهذا من نتائج تزكية هذه النفس فقال تعالى " قد أفلح من تزكّى " أيْ هذا الذَّاكرُ الطّائر " وذَكَرَ اسم رَبّهِ فَصَلَّى " ، فَصَلاتُه التي هي عَمود الدِّين و عُمْدَةُ سائر عباداته ظاهِرُها إسلامٌ كسائر المسلمين ، لكنّ باطِنَها إحسانٌ لاكَيْفِيٌّ ، فيكون مسلمًا وحَسُنَ إسْلامُه ، وهذا الإحسانُ هو قلب أذكارِ مقام الإسلام وهو غالبًا يكون بِتَوَجُّهاتِ أسماءِ الله الحسنى كَمَا سَبَّقَ ذلك بقوله تعالى " وذَكَرَ اسْمَ رَبّهِ فَصَلَّى " وهذه التَّوَجُّهاتُ الأسمائية لا يُدْرِكُها العبدُ إلا إنْ أحْسَنَ السُّلوكَ لِنفسه بنفسه " إنْ أحْسَنْتُمْ أحْسَنْتُمْ لأنفسكم " ، فهِيَ ليست مجرّد أسماء وفقط وإنَّما أسماءٌ حُسْنَى ، ولا يَحْسُنُ الذِّكْرُ والتَّعَبُّدُ بها إلّا إنْ أدْرَكَتْ النّفسُ السَّالِكَةُ عوالِمَ مَقام الإحسان بتوحيدِ الأسماءِ والصِّفات بين مرحلةِ الأحَدية ومرحلة الفردانية كَمَا ذكرْنا سابقًا ، وهذا أيضًا لا يكون إلّا إنْ أَدْرَكَتْ النفسُ نَفْسًا أخرى أوْ عَبْدًا آخر أحْسَنَ سُلوكَ نفسه لِرَبّهَا واتَّخَذَها إسراءً ومِعْرَاجًا مِنَ الله ذي المَعَارِجِ ، وهذا هو مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ الذي قال فيه موسى عليه السلام لِفَتاه : " لا أَبْرَحُ حتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أوْ أمْضِي حُقُبًا " ، ثمّ أكرم ربُّنا هذه الأُمَّة بأنْ تبلغ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ وهو سُلوكُ نفسها إلى الله تعالى على مِنْوالِ سُلوكِ نَبِيِّها عليه السلام في نَفْسِهِ " لقد جاءَكُم رسولٌ مِنْ أنفُسِكُمْ " بِذِكْرٍ باجْتِماعٍ وخُشوعٍ باستماعٍ وتَحَمُّلٍ بِاتّباعٍ فقال تعالى " هُو الذي بَعَثَ في الأُمِّيّين رسولًا منهم " من أنفسهم " يَتْلوا عليهم آياتِه ويُزَكّيهم ويُعَلِّمُهُم الكِتاب والحكمة " ، وهناك تَجْمَعُ ما افتَرَقَ في بِحارِ المَحاسِنِ مِنْ مَحاسِنِ مَقاماتِ الدِّينِ مِنْ إسلامٍ وإيمانٍ وإحسانٍ ، وبقدر ذلك تكونُ مَقاماتُ الدُّنيا والآخرة ولا عكس ؛ فانظرْ يا أخي ما أنتجه الإجتماعُ للسُّلوك وِفْقَ الهَدْيِ النَّبَوي مع أهل الذِّكر مِنْ نتائج خاصَّةً لَمّا تَحْصُلُ للعبد جَمْعِيَّةٌ وهُوِيَّةٌ برَبّه تعالى ، لا تُشْغِلُها أوْ تُفَرّقُها بُخورُ التَّفاصيلِ مِنْ غُيوبٍ أوْ شَهادَةٍ مِنْ دُنيا أوْ أخرى ، لأنَّ النفس أصبحتْ هِيَ هِيَ ، وهو ما يُعْرَفُ بالجَمْعِ وبالهُوِيَّة ، وإنْ أصبحتْ هِيَ هِيَ : خَشَعَ صاحبُها له هُوَ هُوَ تعالى ، إذْ العنوانُ واضحٌ والمطلوب مُحَقَّقٌ فلا يفترق بعد هذه الجَمْعِيَّة في التَّفاصيل الشَّكِّيّة أو الكَثرة الشِّرْكِيَّةِ أوْ تَعَدُّدات الكون ، وهذا كلُّه بتوحيدِ سُلوكِ النفس على مطلوبٍ واحدٍ تَجِدُهُ وتَعثُرُ عليه حقًّا ويَقينًا أثناء مُبادَرَةِ صاحبِها بهذا السُّلوكِ الذي أوضحناه من قبل ، فطَلَبَتْ

رَبَّها الذي هو الجَارُ قَبْلَ الدَّارِ، ولولا تَكَثُّراتِ الجيران مِنْ أكوانٍ مُتَوَهَّمَةٍ والتي هي مِنْ ذَرائعِ الإنْزالِ للخِلافة الأرضيَّةِ لَأَبْصَرَتْ رَبَّهَا تعالى " فبَصَرُكَ اليوم حَديدٌ " لولا طولَ الأمَدِ وإلْهاءِ الأمَلِ " ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلوبُ " ، فمُنْطَلَقُ السَّعادات والشَّقاوات التي يُنتجها التوحيدُ أو الشِّرْكُ في الدَّارَيْنِ يبدأ مِنَ النفس لا مِنَ الآفاق ، لأنَّ آيات التَّوحيد الرُّبوبي والألوهي والأسْمَائي والصِّفاتي مَرْكوزَةٌ في النفس أوَّلًا قبل الآفاق ، لكن لَمّا حَصَلَ النِّسْيانُ للإنسان كما قال تعالى " ولَقَدْ عَهِدْنا إلى آدم مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ولَمْ نَجِدْ له عَزْمًا " جُعِلَتْ الشَّرائعُ والأديان وأُنْزِلَتْ بِنُزولِ الإنسانِ ، ثمّ اخْتُتِمَتْ في الإسلام الذي هو العنوان الوحيد لسعادةِ العالَمِين في العَالَمَيْنِ ، وجُعِلَتْ بَقِيَّةُ الأديان والنَّظريَّات والإتِّجاهات ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال مجرّدَ تَفاصيل قدْ نعثر عليها وقد لا نعثرعليها بقدر ما يَهُمُّ العثورُ على العنوان الصَّحيح مِنْ وَراءِ هذه التَّفاصيل التي تَعودُ إليه ، ولأنّه عنوانٌ وحيدٌ جُعِلَ السَّبيلُ إليه واحدًا : " إنّا هَدَيْناه السَّبيل " حتى لا يكون لله على النّاس حُجَّةٌ بعد الرُّسُلِ " سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يَتَبَيَّنَ لهم أنّه الحَقُّ " ، ثم اخْتُتِمَ السُّلوكُ في الإسلام وطُوِيَ في النفس المُحَمَّدِيَّةِ سيرَةً وسَريرَةً مَنِ اقْتَدى بها اهْتدَى لِرَبِّهِ ورَبِّهَا ، وكان آخر سُلوك النفس أنْ يُتَبَيَّنَ لصاحبها العنوانُ الحَقُّ بأنَّ الله هو الحَقُّ : " حتّى يَتَبَيَّنَ لهم أنّه الحَقُّ " لأنّه " أوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أنّه على كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ " أيْ على كُلِّ شيءٍ مِنْ نَفْسٍ وآفاقٍ مَعًا ، وقد رَأيْنا سابقًا ما يحصل لِسَالِكِ التَّوحيدِ ولِسَالِكِ الشِّرْكِ مِنْ تَبايُنٍ في المَصير لَمّا تعودُ النفسُ إلى بارِئِها بالموت ، فمَنْ وَجَدَ الله ماذا فَقَدَ ، ومَنْ فَقَدَ اللهَ تعالى ماذا وَجَدَ ؟ ، فبِأَيِّ حَقٍّ تَجِدُ رَبَّك وهو ليس سِوى حَقُّ النفس بالسُّلوك إليه لَمَّا كُنْتَ في الدُّنيا ، إذن لِهذه النفس حَقٌّ وهَدَفٌ عَلَّقَتْهُ في عُنقك هُوَ المقصودُ بقوله تعالى " وكُلَّ إنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِره في عُنقه ونُخْرِجُ له يوم القيامة كِتابًا يَلْقاهُ مَنْشورًا إقْرَأْ كِتابَك كَفَى بِنَفْسِكَ اليومَ عليكَ حَسيبًا " ، فهو مُعَلَّقٌ على عنقك إلى يومِ القيامة وكان لابدّ لتَحقيقِ هذا الهدف وهذا الحَقّ مِنْ نظامٍ أوْ بَرنامجٍ وطَريقةٍ ، قَدْ وَضَّحْنا لك بعض أُصولها سابقًا ، ثمّ بَعْدَ الحَقِّ أو الهدف وبَعْدَ النِّظامِ والطَّريقة لابدّ لك ثالِثًا مِنْ إلتزامٍ بهذا النِّظام لتحقيق ذلك الحَقّ والهدف ، فإنَّنا إنْ لم نَجِدْ فيك إلتزامًا عَلِمْنا أنّه ليس لك هدَفًا وليس لَكَ حَقًّا أيضًا وليس لك برنامجًا ، وهذا هو هدف النفس الأمّارة : أنْ يبقى صاحبُها في الحياة بلا هدفٍ حتّى لا يأخذ حَقَّه بعد تحقيق ذلك الهدف ، فالهدفُ هو النَّظر إلى وجهِ رَبِّكَ تعالى في آخِرَةِ السُّلوكِ بالنّفس كَما قاله عليه السلام في مقام الإحسان / أنْ تعبد الله كأنَّك تراه / ، والنِّظامُ أو البرنامجُ والطَّريقةُ هو صُحبةُ مَنْ يَدُلُّكَ على الله حالُهُ ويُذَكِّرُك بالله مَرْآه ومَقالُه أثناءَ تَطْرِيقِك على حَضرات ودَورات تَدْريبِ النّفس للوُصول إلى الله مِنْ أسهل وأقصر طريقٍ ، والإلْتِزامُ هو الإسْتِقامَةُ على مَواطِنِ الإلْهام ومَظانّ هِمَّةِ وأخلاقِ الرَّسولِ التي هِيَ مِنْ أخلاقِ اللهِ و التي تَبُثُّ في الأسْرار والأرْواحِ قَبْلَ الأجسادِ والأشْباحِ أثْناءَ تلك الدَّورات والحَضرات والمُذاكَرات ، قال تعالى " وأنْ لَوِ اسْتَقاموا على الطَّريقة لأسْقَيْناهم ماءً

غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فيه " ، فانْحَصَرَ السَّفَرُ إلى الله تعالى خُصوصًا على مَراحِلِ النَّفسِ السِّتِّ التي ذَكَرْناها سابقًا ، وعُمومًا في التَّنَقُّل مِنْ مَقام الواحديّة إلى الأحديّة إلى الفردانيّة ، كَما انحصرتْ في الثَّلاثِ الشَّهيرةِ : إسلامٌ وإيمانٌ وإحسانٌ ، وهو معنى قولِنا : انحصارُ السُّلوكِ في هَدَفٍ ونِظامٍ والْتِزامٍ ، ولَخَّصَها أحدُهم أيضًا في : ذِكْرٍ باجتماعٍ وخُشوعٍ باستِماعٍ وتَحَمُّلٍ باتِّباعٍ مَنْ حَصَّلَها حَصَّلَ بإذنِهِ تعالى مَقامَ النَّفس الكاملة الذي هُوَ حَقٌّ على صاحبها قبل كُلِّ حَقٍّ ، ووَاجِبٌ قبل كُلِّ واجِبٍ في نفسِ الوقت ، لذلك بدأ النبي عليه السلام بِحَقِّ النَّفس لَمّا قال [إنّ لِنَفْسِكَ عليك حقّ] فجعلَ كُلَّ تغييرٍ يبدأ بالنّفس وما جُعِلَتْ الأكوانُ إلّا ذَريعة لذلك، إذْ بَعْدَ أنْ يَفْنى عن العبد كُلّ كَوْنٍ سَخَرَهُ له رَبُّهُ ماذا يَجِدُ ؟ : يَجِدُ مَنْ أمَرَ الكَوْنَ بـ"كُـنْ" فَكَانَ ، إذْ هو مَأْجورٌ لك وأنتَ مَأْجورٌ لِله تعالى ، وهذا لا يَجِدُه سِوى السَّالِكُ مع جَماعةٍ لها أهْلِيَّةٌ في هذا السُّلوكِ هُمْ المَقْصودون بقولهم : أَهْلُ السُّنَّة والجَمَاعَة ، إذْ لِكُلِّ فَريقٍ سُلوكٌ وحَضْرَةٌ يُؤَدّون حُقوقَها حتّى آخِرِ حياتهم في الدُّنيا وعليْها يُبْعَثون ومِنها يُحْشَرون ، ولهم في ذلك أذكارٌ وعلومٌ يَتَذاكَرونَها لِيَصْطَلِحَ لهم السُّلوكُ بسهولةٍ نحو مُبتغاهم ، فهِيَ لهم طريقةٌ مُثْلَى " قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ " ، لكنّهم ماذا يَجِدون في آخِرِ نَفَسٍ مِنْ حياتهم وفي أيِّ حَضْرَةٍ كان ذلك ؟ فَحَضْرَةُ الإجتماعِ على إلْهامِ التَّقْوَى والسُّنَّةِ ليس كحضْرَةِ الإجتماعِ على إلْهامِ الفُجورِ والبِدْعَةِ ، إذْ كُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدعةٌ وكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَة وكُلُّ ضَلالَةٍ مَعَ أصحابها في النَّارِ لإختلافِ تَجَلِّيَاتِ كُلِّ حَضْرَةٍ على الحاضِرين ، فتَخْتَلِفُ الأذْواقُ باختلافِ الأشْواقِ ، ونفوسُهم مِنْ وَراء ذلك هي الدَّارَةُ المَركزية التي تُنَظِّمُ عمليّاتِ السُّلوكِ والمَقاصِدِ منه ، فانظرْ في أيِّ حَضْرَةٍ تَسْلُكُ يَا أخي ، ولا تَلومَنَّ إلّا نفسك إنْ أَرَدْتَ وارِداتِ الرَّحمن وأنتَ تَتَعَرَّضُ لِتَجَلِّيَاتِ الشَّيطانِ وإخوان الشَّياطين ، وانظرْ كيف افْتَرَقَتْ النُّفوسُ بين سالِكٍ وهالِكٍ لا ثالِثَ لهما فقال تعالى : " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فلِنَفْسِهِ ومَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا " ، فالسَّالِكُ نَفْسُهُ تَتَوَجَّهُ لِلْمَذْكورِ الخَالِقِ ، أمَّا الهالِكُ فَنَفْسُهُ تَتَوَجَّهُ نحو المَخلوقاتِ أو المَذْكورات الفانِيَةِ الغائِبَةِ ، والتي قال فيها رَبُّنَا : " هَلْ أَتَى عَلَى الإنسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا " ، فانقسم العبادُ بين سالِكٍ مُتَدَارَكٍ بالجَذْبَةِ وبَيْن مَجْذوبٍ مُتَدَارَكٍ بالسُّلوكِ ، وبَيْنَ هالِكٍ لا بالجَذْبِ ولا بالسُّلُوكِ ،

فأيْنَ تَتَوَجَّهُ وتَنْجَذِبُ بِنَفْسِكَ غالِبًا أيُّهَا القارئ الكريم ؟ .

إنّ تَحَـرّي السُّـلوك الصّـحيح بهـذه الـنفس الحَسّاسَـة مـع أهـل التَّسْـليك الصَّـحِيحِ أخطـرُ عمليّـةٍ يُخْتَبَـر فيهـا العبـادُ إلـى يـوم القيامـة وهُـمْ لا يشـعرون ، فكُلُّهـم يطلبـون سَـعادةَ وطمـأنينةَ الوُصـول إلــى المَــذْكورِ ولكــنّهم يَنْشَــغِلون بالأذْكــار أوْ بــالأكوان ، وإنْ انْشَــغَلوا لا يَعُــودُونَ إلــى ســكَّةِ الحَقيقــة بســرعةٍ ، كــأنَّهم يَنْتَظِــرون الحَقيقــةَ التــي تَــتَعَطَّشُ لهــا نفوسُــهم فــي الأكــوان ويَسْـتَعْجِلونها بـدون أداءِ تَكاليفِهـا وهِـيَ نُفوسُـهم ، ثـمّ يُفاجِـأهم اللهُ الحَـقُّ المُبـينُ لَمَّـا يَقْبِضُـهم فـي المـوت " إنّ سَـعْيَكُمْ لَشَـتَّى " ، فهـذا الإنشـغالُ لـيس نِسْـيانًا وإنّمـا تَناسِـيًا وتَجـاهُلًا ، ودَواؤُهُ عِـلاجُ الـنَّفس كلّمـا جَنَحَـتْ بـالقرآن لا بـالأكوان ، وهـذا التَّرَقّـي هـو رُقْيَـةُ الله لِعِبـادِه فـي القـرآن سَـلامًا لِنُفوسِـهم فـي دارِ السَّـلام : " سَـلامٌ قَـوْلًا مِـنْ رَبٍّ رَحِـيمٍ " ، وخَصَّـهَا أمانَـةً لَـدى أهْلِـهِ وخاصَّـتِه كَمَـا خَصُّـوا أنفسـهم أمانــةً ووَديعَـةً بِبَيْعِهـا لِـرَبِّهِمْ ، فيَسُـوقون العِبـادَ إلـى رَبِّهـم بإذْنِـهِ بعـدما انْدَرَسَـتْ الطُّـرُقُ إلّا مِـنْ طُـرُقِ الـدُّنيا والعاجِلـة ، وتَعَـدَّدَتْ ونَزَيَّنَـتْ وظَـنَّ أهلُهـا أنَّهـم قـادِرون عليهـا " وامْتـازوا اليـوم أيُّهـا المُجْرِمـون " ، فامْتـازَتْ النُّفـوسُ بـين سـالِكٍ وهالِـكٍ ، وانظـرْ مـا مَصـيرُ الهالِـكِ لَمّـا يَمْتـازُ بنفسـه لا بِشَـيْءٍ زائـدٍ عليهـا بـالمَوْتِ وهـو سُـلوكُ اضْـطِرار ، عكـس السَّـالِكُ سُـلوكُهُ مُبـادَرَةٌ واخْتِيـارٌ " وفـي ذلـك فليَتنـافس المُتَنافِسـون " ، يقـولُ #ابـن البَنّـاء السَّرَقُسْـطِي رحمـه الله تعـالى ناظِمًـا بعـض أسـباب عُـزوف العبـاد مِـنْ أهـل الإسـلام فضـلًا عـن غيـرهم عَـنِ التَّـداوي بِـدَواءِ القُـرآن عبـر الإنتِظـامِ فـي سُـلوكِ جَماعَـةِ حَضْـرَةِ الإلْهـامِ بـالتَّقوى لا بالعِصـيان ، وأسـبابَ جَهْلِهـم أوْ تَجـاهُلِهم الكَنْـزَ النَّفـيس فـي نَفْـسِ كُـلّ إنسـانٍ والـذي عجـز كُـلُّ كَنْزِ أهْلِ الدُّنيا عَنْ أنْ يَفْتَدي بِسَعادَتِهِ :

وكُلُّ مَنْ أنكر منه شيئًا *** فإنَّما ذاكَ لِسَبْعِ أشْيَا

لِجَهْلِه لِنفسه الشَّريفة *** وكوْنِها في أرضه خَلِيفَة

وجَهْلِه بالعالَمِ المَعْقول *** وشُغْلِهِ بِظاهِرِ المَنْقول

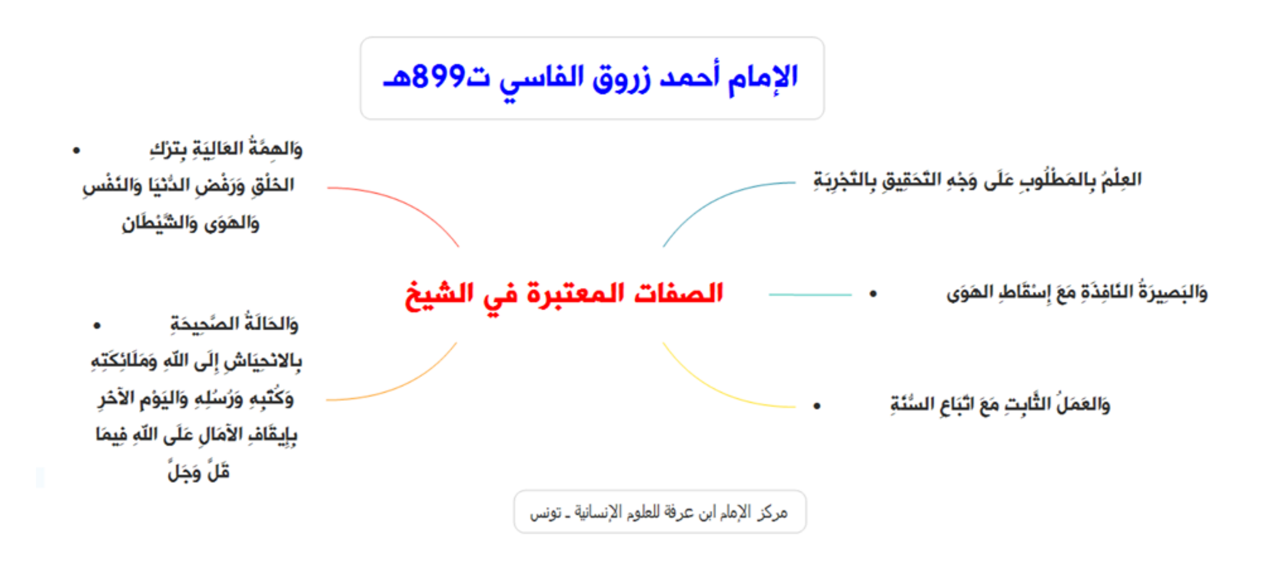
وسَهْوِه عَنْ عمل القُلوبِ *** والخَوْضِ في المَكْروه والمَنْدوبِ

والجَهْلِ بالحَلال والحَرامِ *** والمَيْلِ عَنْ مَواهِبِ الإلْهَامِ

واعلمْ أنَّ حَقائقَ المَعارف التي تَنْتُجُ بِسُلوكِ النّفس هي مُنْطَبِعَةٌ مُسْبَقًا في الأرْواحِ المُجَنَّدَةِ مِنْ يَوْمِ العَهْدِ في الأَزَلِ يَوْمَ " أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ " ، لذلك وُصولُ العبد إلى ماعنده مِنْها لَمَّا يَرْقَى في مَقاماتِ الإحسان إنّما هو بواسطةِ إمدادِ التَّجَلِّياتِ الأسمائية الحُسنى لا لأَمْرٍ زائدٍ على ذلك، والشَّيْخُ الذي يُدَرِّبُ الطُّلّابَ على السُّلوك إلى الله تعالى ليس له من الأمر شيءٌ فإنَّ الفُتوح التي تحصل لتلاميذه كانت فيهم مِنَ الأَزَلِ ، وليس أنَّ الشَّيْخَ أحْضَرَها لهم فالسُّلوكُ إنَّما مِنْ داخلِ النّفس كَمَا ذَكَرْنا سابقًا و لايُنْتِجُ شيئًا لم يكنْ في داخلِ نَفْسِ الطَّالِبِ والسَّالِكِ إلى الله تعالى ، قال تعالى " إِنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ " فَكان الإمدادُ على قدر الإستعدادِ وكان شُروق الأنوار على قدر صَفاءِ الأسْرارِ أثناء تلك العبادات والتَّوَجُّهَاتِ والرِّيَاضات النَّفْسَانية مَعَ نَفَحَاتٍ اتِّباعِية نَبَوِيَّةٍ لا ابْتِدَاعِيَّة شَيْطانِيَّة ، بِقَصد الوُصولِ إلى الله تعالى سُلوكًا وتَحَقُّقًا بِيَقينِ التَّوحيدِ بأنَّ الرَّبَّ وَاحِدٌ ، فالسُّنَّةُ تَجْمَعُنَا والبدْعَةُ تُفَرِّقُنَا طِيلَةَ السُّلوكِ الذي نَتَحَدَّثُ عنه ، لِيَنْطِقَ حِينَها لِسانُ الرَّبِّ تعالى على لِسانِ حَالِ هذه النَّفس لِصَاحِبِهَا : " قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ " ، فانْحَصَرَ السُّلوكُ والوُصول إلى الله تعالى إذن في النّفس الإنسانية دون غيرها مِنَ الحَيَوانية ثمّ انْحَصَرَ السُّلوكُ في النَّفس المؤمنة المُسْلِمَةِ ثم انْحَصَرَ في مَقَامِ الإحْسَانِ مَنْ حَقَّقَهُ وَصَلَ إلى الله تعالى مِنْ أوسعِ الأبواب ، ذلك أنَّه سُلوكٌ أَوَّلُه صُحْبَةٌ وتَلْقينٌ فقال تعالى : " قُلْ هُوَ " وأخِرُهُ رَوْحٌ ورَيْحَانٌ وجَنَّةُ يَقينٍ فَقالَ تعالى : " اللهُ أَحَدٌ " ، تلك هي جَنَّةُ التَّوحيد يَكْسِبُها صاحبُها بالتَّلْقين أوَّلًا ثمّ لَمّا يَنْقَطِعُ عنه أسبابُ المَكاسِبِ يُخْتَبَرُ ويُمَحَّصُ في قَلْبِهِ امْتِحانًا له أين يَتَّجِهُ بِقَلْبِهِ الذي هو بَيْتُ رَبِّهِ فَلَا تَبْقَى سِوَى المَوَاهِبُ بعد انقطاعِ المَكاسِبِ ، إنْ ثَبَتَ لها صاحبُ النَّفسِ الكاملة المُكَمَّلَةِ بأنْوارِ الأسماءِ الحُسنى على أنواعِ الكائنات والمُسَمَّيَاتِ ، ورَأْسُ هذه الكائناتِ والمُسَمَّيَاتِ هِيَ نَفْسُهُ لَا غَيْر ، وحِينَها يُصْبِحُ إسْلامُهُ يَقينًا بعدما كان تَلْقينًا بعدما كانَ تَخْمينًا " وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى الله وهُوَ مُحْسِنٌ فقد اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ

الوُثْقَى " فذلك هو حَبْلُ الله وعُرْوَتُه الوُثْقَى التي أوْتُمِنَ عليه الخَلْقُ لِيَتَمَسَّكوا بها لأجل نَجاتِهم ، وهذا الحَبْلُ مَصْنوعٌ مِنَ النَّفس ، فَعِصْمَتُهُ في النَّفس لا في الآفاق ، ومِنْهَا يُعْصَمُ ويُحْفَظُ في إسلامه الذي أُهْبِطَ لأجله للخِلافةِ في الأرض ، وبِتَكْمِيلِ سُلوكِ النَّفس الإسلامية لِتَصيرَ إيمانِيَّةً ثُمّ مُحْسِنَةً كَمَا ذَكَرْناه وبِكَشْفِ صُندوقها الأسود كَمَا قَدَّمْناه ، فيَصْلُحُ بذلك العبدُ لِلْخِلافَةِ الحَقيقية وهِيَ وِراثَةُ جَنَّةِ الفردوس فقال تعالى : " أُولئكَ هم الوَارِثون الّذين يَرِثونَ الفردوس هُمْ فيها خالِدون " ، فَهُمْ خالدون لأنَّ جوهر نفوسهم خالِدٌ وكَشَفوا عن هذا المعدن الخالِصِ الخالِدِ بالنُّورِ الرَّبَّاني الخالِدِ الذي يُنيرُ سُلوكَهم بها وهُمْ في الدُّنيا غير الخالِدَةِ ، وسِلاحُهم وَحْيٌ خَالِدٌ يُقابِلُ سُلوكَهم بِهِ على نُفوسٍ أخرى كاملةٍ خالِدَةٍ يَصْحَبونَهَا إذْ الصُّحْبَةُ بالنَّفس لا بالجسْمِ ، وأيضًا الوَحْيُ لا يُتَدَبَّرُ ولايُفْتَحُ بالتَّخْمين كَمَا كان عند النَّفس الأمّارةِ والَّلوّامَةِ عند مَحَلِّ الخَواطر الشّيطانية كَمَا في زَمَنِ الذُّنوبِ والمعاصي ، وإنَّما يُسْتَمْسَكُ بِهِ بالتَّلقين وبِصُحْبَةِ أصحابِ النَّفس المُطْمَئِنَّةِ بِذِكْرِ اللهِ تعالى الّتي قَرَأَتْ وَرَقَتْ وارْتَقَتْ فكان مَنْزِلُهَا عند آخِرِ آيَةٍ تَتَحَقَّقُ وتَتَكَمَّلُ بِهَا النَّفسُ الكاملة،وهُوَ سُلوكٌ لا يَنْشُدُه ولا يَقْدِرُ عليه إلّا سَماسِرَةُ العُلماءِ بالله تعالى ومَنْ تَتَلْمَذَ عليهم ، وليس بِصُحْبَةِ أصحابِ النُّفوسِ القَلِقَةِ المُتَرَدِّدَةِ الخائفة الغائِبَة ، وذلك هو الطَّريقُ الوحيد المَضْروبُ في هذه الدُّنيا وسَمّاه رَبُّنا بالصِّراطِ المستقيم الذي تَنْتَقِلُ فيه النَّفسُ عَبْرَهُ مِنَ التَّخْمين إلى اليَقينِ ، فكان صِراطُ النَّفس في الدُّنيا أيضًا أحَدُّ مِنَ السَّيْفِ وأَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ، مَنْ تَفَرَّغَ لِشُروطِ جَوازِه ولم يَتَفَرَّقْ أوْ يَتَثَاقَل عنه جَازَ بأسرعَ منه في الآخِرَةِ " واعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جَميعًا ولا تَفَرَّقُوا واذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عليكم إذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوَانًا " : سَمَّاهم رَبُّنَا إخوانًا فَهُمْ الإخْوَةُ الحقيقيون لأنّهم يُساعِفونَك على تَلْقينِ النَّفسِ حُجَّتَها التي تَقْطَعُ كُلَّ حُجَّةٍ وهِيَ كلمةُ التَّوحيدِ الشَّريفة التي تصير بها عالِمَةً عامِلَةً كامِلَةً ، لا إخوانَ السُّوءِ الذين تَحْسِبُهم جَميعًا

وقُلوبُهم ونُفوسُهم شَتَّى لأنّهم استَمْسَكُوا بِحَبائِلِ الشَّيطان لِيُمَكِّنُوا بِهَا نُفوسَهم مِنَ السُّلوكِ في طريقٍ كاذِبَةٍ خاطئةٍ : " نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ " ،



فإنّ ناصِيَةَ الطّريق وقُسْطاسَ التَّحقيق في ناصِيَةِ الإنسانِ وهِيَ نَفْسُه ، وإذا تَحَرَّكَتْ النَّواصِي تَبِعَتْها الأقْدامُ لِتَحقيقِ مُرادِ النَّاصِيَةِ فَقال تعالى : " فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي والأَقْدامِ " ، فَيَا عَبْدَ الله أُسْلُكْ وانْجُ بنفسك قبل أنْ يَدُقَّ جَرَسُ الرُّجوعِ إلى الله لِتَكون ناصِيَتُك وبَصِيرَتُك صادِقَةً مَرْضِيَّةً عنده وهذا مَعَ أَهْلِهِ وخَاصَّتِهِ الذين كانوا له أهْلًا وكان لهم سَهْلًا مِمَّنْ قال فيهم تعالى " قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى " ، فَيَا أخي وقَدْ عَرفتَ حَقَّ هذه النَّاصِيَةِ فَلا تُبَدِّدْهُ بِالتَّسْويفِ، فإنَّ الذِّئْبَ يَأكلُ مِنَ الغَنَمِ القَاصِيَةَ والوِقايَةُ خَيْرٌمِنَ العِلاجِ ، وانْظُرْ كيف جَعَلَ رَبُّنَا الوِقَايَةَ تَبدأ بالنفس قبل الغَيْرِ فقال تعالى " يَاأَيُّهَا الذين آمنوا قُوا أنفسَكم وأهْلِيكُمْ نَارًا " لأنَّ هذه النَّفسُ هي وَقُودُ تلك النَّار في الآخِرة إنْ أبْقَاها صاحبُها على طبْعِها النَّاري الطِّينِي ولَمْ يُلَطِّفْها بالقلب الذي هو بَيْتُ الرَّبِّ بالسُّلوكِ والسَّفَرِ إلى الله تعالى كَمَا ذَكَرْنَا مِنَ الواحِدِية فالأَحَدِية فالفردانية ، وبذلك لَنْ تَعْرِفَ نفسَك حَتّى <u>تَعْرِفَ نَفْسَكَ</u> ، وهي طاقة السُّلوك إلى الله تعالى عبادةً ومعاملةً وأخلاقًا وعقيدةً على مدرَّجٍ واحدٍ ووحيدٍ هو : مدرَّج التَّوْحيد ،

ولا تَحْسبَنَّ أنَّ مقام الإحسان وُجِدَ للكلام أوْ مَلْءِ المجالس بالأقوال عنه وقِيلَ وقَّالَ ،

وإنَّما هو مَقامٌ تَطبيقي 100 بالمئة ، يَقيني 100 بالمئة ، فَهُوَ فريضةٌ على كُلِّ مُكَلَّفٍ

ذَكَرًا وأُنْثَى إنْ كان قادِرًا عاقِلًا ، وليس لِمَنْ اسْتَطاعَ إليه سَبيلًا كَما ظَنَّ البعضُ ، بَلْ يجب تحقيقه

فَوْرًا كَمَا ذَكَرْنَا سابقًا فهو عَزِيمَةٌ وليس رُخْصَةٌ ، إذْ الرُّخْصَةُ مِنْ خَصائص الصِّبيان والنِّسْوان ،

والعَزيمةُ مِنْ خَصائصِ فُحُولِ الرِّجالِ ، وعَزيمَتُهم في مَقامِ الإحسان هو الذي جَعَلَهُمْ يَتَمَسَّكون بأصَحِّ

الشَّريعةِ مِنَ الإسلام،أمّا مَنْ جَعَلَ مَقامَ الإحسان رُخْصَةً لا عَزيمةً اتَّبَعَ أيضًا رُخَصَ الشَّريعة لا عَزائِمَهَا

فَلَمْ تَصِحَّ منه صَلاةٌ ولا صِيامٌ لأنّه يَتْبَعُ الرُّخْصَةَ في مَوْطِنِ العَزيمة،فَتَهَاوَنَ في الصَّلاة وفي كثيرٍ من

الطَّاعات وذلك ليس سِوَى لِنِيَّتِه هذه فانتبهْ يا أخي واحذر، وانظرْ كيف جَعَلَ رَبُّنا تعالى له رُسُلًا سَمّاهم

أولي عَزْم ولم يُدْرِجْ سواهم في هذه العَزيمَةِ عِبْرَةً لهذه الأُمَّة وتَنْبيهًا لها لِشَرَفِ وعَزيمَةِ مَقامِ

الإحسان ، وَقَدْ لَخَّصَ أحدُهم مَقامَ الإحسان الذي هو بَيْتُ قَصيدِ نَفْسِ الإنسانِ في المخطّط التّالي :



ثمّ اعلمْ أنّ النفس لا تُصبح مُتَسامِيَةً لا تَنْشُدُ سِوَى المَعالي إلا بعد نَجاحِ صاحبِها بِالوُصولِ إلى الله تعالى عند مرحلةِ النَّفس المُطمئنّة فهو هُنا غالبًا ما يَنْتَفِعُ بالمَواعِظ والعِبَرِ والنَّفَحات الرَّبَّانية في الكِتاب والسُّنَّة وبِأَثَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، إذْ كيف تَنْتَفِعُ بِذِكْرِ الله وأنت لم تطمئنَّ لِلمَذْكورِ وهو اللهُ تعالى ، وكيف تطمئنُّ في صَلاتِك وأنتَ لم تطمئنَّ لِلذي تُصَلّي له وكيف تَدْعوه وأنتَ لا تَثِقُ مُطمئنًّا بِمَنْ تَدْعُوهُ ، فمَنِ اطْمَأَنَّتْ نفسُه بِذِكْرِ الله تعالى ولَمَّا يُقَصُّ عليه مِنْ سيرةِ السَّلَفِ يَراه الآنَ واقِعًا وحَقًّا ، لا نُكْتَةً أوْ لِقَتْلِ الوقت كما يَراه بعضُ أصحابِ النَّفسِ الأَمّارةِ ، فيُلْهِمَهُ القُدْرَةَ على التَّسَامي إلى تلك الحالةِ التي كانوا عليها دون أنْ يَرْتَدَّ كَمَا يَرْتَدُّ غيرُه لأنّه بِتَسَامِيهِ هذا ذاقَ وعَرَف فَاعْتَرَف، فلَهُ الصُّعود وله التَّنَزُّلُ حسب الحالةِ وحسب المَقامِ ، عكس صاحب النّفسِ الأمّارةِ واللّوّامَةِ فإنّه إنْ أُخْبِرَ أوْ قُصَّ عليه أوْ رَأى سِيرَةَ أحد الصَّالِحين وسِيرةَ الصَّحابةِ الكرام وسِيرَةَ النَّبِيِّ عليه السلام فإنّه يَرْفَعُ بَصَرَهُ لحظةَ القَصِّ ولَحظةَ الوَعْظِ ثمّ يعود إلى ما كان عليه دون تَطبيقٍ ، لأنَّ كوبَه مَليءٌ وما دام لم يُفْرِغْ كوبه مِنَ

العاداتِ السّلبيّة السَابقة وما دام لم يَسْتَبْدِلْ قطعَة جُبْنِهِ القديم فإنّه سَيَبْقَى في نَفْسِ المَتاهَةِ يُراوِحُ مَكانَه ، وهذا الأمرُ لا يختلف عن شَأْنِ النّفسِ الحيوانيّة بل والنفسِ الشَّيطانية ، لأنّ الشَّيطان هو الذي لا يُصَحِّحُ ولا يُحاسِبُ نفسَه ولا يَتَدارَكُ أخطاءَه فهُوَ في نفسِ الخَطَإِ منذ الأزَلِ إلى الأَبَدِ وهذه النَّفسُ الأمّارَة هِيَ قَرينةُ هذه النَّفسِ الشَّيطانيّة فلَيْسَ لها قُدْرَةٌ على التَّسامِي إلى ما فوْق وما وَراء ، ذلك مَجالُها الذي تَتَشَبَّثُ به كَما ذَكَرْنا سابقًا أسبابَ ذلك وكيفيَّةَ عِلاجِه ، فلا تَقْدِرُ على التَّوبَةِ النَّصوحِ وتَمَلُّ بسرعةٍ مِنْ واقعِ الطَّاعةِ لأنّها غيرُ مُدَرَّبَةٍ على التَّنميَةِ لِبَشَرِيَّةِ صاحِبِهَا ، فهي مُبَرْمَجَةٌ على برنامجِ الحَيوانِ بَلْ وشَقيقةُ برمجةِ الشَّيْطانِ ، لذلك تَرى المَواعِظَ مجرّد نُكْتة أوْ شيءٍ لِقَتْلِ الوقت أوْ خيالًا لا قُدْرَةَ لَها عليه ، عكس صاحبِ النفسِ المُطمئنَّةِ الذي له القُدْرَةُ على التَّسَامِي والتَّكامُلِ أُفُقِيًّا وعَمودِيًّا ، وهذا هو الذي يَصْلُحُ لِخلافةِ الرُّسُلِ وخِلافَةِ السَّلَفِ وتَرْبِيَتِهِمْ لأنّه في طاقَتِهِ الإقْتِداءُ بهم وبِتَرْبِيَتِهِمْ المُبَرْمَجَةِ على تَرْبِيَةِ نَبِيِّهِمْ عليه السَّلام ، فكانت خِلافَتُه لهم في أرضِ الدُّنيا امْتِدادًا لِخِلافَتِهِمْ في أَرْضِ الآخِرةِ عكس مَنْ فَاتَهُ الإقْتِداءُ فَفاتَهُ الإهْتِداءُ ، فإنَّ صاحبَ النّفس التي أخْلَدَتْ إلى أرضِ الدُّنيا حَتّى تَعَوَّدَ الزَّحْفَ ولم يُجَرِّبْ يومًا الطَّيَرانَ لأنَّ الصُّنْدوقَ الأَسْوَدَ لِنَفْسِهِ الأمّارة يَحْجِبُ عنه الحَقائق التي تُشَوِّقُه إلى السَّيْرِ إلى الله تعالى ، فَأَطاعَ نَفْسَهُ وهي مَخْلوقَةٌ مثلُه ونَسِيَ أنّه لا طَاعَةَ لِمَخْلوقٍ في معصيةِ الخالِقِ ولوْ جاءه بالطّاعات مِنْ صَلاةٍ وصَدَقَةٍ ، فانْقَلَبَ عليه التَّحْقيقُ وبَقِيَ عَبْدًا لها لأنّه نَصَّبَها له رَبًّا ووَثَنًا وصَنَمًا فَأنّى له بعد هذا أنْ يَذوقَ طُعْمَ الحُرِّيَّة وحقيقة السَّعادَةِ وحَقَّ اليَقينِ ، وأصبحت هذه النفسُ الأمّارة خَليفَةً وسَفيرةً عنه لَدى الشَّيطانِ عِوَضَ أنْ يَكونَ هُوَ الخَليفَةُ عنها عِنْدَ رَبِّها وبارِئِها مادام في فُرْصَةِ الدُّنيا وأرْضِ الخِلافَةِ الدُّنْيَا ، وهذا الإصرارُ على الوَثَنِيَّةِ وعلى الوَهْمِيَّةِ هُوَ صُورَةُ ولُبُّ برنامجِ عَمَلِ النّفس الأمّارَةِ اقْتِداءً بِصاحِبَتِها الشَّيطانية مِنْ غَيْرِ وَعْيِ صاحبِها نَظَرًا لِإنْطِماسِ بَصيرَتِه ، وما دام صاحبُها لم يَأْخُذْ أسبابَ فَكِّ هذه العبوديّة البَاطِلَةِ ويَسْلُكُ بِهَا إلى الحَقِّ

تعالى بين هذه الصُّوَرِ والأوْثانِ التي زَيَّنَها الشّيطان له في نفسه بِنَفْسِهِ فإنّه سَيَظَلُّ يُخْطِئُ ولَا يُصَحِّحُ خَطَأَه لأنّه لا يُحاسِبُ نفسَه ويُعاشِرُ أصحابًا ومَعارِف لا يُحاسِبون أنفسهم أيضًا ويُصاحِبُ أقوامًا قَنِعُوا بالزَّحْفِ في أرضِ الخِلافةِ وظَنَّ معهم أنَّها أرضُ الجَنَةِ ، ولم يُكَلِّفوا أنفسَهم تكاسلًا عَناءَ السَّيْرِ إلى الله تعالى مِنْ وَراءِ أنْفاسِ الدُّنيا ، مع جَماعَةِ أهْلِ الله الذين هُمْ أهلُه وخاصَّتُه وأهلِ السَّلام والإسلامِ المُتَّبِعين سُبُلَ السَّلام ، فَهُوَ مِنَ الذين تَخَلَّفوا وقَنِعُوا بِقُشورٍ مِنْ أوامِرِ نَفْسٍ كادِحَةٍ مِنْ أَجْلِ لاشَيْءٍ ولم يَنْتَظِمْ مع النَّاجِحين الفائِزين الذين دَخَلوا في السِّلْمِ كَافَّةً ، فهذه النَّفسُ في بِدايَتِها مع أوَّلِ دَقَّاتِ الأَزَلِ لَمّا أُهْبِطَتْ ادَّعَتْ الرُّبوبِيةَ بِلِسانِ فِرْعَوْنِها " أنا رَبُّكُم الأعْلَى " وبِلِسَانِ إبْلِيسِها " أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ " وهذا الإدِّعاءُ كان أصلًا وطَبْعًا في داخِلِها نَفْسِها ، لا مِنْ شَيْطَانٍ ولا مِنْ غَيْرِه فَكان تَكْليفًا مِنْها بِغَيْرِ تَكْليفِ رَبِّها ، فأرَادَ رَبُّنَا أنْ يُطالِبَها بِدَليلِ دَعْوَاها فَابْتَلاها بِالمَكْرِ الإبْلِيسِي في أَرْضِ الجَنَّةِ فَلَمَّا أَخْفَقَتْ أَعْطَاها آخِرَ امتحانٍ وجَعَلَ لها لِذلك أرْضًا وَاسِعَةً هِيَ أَرْضُ الدُّنيا وجَعَلَ لها وَقْتًا كافيًا قبل الموت أيْ مَوْتُ ذَريعَةِ الإمتحانِ وهو الجسد لا مَوْتُ النَّفس لأنّها سَتَعيشُ لأجْلِ حِسابِها وتَعِيشُ بَعْدَ حِسَابِها إمَّا في جَنَّةٍ أوْ نارٍ ، فَثَبَتَ مَنْ سَلَكَ بها إلى اللهِ تعالى فَسارَ وطَارَ ، وزَلَّ مَنْ تَهاوَنَ وزَحَفَ وفَرَّ يَوْمَ الزَّحْفِ ويَوْمَ التَّكْليفِ وأيَّام المُهْلَةِ وهو الدُّنْيا ، لذلك قُلنا سابقًا أنَّ تَصحيح بَرْمَجَةِ النّفس يكون مِنْ داخِلٍ بالأصَالَةِ لا مِنْ خَارِج ووِفْقَ كَيْفِيَّةٍ أوْ طَريقَةٍ سَلَكَ بِها عالِمٌ أو شَيْخٌ مُدَرَّبٌ مُجَرِّبٌ مُجَدِّدٌ لِهذا الدِّينِ مُعْتَمِدٌ في اقْتِدائِه على

نَفْسِ النَّفْسِ النَّبَوِيَّةِ بِلا زِيادَةٍ أوْ نُقْصانٍ كمُجَدِّدٍ لِشَرْعِ النَّبِيِّ عليه السلام بِشَكْلٍ يَشْرَحُ الصُّدورَ ويُبْهِجُ النُّفوسَ على خُطَى الرَّعيلِ الأوَّلِ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ أهْلِ الذِّكْرِ الذين قال فيهم اللهُ تعالى : " وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ " ؛ وإلّا فهذه النّفسُ التَّائِهَةُ ما زالتْ تُحاكي صُورَةَ الهَلاكِ الإبْلِيسِي الأَوَّلِ فِي

الأزَلِ وضَلالِهِ القَديمِ الذي قُلْنا في سَبَبِه أنّه في جِبِلَّتِهِ وطَبْعِه لا يقبل التَّصحيح والحِسابَ والتَّقييم، فهو يُعيدُ نفس الخَطإِ ونفس المعصية وبِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ ، ولكن صاحبَ النَّفس الإنساني معصيتُه أكبرُ لأنّه رُكِّبَ فيه العقلُ الذي به يَفْهَمُ الوَحْيَ السَّماوي مِنَ الوَحْيِ الشَّيْطاني ، عكس الشَّيطان الذي لا يُحاسِبُ نفسه ويُعيدُ نفس الخَطإِ منذ الأَزَلِ لأنّه بِلا عَقْلٍ وبِلَا وَعْيٍ وكُلُّهُمْ مِنْ وَحْيِ إبليسَ مُلْتَمِسُون ، أمَّا سالِك طُرُق أهلِ اللهِ في تَرْقِيَةِ نفسه لِلْوُصولِ إلى اللهِ تعالى فهُوَ مُشَيَّدٌ بالعقل والوَحْيْ مَعًا مع اختلافِ الطُّرُقِ والأساليب لإختلافِ الطِّباعِ والنُّفوس لكنّهم كُلُّهم مِنْ رسولِ الله مُلْتَمِسُون شِبْرًا بِشِبْرٍ وذِرَاعًا بِذِراعٍ مع اختلافِ الشِّبْرِ واخْتِلافِ الذِّرَاعِ ، فإنَّ جَوَّ صُحْبَةِ النّفس مع أهلِ اللهِ تعالى هِيَ نَفْسُ جَوِّ صُحْبَةِ الصَّحابةِ لِلنَّبِيِّ عليه السلام ولم يَنْقَطِعْ ذلك أبدًا كَما لا يَنْقَطِعُ أبدًا أيضًا جَوُّ الصُّحْبَةِ مع أهل الضَّلالِ ، قال تعالى : " يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمَامِهِمْ " إذْ مَنْ جَالَسَ جَانَسَ ، فالتَّغييرُ إيجابًا وسلبًا لا يحدث إلّا بالتَّحفيزِ أو الإلهام وذلك هو الذي يُسَبِّبُ سُرْعَةَ تَفاعُلِ النَّفْسِ مع الأنْفاسِ قَبْلَ النُّفوسِ ، ولِذلك جَعَلَ اللهُ تعالى التَّغييرَ بِصيغةِ الجَمْعِ وإنْ كان مَبْدَأُهُ فَرْدِيًّا هو النَّفسُ فقال تعالى : " إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " ، فمن لم يَتَدارَكْ إذن نفسَه بالسُّلوك إلى مَلِكِ المُلوكِ ظَلَّ مَحْشورًا في صُنْدُوقِ نَفْسِهِ الأَمّارَةِ طُولَ حياته وعاش ظِلًّا لِنَفْسِهِ ، لا تنفعُه صَلاةٌ ولا صِيامٌ ولا صَدَقَةٌ إنْ لم يَتَدارَكْهُ رَبُّهُ بِرَحْمَتِهِ وليس ذلك سِوَى بهذه الصُّحْبَةِ وهي عِلَّةُ النَّفسِ لأنَّها عِلَّةُ حُسْنِ الخاتِمَةِ أوْ سُوءِهَا ، فكان السُّلوكُ والصُّحْبَةُ شَيْءٌ خَطيرٌ غَفلتْ عنه نُفوسُ هذا الزَّمان كَمَا غَفلَ عنه مَنْ كانَ قَبْلَهُمْ أيضًا غير مُعْتَبِرِين بِعاقِبَتِهم السَّيِّئَةِ "وعَادًا الأُولَى وثَمُودًا فَمَا أَبْقَى وقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وأطْغَى والمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى " ، وقد قال أحدُهم مُحَذِّرًا : إنّ سبب ضَلالَةِ أكثر المُبْتَدِعَةِ مِنْ إثْنَتَيْنِ وسَبْعِينَ فِرْقَةً كَمَا في الحديث وخُروجهم عَنِ الطَّريقِ المُسْتَقيمِ هُوَ أنّهم دَخلُوا في طَريقِ اللهِ ولم يَقِفُوا على حَقيقَةِ الأمر ولم يُتِمُّوا السُّلوكَ فضَلُّوا وأَضَلُّوا فاحذرْ ، ودَعْ كُلَّ الأهدافِ وكُلَّ البَرامجِ والأَحْلامِ

جانبًا إنْ لم يكن معها رَأسمالُها وهو برنامجُ إصلاحِ النَّفس ، فإنَّ تلك البرامج والأهداف والطُّموحات لا تُسْمِنُ ولا تُغْني مِنْ جوعٍ ولوْحَقَّقْتَ منها ما حَقَّقْتَ إنْ لم يَكُنْ إمْدادُها واسْتِمْدادُها مِنْ برنامجِ إصلاحِ النَّفس وهو ما يُسَمُّونَه بالأهدافِ الرُّوحانيَّةِ ونحو ذلك ، ودَعْ كُلَّ تلك الشَّهاداتِ والإجازَاتِ والدَّوَرَاتِ والمكاسِبِ والمداخيل جانبًا إنْ لم يكن معك شهادةُ تَخَرُّجِ نفسك بعد سَيْرِها إلى الله تعالى كما ذكرْنا سابقًا وهي شهادةٌ واحدةٌووحيدةٌ هي شهادةُ القلب بعد زَكاةِ النَّفس بأنْ لا إله إلاّ الله وأنَّ محمّدًا رسولُ الله ، مُوَقَّعَةً مختومةً مِنْ رَبِّ البَرِيَّةِ ،وهي الشَّهادةُ الوحيدةُ التي لا تُقْبَلُ مُوَقَّعَة أوْ مختومةً مِنْ مخلوقٍ ولو كان صاحبُ الوقت أوْ ملياديرُ الكون ،إنّها الشَّهادةُ الوحيدة التي لا تنفع في شيءٍ إلّا بإمضاءِ وخَتْمِ الحَقِّ لا الخَلْقِ ، وهذه لا تحصل عليها يا أخي مِنْ جامعةٍ ولا مِنْ حزبٍ سياسي ولا مِنْ جمعية كذا ولا مِنْ شَرِكَة كذا ولا مِنَ السَّيِّد الفُلاني ولا مِنَ السَّيِّدةِ الفُلانية ، وإنَّما إجازةٌ مِنْ شَيْخٍ مِنْ أهلِ السُّلوكِ يُدَرِّبُ نفسك لِتعيش حياتك على إلهاماتِ التّقوى لا إلهاماتِ الفُجورِ ، وهِيَ شَهادَةٌ مُسْنَدَةٌ إلى سُلوكِ رسول الله عليه السلام والسَّلَفِ الصَّالِح مِنْ بَعْدِه وتَصِلُ في إسْنادِها إلى جبريل الأمين إلى رَبِّ العِزّةِ ، فانتبهْ واحذر فلولا الإسنادُ لَقالَ مَنْ شاءَ ما شاءَ ، فهِيَ إذنْ الشَّهادةُ الوحيدة في حيانك التي لا تنفع بفُقْدانِها لا دُكتوراه ولا ديبلوم ولا غيرهما ، ولكنّك لن تحصل عليها إلّا بعد سُلوكِ نفسك بمِعْراجِ رسول الله عليه السلام إلى الله تعالى أثناء أداء شَعائرِ الدِّين فهو عَمَلٌ بِدَوامٍ كُلِّي ويستغرقُ كُلَّ أنْفاسِ حياتك حتّى تَحْسُنَ خاتِمَتِكَ على قدر إحْسانِكَ لِمَقامِ الإحْسانِ وتَقول عند مَوْتِكَ : لا إله إلاّ الله ، وتلك هي خَتْمُ هذه الشَّهادة مِنْ رَبِّ العالَمِين ، وهُناك تُنْهِي سُلوكَ نفسك في عَوالِمِ الدُّنيا إلى سُلوكِ عَوالِمِ الآخِرة ، وعلى قدر السُّلوكِ الدُّنيوي يكونُ السُّلوكُ الأخْرَوي " لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أنْ يَتَقَدَّمَ أوْ يَتَأَخَّرَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ " ، وليس بعد ذلك التّوحيد الذي حَصَّلْتَه بِسُلوكِ نفسك على بَرْدِ اليْقينِ إلاّ سِدْرَةَ

المُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى ما زاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى ، وتَرَى حينها آياتِ رَبِّكَ الكبرى على عَيْنِ رُؤْيَةِ نَبِيِّكَ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ الشَّرِيفِ وهُوَ مِعْراجُكَ بِنَفْسِكَ على مِنْوَالِ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ وأَنْتَ في الدُّنيا ، فافهم واحذرْ ، وتلك هي لَحْظَةُ عَوْدَةِ النَّفسِ لِكَمالِها الأصلِيِّ بعد أنْ رُدَّتْ لأسفلِ سَافِلِينَ الإمتِحانِ وعلى قدر الإمتحان يكونُ الإمْتِكانُ وعلى قدرالمَشَقَّةِ يكونُ الأجْرُ خاصَّةً في نَفْسٍ صَعْبَةٍ حَسّاسَةٍ كَنَفْسِ الإنسانِ ، فَكان لها فُرصة واحدة ليس بعدها أيّ فرصةٍ وقَدْ تَجَلَّتْ هذه الفرصة بالخِلافة الإنسانية الكونية مُنْطَلَقُهَا خَلاصُ النَّفسِ مِنْ كُلِّ شَوَائِبِ الشِّرْكِ الذي عَلِقَ بها أثناء الإنْزالِ لِلدُّنيا والذي سَيَتَعَذَّبُ صاحبُها بذلك الشِّرْكِ يَوْمَ المَعَادِ إنْ لم يُجاهِدْهَا في الله حَقَّ جِهادِهِ ، فهِيَ خِلافَةٌ صَعْبَةٌ حُمِّلَهَا الإنسانُ لأنّها خِلافَةٌ على أسماءِ الله تعالى وصِفاتِه التي يَتَخَلَّقُ ويَتَحَقَّقُ بِها الإنسانُ أثناء سَيْرِهِ إلى الله في شُعَبِ الدُّنيا وليس ذلك سِوَى بِنَفْسِهِ التي هِيَ خَليفَةٌ على بَيْتِ رَبِّهِ وهو القلب ، وأيضًا خِلافَةً عَلى قوله تعالى " كُنْ " ، وكُلُّ النُّفوس تَدَّعِي قَوْلَهَا : كُنْ ، فانْطَمَسَتْ العبوديةُ الأصلِيَةُ فيها بِادِّعَاءِ الرُّبوبِيةِ وصَعُبَ المَخْرَجُ إلّا لِمَنْ تَحَقَّقَ بِمَراحِلِ السُّلوكِ الذي ذكرْناه أوْ مِثْل الذي ذكرْناه ، فهِيَ خِلافَةٌ ابْتَدَأَتْ مِنْ عَالَمِ الأَمْرِ قَبْلَ عَالَمِ الخَلْقِ : " إنَّما أَمْرُهُ إذا أرادَ شيئًا أنْ يَقُولَ له كُنْ فَيَكُونُ " فإنَّ الإنسانَ كَمَا هو معلومٌ مُرَكَّبٌ مِنْ عالَمِ الخَلْقِ الذِي هو ظاهِرُهُ ومِنْ عالَمِ الأَمْرِ الذِي هو باطِنُهُ فكُلُّ ما هو في عَالَمَيْ الخَلْقِ والأَمْرِ فهُوَ في الإنسانِ ولكنْ مع شيءٍ زائدٍ عليه هُوَ هَيْئَتُهُ الوحْدَانِيَّةِ التي نَشَأَتْ مِنْ تَرَكُّبِ الخَلْقِ والأَمْرِ ولا تَتَيَسَّرُ له إلّا بعد السُّلوكِ الذي ذكرْناه مِنْ مَرْتَبَةِ الوحدانيةِ إلى الأَحَدِيةِ إلى الفرْدانِيةِ ،

و كان السُّلوكُ إلى الله تعالى مِنْ عالَمِ الأَمْرِ إلى عالَمِ الخَلْقِ كَمَا ذَكَرْنَا سابقًا أيْ مِنْ عالَمِ النّفس إلى عالَمِ الآفاق أوْلَى وأحسن، فإنَّ بعض مَشايخَ السُّلوكِ ظَنُّواأنَّ البِدايَةَ لِلسُّلوك تكونُ مِنْ عالَمِ الخَلْقِ لأنّه عالَمٌ أدْنى لِيَكونَ الطَّرِيقُ مِنْ أدْنَى إلى أَعْلَى ، والأصَحُّ هو العكس : فإنَّ عالَمَ الخَلْقِ هُوَالأعْلَى كَمَا قال تعالى" أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ "، نَعَمْ إنَّ النُّقطةَ الأخيرة التي هِيَ عَالَمُ الخَلْقِ وَاقِعَةٌ قَرِيبًا مِنَ النُّقْطَةِ

الأُولى مِنْ عَالَمِ الأَمْرِحَيْثُ أَصْلُ الأَصْل ، وهذا القُرْبُ لم يَتَيَسَّرْ لِنُقْطَةٍ أخرى فافهم ، إذنْ فُرْصَةُ الخِلافَةِ أنْتَجَتْ فُرْصَةً اسْمُهَا التَّكْليفُ بشَرَائِعِ التَّوْحِيدِ ، وكُلُّ هذه الشَّعائرِ شَرَائِعٌ تَهْدِي النَّفْسَ لِعُنْوانِهَا الذي جاءتْ منه وإليه تعودُ هُوَ حَقُّ اللهِ على العَبيدِ و الذي هُوَ التَّوْحِيدُ ، وهُوَ البرنامجُ الوحيدُ الذي تَنْجُوا به مِنْ دَوَّامَةِ الشِّرْكِ الذي أَحْدَثَهُ الإنبِهَارُ بِزَخارِفِ الدُّنيا ، فإنْ طَبَّقْتَ مَراحِلَ سُلوكِ النَّفْسِ بِهَذَا البرنامج الذي اختصرْناه مِنْ قَبْلُ في ثَلاثِ كَلِمَاتٍ : ذِكْرٌ بإجتِماعٍ وخُشوعٌ بإسْتِمَاعٍ وتَحَمُّلٌ بإتِّبَاعٍ، وفِي قَوْلِهِ تعالى : " يُعَلِّمُهُمْ الكِتَابَ والحِكْمَةَ ويُزَكِّيهِمْ " ، صَحَّتْ لَكَ وراثَةَ الأرض الآخِرَةِ الأُخْرَى أيضًا ، وهناك تَسْتَمْتِعُ وتَتَلَذَّذُ كَمَا لَمْ يُزَيِّنْهُ وَهْمُك في الدُّنيا ، عكس مَنْ انْشَغَلَ بتِلك المُتَعِ في الدُّنيا حيث نَسِيَ انْتُقْصَ الذي عليه إنْ لَمْ يُكَمِّلْهُ لَمْ يَكْمُلْ له أيُّ شيءٍ في الدُّنيا فضلًا عن الأُخْرَى ، إذْ حَقُّ نفسِك تُطالِبُكَ به وأنتَ في الدُّنيا وليس ذلك سِوى بِسُلوكِ وتَكْميلِ تَوْحِيدِهَا بعد حادثةِ أَكْلِ شَجَرَةِ الشِّرْكِ ، وحَقُّهَا الذي في الآخِرَةِ هو تَكْميلُ مُتْعَةِ سُلوكِهَا الذي كان في الدُّنيا فَتُخَلِّدُ صاحبَها عند آخِرِ آيَةٍ وعند آخِرْ إسمٍ إلَهِيٍّ تَحَقَّقَ به في الدُّنيا ، ورأْسُ ذلك النَّظَرُ إلى وَجْهِ اللهِ تعالى الذي خَلَقَهَا وسَمِعَتْهُ بـ " كُنْ " ولم تَرَهُ حِينَها ، فَتُتِمُّ بذلك تَحْقيقَ مَقام الإحسان في الدُّنيا هناك في الآخِرَةِ : " لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَ زِيَادَةٌ " .

هذا باختصارٍ سُلُوكُ نَفْسِكَ بِمَقَامِ الإِحْسَانِ وهو حَقٌّ ، ما دُمْتَ فِي الدُّنيا ، فَمَا حَقِيقَةُ نَفْسِكَ بعد هذا أخي القارئ ؟ ...

تَمَّتْ

و بالخيرِ عَمَّتْ

الخاتمة ..... الخلاصة :

الحوصلة ....

الإنسان في حياته لابدّ أن يعاني متناقضات عصره ومصره أو ما يعرف بأزمة الهويّة التي غرق فيها كثير من الناس اليوم ، وليس من حلّ لدرء هذا الحرج الوجودي سوى عبر برنامج لإصلاح النّفس بكافّة تنوّعاتها ومتناقضاتها الأزلية ، ومن النّفس نحاول أن ننطلق لإعادة برمجتها الرّبّانية الفطريّة التي فيها منذ الأزل ، من أجل إبحار جديد وإسلام متجدّد ، نحو الغوص عميقا وإخراج صبغة الله تعالى في هويّة ونفس كلّ إنسان ، وليس لذلك من سبيل – حسب نظرنا – سوى بإعادة تشغيل وتفعيل مقام الإحسان في النّفس والآفاق بتتبّع تعاليم القرآن وأهل القرآن وسنّة النبيّ العدنان ، هي خريطة وبوصلة لإعادة إبحار الذّات البشرية عبر المتناقضات النّفسية والكونية ، محاولة منّا لتحديد النّقطة العمياء التي انحجبت بطول الأمل وطول الأمد عن سويداء القلب ، وإعادة السفينة البشرية بقيادة القلب الذي هو بيت الرّبّ على جادة بحار وتجلّيات الحقّ ...

إنّ الإنسان لا يَصل إلى الحقيقة وإنّما يصل إلى الحقّ : [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ] ...

المراجع :

مراتب النّفس ، عبد الخالق الشّبراوي

مُنيل المآرب للبشر شرح الكبريت الأحمر ، مصطفى ماء العينين بن مامين

شرح ستّ العجم بنت النّفيس البغدادية على المشاهد القدسية

نور اليقين شرح حديث الأصفياء المتّقين ، ابن مرزوق الحفيد التلمساني ، مخطوط

من رسائل الشيخ عبد الحفيظ الخنقي البسكري

جزيرة اليوم السابق ، أومبرتو إيكو

مذكّرات تولستوي

مراحل السلوك من خلال الحكم العطائية ، عبد الرحمن صخري

المكتوبات الرّبّانية ، أحمد الفاروقي السرهندي

مجموع رسائل ابن حزم الأندلسي

منظومة – المباحث الأصلية- ، ابن البنّاء السّرقسطي

خرافة الإلحاد ، د.عمرو شريف

مجلّي الآماق وإثمد الأحداق في شرح تائيّة الحرّاق ، محمّد بن المهدي بن القاضي التّاودي

الجامع لدرر العلوم الفائضة من بحار القطب المكتوم ، محمّد بن المشري السّائحي

عين الحياة ، تفسير للشيخ علاء الدّولة السّمناني

منازل السّائرين ، إسماعيل الهروي

مفتاح حقيقة الحقائق ، عبد الكريم الجيلي ، مخطوط

القصيدة العينية ، ابن سينا

شرح زكريّاء الأنصاري على الرّسالة الرّسلانية ، مخطوط

نظم الطّيّب بن كيران لشُعَب الإيمان

الصفحة الرسمية للشيخ نزار حمّادي (مدير مركز ابن عرفة للعلوم الإنسانية ، تونس) على الفايسبوك

قناة الشّيخ عبد الله المدني ، على اليوتيوب

سفيان بلحساين : من مواليد 1989 بمدينة تلمسان بأقصى الغرب الجزائري ، نشأ و تابع أطوار دراسته بنفس المدينة ، وبها إنخرط بصفوف الكشافة الاسلامية الجزائرية وعمره 12 سنة ، ومارس بها لأربع سنوات كاملة ، كما أسّس جمعيّات خيريّة تضامنيّة بمختلف أنحاء البلد وعمره 22 سنة ، وأسّس جمعيّتين وطنيّتين ، وشارك وطاف بكافّة القطر الجزائري الكبير في متابعة دائمة في مشاريع خيريّة منها وتطويريّة .

س . محمّد مُرتاض : من مواليد 1989 بمحافظة تلمسان أقصى غرب الجزائر ، نشأ وتابع دراساته الأولى في مختلف مدارس البلدة ، وبها انخرط في صفوف الكشافة الجزائرية وعمره 14 سنة ، وتدرج في مختلف وحداتها حتى أصبح قائدا في فوج الزيانيين حتّى يومنا هذا ، مشارك في عشرات الملتقيات العلميّة والثّقافيّة بمختلف انحاء المحافظة واحتكّ بالقائمين على الشأن الثّقافي والفكري من داخل الوطن وخارجه .

والآن يعمل المؤلّفان على مشروع فكري حضاري يستهدف الفئات الشبّانيّة في الوطن العربي ، مضمونه معالجة فرضيّة و أزمة الهويّة والآفات الإجتماعية ، حسب برنامج إصلاح النّفس بمقام الإحسان ، بمقاربة مقالات وتجارب متعدّدة الإختصاصات .